دكتور
عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني

دراسات جديدة في إعجاز القرآن

مناهج تطبيقية في توظيف اللغة



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف: ٥٢)

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ورضوان الله على صحابته الطيبين الطاهرين ، وعلى أتباعه في الحق إلى يوم الدين .

وبعد ..

فهذه دراسة نحسبها جديدة في إعجاز القرآن البلاغي اللغوي ، وإنما نحسبها جديدة ؛ لأن الدراسات المتعلقة بالإعجاز منذ بدأ البحث في هذا المجال ـ وإلى الآن ـ يغلب عليها التعميم ، وتركن إلى القليل من التمثيل والشواهد مثل قوله تعالى : ﴿ **وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ** ﴾ (البقرة:١٧٩) ، وقوله تعالى : ﴿ **وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا** ﴾ (مريم:٤) ، وقوله : ﴿ **وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ** ﴾ (هود:٤٤) .

كما يغلب عليها وصف الإعجاز من الخارج ، وتحديد الوجوه التي كان بها القرآن معجزاً .

وبعض الدراسات المعاصرة انتهجت نهجًا موضوعيًّا في مجال الإعجاز ، لكن ليس على هذا النمط الذي نقدمه في هذه الدراسة ؛ لذلك ساغ لنا أن نصفها بأنها دراسة جديدة بينها وبين غيرها فرق كبير ؛ لأن هذه الدراسة مقصورة على « مفردات القرآن » ، أي الكلمات التي استعملها القرآن في بناء الجملة ، والنظر في لغة القرآن بهذا الاعتبار هو الخطوة الأولى في الكشف عن أسرار الإعجاز البلاغي اللغوي ، وإلى هذا أشار كثير من أهل العلم الذين كتبوا في الإعجاز قديمًا :

كالجاحظ ، والإمام الخطابي ، وابن عطية ، أما حديثًا فقد تناولت الأستاذة

الدكتور عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في كتابها «الإعجاز البياني» لونًا من هذه الدراسة، ولكنها لم تذكر مناهج القرآن البلاغية في المواد اللغوية التي شملتها الدراسة كما لم تهتم بالدواعي البلاغية لإيثار القرآن كلمة دون أخرى .

أما هذه الدراسة فنحسب أنها وفت بهذا كله مع الإشارة إلى دقائق الإعجاز وخفاياه، ومحاولة إقناع القراء بالمعاني المتوصَّل إليها .

والمنهج العام فيها يعتمد على محورين :

الأول : دراسة لفظية من خلال استعمال لغة القرآن لهما، يُظَنُّ أن هذين اللفظين مترادفين يدلان على معنى واحد، بَيْد أن استعمال القرآن لهما بين ـ في وضوح ـ أن لكلٍّ منهما معنًى، حتى وإن كان اللفظان مترادفين في الوضع اللغوي . وأحيانًا نتجاوز النظر في اللفظين إلى ثالث أو رابع أصلها الدلالي واحد في اللغة ـ وضعًا واستعمالاً، أما في القرآن فتجد لها دلالات دقيقة تنفي عنها وصف الترادف، وذلك مثل : أب ـ والد، إلخ .

أما الثاني : فقد دار النظر فيه على مادة أو لفظ واحد باحثًا عن الفروق للصياغات المختلفة لتلك المادة من الفعلية والاسمية والمصدرية، وفي الصور الفعلية قد تختلف دلالة صورة مع دلالة صورة أخرى، فمثلاً مادة «ختم» وجدنا القرآن المعجز الحكيم يفرق بين دلالة الصور الفعلية فيخصها بمقام لا تتعداه إلى غيره، ومن دلالة الصور الاسمية فيخصها بمقام آخر مغاير تمامًا لمقام الصور الفعلية .

وقد سلكنا هذا المسلك في جميع المواد التي درسناها مما ورد في الاستعمال القرآني .

وبعض الكلمات لم تأت في القرآن إلا مرة واحدة مثل فعل الأمر «أَقْبِل» واسم الفعل «هاؤم»، والفعل الماضي «أظفركم» وجمع المذكر السالم «قليلون» وقد هُدينا ـ والحمد لله ـ إلى معرفة السر البلاغي الإعجازي في مجيء هذه الكلمات في القرآن مرة واحدة مما سيقف عليه القارئ الكريم

مفصلاً مُقنعًا ، وفي بعض الأحيان كانت الدراسة تدور حول إيثار القرآن استعمال كلمات بعينها في الدلالة على معان نجد لها خارج القرآن كلمات أخرى تحظى بقدر هائل من الشيوع والاستعمال على ألسنة الناس .

من ذلك إيثار القرآن كلمات :

الفوز - والسكينة - والناس يستعملون بدلاً منهما كلمتي «النجاح» ، و«الشجاعة» ، وكان منهج الدراسة في مثل هذه «الموازنات» لماذا استعمل القرآن كلمة «الفوز» ، ولم يستعمل كلمة «النجاح» ؟ ولماذا استعمل كلمة «السكينة» ، ولم يستعمل كلمة «الشجاعة» مع ما لهاتين الكلمتين في دنيا الناس من بريق وقوة سلطان ، وشيوع استعمال ؟

والموازنة بين الكلمات أو المفردات اللغوية التي كانت هي خطوط العرض والطول في هذه الدراسة تسفر عن روائع ودقائق من إعجاز القرآن البلاغي اللغوي ، وتدل دلالة قاطعة لا يرقى إليها شك في أن القرآن الحكيم استعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له في كلام البشر مهما أوتوا من الفصاحة ، والبلاغة وسمُوّ البيان .

والمواد المدروسة - هنا - تبلغ أربعين مادة - إجمالاً ، ولكنها في الواقع تناولت الكثير من «مفردات القرآن» - كما سيرى القارئ الكريم - وقد أبنَّا أن القرآن يستعمل اللفظ أو الكلمة في مواضع لا يسد مسدها فيها غيرها من ألفاظ اللغة على اتساعها وتنوعها ، وهذا معنى عبارة ابن عطية صاحب «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز»، والتي خلاصتها :

«لو نزعت حرفًا من القرآن ثم أدرت اللغة من ألفها إلى يائِها لتجد ما يسد مسده ، فلن تجد» .

والإمام الخطابي يرتب على إبدال كلمة مكان أخرى من كلمات القرآن الحكيم نتيجتين خطيرتين :

أولاهما : فساد المعنى بالتبديل .

وثانيهما : سقوط البلاغة .

وفي ذلك يقول ـ رحمه الله ـ :

« ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة ـ يعني بلاغة القرآن ـ التي تجتمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به ، الذي إذا أُبْدِلَ مكانه غيره جاء منه :

* إما تَبدُّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام .

* وإما ذهاب الرَّوْنق الذي يكون منه سقوط البلاغة[1] » .

وهذا الذي ذهب إليه هذان الإمامان هو الصواب الخالص ، ولا ينافي ما ذهبا إليه أن القرآن معجز من حيث نظمه البديع ، على نحو ما بسط القول فيه كل من الإمامين القاضي الباقلاني في كتابه « إعجاز القرآن » ، وعبد القاهر الجرجاني في كتابه « دلائل الإعجاز » .

أجل : إن النظر في مفردات القرآن على هذا النحو الذي ستقرأه في هذه الدراسة ، لا يتعارض مع نظرية « النظم » لأن اختيار اللفظ هو اللبنة الأولى في صرح النظم البديع المعجز ، وخطوة أصيلة في فهم الإعجاز « النظمي » البلاغي الذي يكون في دراسة التراكيب القرآنية ، وما تحفل به من سمات إعجازية تالية لا يُتوصَّل إليها إلا من خلال النظر في التراكيب القرآنية المعجزة ، ومن خلال النظر في التراكيب القرآنية ، وأوضاعها اللغوية من تقديم وتأخير ، وذكر وحذف ، وتعريف وتنكير ، وإظهار وإضمار ، يتجلى الإعجاز القرآني البلاغي اللغوي في أبهى صوره ، وأروع نماذجه ، وأيًّا كان الأمر ، فهذه تجربة جديدة تحاول استجلاء واقعية الإعجاز من الداخل ـ أعني من داخل النظم القرآني نفسه ـ وليست وصفًا له من الخارج تكتفي بسرد وحدة

---

(١) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : (بيان إعجاز القرآن) ، للإمام الخطابي (٢٩)، تحقيق الدكتورين : محمد خلف أحمد ، وزغلول سلام ـ ط دار المعارف (١٩٩١م) .

الإعجاز وضبطها دون التمثيل الدقيق والمستفيض عليها ، ومن فضل الله علينا أن ظفرنا بما يثلج صدورنا ، وبما يثبت ـ في يقين راسخ ـ أن الإعجاز البلاغي اللغوي هو الإعجاز الذي وقع به التحدي ، وأن القرآن هو الإعجاز الذي وقع به التحدي ، وأن القرآن كله ـ كلمة كلمة ، وآية آية ، وسورة سورة ـ هو موطن ذلك الإعجاز ، وليس كلمات أو جملاً مخصوصة منه . إنه ـ أي القرآن ـ كتاب منزل بعلم الله ، كما قال عَزَّ وجَلَّ :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف:٥٢) .

* * *

وسوف يرى القارئ أن المواد اللغوية التي سعدنا بدراستها هنا غير مرتبة ترتيبًا منهجيًّا معينًا ، والسبب في هذا أن دراستها تمت على الترتيب الذي هي عليه ـ الآن ـ من أول مادة إلى آخر مادة ، ولما أردنا ترتيبها أبجديًّا بعد الفراغ منها تبين لنا أن في بعضها إحالات إلى مواد أخرى ، وأن محاولة ترتيبها أبجديًّا سوف يترتب عليه ورود إحالة لم يسبق لها بيان فآثرنا إبقاءها على ما هي عليه ، وبخاصة أن ذكر مواد الدراسة مرتبة حسب ورودها في أوائل الكتاب نرجو أن يكون فيه غناء للقارئ الكريم عن التنسيق المنهجي .

وفي ختام هذا التقديم أتقدم لمكتبة وهبة بجزيل الشكر على ما بذلت في إخراج الدراسة من جهد مالي وذهني إيمانًا واحتسابًا ، وقيامًا برسالتها السامية في مجال النشر الهادف الرزين .

كما أتقدم بجزيل الشكر لإذاعة القرآن الكريم فقد كانت هي السبب في الاهتداء إلى هذه الدراسة ، حين كلفتني بإعداد حلقات صوتية في برامج لغة القرآن ، فسألت الله أن يهديني لعرض سمات جديدة حول لغة القرآن ، وقد منَّ الله علينا بالمراد ، وبلغت الحلقات المذاعة ، حتى إعداد هذه المقدمة أكثر من عشرين ومائة حلقة مدة كل حلقة عشر دقائق .

كما كان لسامعي برنامج «لغة القرآن» دور ملموس في إعداد هـذا الكتـاب، فقد اقترح علينا كثير منهم كتابيًّا وتليفونيًّا ـ بأن تُجمع تلك الحلقات في كتاب مستقل، وكثير منهم لم تربطني بهم سابق معرفة .

هذا وقد علمت من السادة العاملين في إذاعة القرآن الكريم أن سامعي الإذاعة يطلبون منهم مرات إعادة ما سبق إذاعته من الحلقات، كل ذلك كان وراء إخراج هذا الكتاب الذي نرجو أن يكون مقبولاً عند الله ورسوله وصالحي المؤمنين والحمد لله في الأولى والآخرة .

مكة المكرمة في ٢٤ من صفر ١٤١٧هـ .

الموافق ١٠ يوليو ١٩٩٦م .

المؤلف عفا الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

مواد الدراسة

١- الأبُ ـ الوَالِدُ .
٢- أَقْبِلْ ـ تَعَالَ .
٣- أصْحَابُ ـ أُولُو .
٤- الكُرْهُ ـ الكَرْهُ .
٥- النَّصْر ـ الظَّفَر .
٦- قَليلٌ ـ كثيرٌ .
٧- الرِّيح ـ الرِّياحِ .
٨- الرُّشْدُ ـ الهُدَى .
٩- فَرَقَ ـ فرَّق .
١٠- الْجَسَد ـ الجِسْم .
١١- عرَف ـ عَلِمَ.
١٢- الْمَسُّ ـ اللَّمْسُ .
١٣- المَطَر ـ الغَيْث .
١٤- النَّعِيمُ ـ النِّعْمَةُ .
١٥- الجَمَالُ ـ الْحُسْنُ .
١٦- الْمَيْت ـ الْميِّت .
١٧- مَدَّ ـ أَمَدَّ .
١٨- العَمَل ـ الفِعْل .
١٩- الجِهَادُ ـ القِتَالُ .
٢٠- الْمخْطِئ ـ الخَاطِئ .
٢١- كَفَّر ـ غَفَر .
٢٢- مَرِض ـ مَرَضٌ .
٢٣- الْمَرْأةُ ـ البَعْلُ .
٢٤- خَتَمَ ـ خَاتم .
٢٥- طَبَع ـ يَطْبَعُ .
٢٦- رَبَطَ ـ يَرْبِطُ .
٢٧- سَخَّر ـ مُسَخَّرات .
٢٨- سَخِر ـ يَسْخَرُ .
٢٩- السَّكِينَةُ ـ الشّجَاعَةُ .
٣٠- الفَوْزُ ـ النَّجَاحُ .
٣١- اللِّسَانُ ـ اللُّغَة .
٣٢- صَعَد ـ يَصْعَدُ .
٣٣- رَفع ـ يَرْفَع .
٣٤- الدُّعَاءُ ـ النِّدَاءُ .
٣٥- النِّدَاءُ ـ الدُّعَاءُ .
٣٦- الرَّبُّ ـ رَبُّ كُلِّ شَيء .
٣٧- النُّورُ ـ الْمُنِير .
٣٨- الْعَمَى ـ الْعَمَه .
٣٩- الصَّوْمُ ـ الصيِّامُ .
٤٠- ذَاق ـ أذَاقَ .

* * *



الأُبوة ـ الوالدية

الأب في اللغة : هو الوالد ، والوالد هو الأب ، والأم هي الوالـدة ، فقـد جـاء في المصباح المنير في مادة (ول د) :

« الوالـد الأب ، وجمعـه بـالواو والنـون ، والوالـدة الأم ، وجمعهـا بـالألف والتاء »[1].

ومعنى هذا أن الأب والوالد مترادفان علـى معنـى واحـد ، فكلاهمـا يطلقـان على الأب الذكر (الرجل) ، ويُفْرَق بينه وبين الأم (الأنثى) بالتـاء ، فهـو والـد ، وهي والدة .

وقد جاء استعمال العرب على هذا المعنى ، فأطلقوا على الأب كلمة والـد ، ومن ذلك قول حسان بن ثابت :

وإن سنام المجـد مـن آل هاشـم ... بنو بنت مخزوم ، ووالدك العَبْـدُ[2]

وقول عمر بن أبي ربيعة :

قالت وعيش أبي وحرمـة والـدي ... لأنبـهنَّ الحـي إن لم تَخْـرُج[3]

وقال الفرزدق :

رماني بذنب كنت منـه ووالـدي ... بريئًا ، ومن أجل الطوى رمـاني[4]

---

(١) مادة ولد (ص ٦٧١) ، إعداد : أحمد بـن محـمـد الفيـومـي (م ٧٧٠هـ) ـ طبعـة دار المعارف ، القاهرة .

(٢) ديوان حسان .

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة .

(٤) الكشاف (٦٩٣/٢) ، وفيه « بريا » بدل : بريئًا .

فهؤلاء الشعراء الثلاثة أطلقوا على الأب (الرجل) كلمة والد باعتبار أن الكلمتين مترادفتان كما تنص معاجم اللغة .

● استعمال أب ووالد في لغة القرآن :

ذلك هو وَضْعُ أب ووالد في اللغة ، فهل هما في لغة القرآن مثْلُهما في اللغة بوجه عام ؟ أم أن الاستعمال القرآني يختلف عن التناول اللغوي لهما ؟

الواقع أن المتأمل في استعمال القرآن لكلمتي : أب ، ووالد يجد فرقًا دقيقًا بين استعمال القرآن لهما ، وبين الاستعمال اللغوي في كلام البشر .

فالقرآن العظيم يخص كلمة «أب» بالرجل ، ويخص كلمة «والد» مع تاء التأنيث بالأنثى ، ولم يرد في لغة القرآن كلمة «والد» للدلالة على الأب الذكر ، ولا كلمة «أب» للدلالة على الأم الأنثى ما دام الحديث جاريًا على الأب والأم الحقيقيين ، بل الذي في القرآن إطلاق كلمة «أبَوَيْن» في حالة التثنية على كلٍّ من الأب والأم مجتمعين لا مفترقين ، وإطلاق كلمة «والدَيْن» مثنى ـ كذلك على كل منهما مقترنَيْن . فإذا جاء الحديث عن جنس الآباء والأمهات جَمْعًا غير مفرد ولا مثنى ، آثر القرآن جمع الأب على جمع «الوالد» في كل موضع أُريدَ فيه الجمع .

● نماذج من الاستعمال القرآن لكلمتي أب ووالد :

– أب في صيغة الإفراد :

﴿ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا ﴾ (يوسف:٧٨) .

﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ (مريم:٢٨) .

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ (مريم:٤٣).

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ (الكهف:٨٢) .

– أبُ في صيغة التثنية :

﴿ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ﴾ (النساء:١١) .

﴿ **كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيۡكَ مِن قَبۡلُ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ** ﴾ (يوسف:٦).

﴿ **كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ** ﴾ (الأعراف:٢٧).

﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ** ﴾ (يوسف:١٠٠).

في هذه الآيات الأربع جاء أبٌ مثنى مرادًا منه أبوين ذكرين وهما : إبراهيم وإسحاق في الآية الثانية ، ومرادًا منه الأب الذكر ، والأم الأنثى في الآيات الثلاث الأولى والثالثة والرابعة كما هو ظاهر من السياق .

- أبٌ في صيغة الجمع :

هذه هي الحالة الثالثة لاستعمال لغة القرآن لكلمة أب ، ومن أمثلتها :

﴿ **قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ** ﴾ (البقرة:١٧٠) .

﴿ **ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗا** ﴾ (النساء:١١).

﴿ **أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ** ﴾ (النور:٦١) .

﴿ **وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ** ﴾ (يوسف:٣٨).

وفي هذه الآيات الأربع ورد أبٌ مجموعًا جمع تكسير مرادًا به في الآية الأولى : السلف رجالاً ونساءً ، ومرادًا به في الثانية آباء المخاطبين المباشرين لإنجابهم ، وكذلك الآية الثالثة على الأظهر ، أما الآية الرابعة فالمراد منها الأب المباشر للإنجاب : « يعقوب » ، ثم الجَدَّان الأول : « إسحاق » ، والثاني : « إبراهيم » عليهم السلام .

- والد ووالدة في صيغة الإفراد :

ومن أمثلة هذا النوع قوله تعالى : ﴿ **لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا** ﴾ (البقرة:٢٣٣) ، وقوله : ﴿ **وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي** ﴾ (مريم:٣٢) .

وقوله : ﴿ **وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔا** ﴾ (لقمان:٣٣) .

وقوله : ﴿ **وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ** ﴾ (البلد:٣) .

في هذه الآيات الأربع جاءت كلمة «والد» مفردة مؤنثة في موضعين، ومفردة مذكرة، ثلاث مرات:

مرتين في آية لقمان، وواحدة في آية البلد، ثم إن دلالة المرتين المؤنثتين دلالة محددة مراد منها الأم التي وضعت وأرضعت.

أما دلالة المرات الثلاث المذكَّرة فهي عامة غير مختصة بالأب الذكر، ولا الأم الأنثى، وهذا مما يلفت الأنظار إلى دقة التعبير القرآني الحكيم.

- والد في صيغة التثنية:

جاءت كلمة والد مثناة مع التذكير دون التأنيث في مواضع عديدة في لغة القرآن، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿ **وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا** ﴾ (البقرة:٨٣).

﴿ **إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ** ﴾ (البقرة:١٨٠).

﴿ **لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ** ﴾ (النساء:٧).

﴿ **أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ** ﴾ (لقمان:١٤).

﴿ **وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ** ﴾ (الأحقاف:١٧).

﴿ **رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ** ﴾ (نوح:٢٨).

﴿ **وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا** ﴾ (مريم:١٤).

وفي هذه الآيات السبع ـ وله نظائر أخرى ـ أُريد من «الوالدان» الأب الذكر، والأم الأنثى، كما أُريد من «الأبوان» من قبل في قوله تعالى: ﴿ **وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ** ﴾ الأب والأم معًا، وسنعود لتوضيح هذا بعد قليل.

- والدة مجموعة جمع مؤنث سالمًا:

أما مجيء «والدة» مجموعة جمع مؤنث سالمًا ففي قوله تعالى: ﴿ **وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ** ﴾ (البقرة:٢٣٣). والمراد منها هنا، هنَّ الأمهات اللاتي وضعن حملهن.

- إحلال صيغَتَي التثنية إحداهما محل الأخرى وسببه البلاغي :

عرفنا مما تقدم أن النظم القرآني يُحل إحدى صيغتي التثنية محل الأخرى ، فيراد ـ أحيانًا من « أبواه أو أبويه » الأب والأم ، ويراد ـ أحيانًا أخرى من « الوالدان أو الوالدين » الأب والأم كذلك ، فما الداعي البلاغي لهذا الإحلال ، وبِمَ يسميه البلاغيون ؟

● الإحلال هو التغليب :

هذا الإحلال يسميه البلاغيون بـ « التغليب » ، وهو عندهم : « إطلاق لفظ أحد المختلفين على الآخر إجراء لهما مجرى المتفقين »[1] .

وقد مثلوا له بـ « أبوان » للأب والأم ، و« العُمَرَان » لأبي بكر وعمر ، و« القمران » للشمس والقمر ، ولا بد في كل تغليب من داعٍ بلاغي يقتضيه ، فما هو هذا الداعي البلاغي في إطلاق الأبوين على الأب والأم ؟ وإطلاق الوالدين عليهما في لغة القرآن الكريم ؟

● تغليب الأبوة على الأمومة :

لما تتبعنا المواضع التي غلَّب فيها القرآن الأبوة على الأمومة فسماهما معًا : أبَوَيْن أدركنا أن هذه المواضع جانب الأبوة فيها أقوى من جانب الأمومة ، وبيان ذلك أن آية النساء ﴿ **وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ** ﴾ مقام الحديث فيها هو الميراث ، والذكر في موضوع الميراث أقوى من الأنثى غالبًا ، فالله يقول : ﴿ **لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ** ﴾ كما أن الذكر يكون عصبة المتوفى فيرث ما له كله إن لم يكن للميت وارث آخر ويأخذ نصيبه إن كان له وارث آخر ، ثم يأخذ الباقي بعد استيفاء أصحاب الفروض أنصبائهم .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ** ﴾ الرفع هنا هو الظهور والظهور أصل في الرجال في كل عصر ومصر ، وليس للنساء حظ فيه يعادل حظ الرجال أو يدانيه .

---

(١) البرهان في علوم القرآن (٣٠٢/٣) مع تصرف في الصياغة ، وانظر المطول (١٥٨).

وكذلك إذا كان الأب مجموعًا كما في قوله تعالى حكاية عن المشركين : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ ، فإن المراد من الآباء هنا هو السَّلف الذين ينتمي إليهم المشركون ، فهم قدوتهم في الرأي والريادة ، والرأي والريادة من خصائص الرجال دون النساء فهم القادة والزعماء .

ونظيره قول يوسف عليه السلام : ﴿ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ٍ حيث لم يذكر معهم الأمهات .

والخلاصة : أن القرآن لا يغلب الأبوة على الأمومة اعتباطًا بل لملمح بلاغي دقيق ، وهكذا جميع الآيات التي غُلِّب فيها جانب الأُبوة على الأمومة .

● تغليب الأمومة على الأبوة :

ومثلما سلك القرآن في تغليب الأبوة على الأمومة ، سلك المنهج نفسه في تغليب الأمومة على الأبوة ، فسمى الأب والأم والدَيْن في كل موضع كان جانب الأمومة فيه أَرْعَى وأظهر من جانب الأبوة .

فمثلاً جميع الآيات التي تأمر أو توصي الأبناء بالإحسان بالأم والأب يُغَلِّب القرآن الحكيم جانب الأمومة على الأبوة ، ففي آية الإسراء ـ مثلاً ـ وهي : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ (الإسراء:٢٣) ، غَلَّبَ القرآن جانب الأمومة على جانب الأبوة ، فسمى الأم والأب والدين لأن الأمهات أحوج إلى العطف والإحسان من الآباء وهنَّ كما يحتجن إلى عطف الأبناء يحتجن إلى عطف الأزواج ، وما أكثر ما أوصى صاحب الدعوة ﷺ برعاية الأزواج لزوجاتهم كما جاء في خطبة الوداع وغيرها.

هذا هو الداعي البلاغي لتغليب أحد الوصفين ـ الأبوة والأمومة ـ على الآخر ، نسق حكيم ، واعتبارات دقيقة آسرة حفل بها البيان القرآني المعجز ، الذي أُنزل بعلم الله المحيط .

● صورة من التغليب :

هذا في صيغ التثنية «أبوان ـ والدان» ، أما في الجمع فنحن أمام صورة أخرى من صور التغليب ، فآية البقرة السابقة :

﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ﴾ لم يقل أجدادنا قط لا في هذه الآية ، ولا في غيرها من آيات القرآن كله ، التي ورد فيها «الأب» مجموعًا جمع تكسير ، فقد غلَّب القرآن جانب الآباء الأدنين المباشرين للإنجاب على الأجداد الأدنين والأبْعَدِين ، فما هو الداعي البلاغي يا ترى ؟

الذي هُدينا إليه هو أن الآباء المباشرين للإنجاب صلتهم بالأبناء ألصق من صلة أجدادهم بهم ، فهُمْ ـ أعني الآباء المباشرين للإنجاب ـ أقوى جانبًا ـ هنا ـ من الأجداد ، لذلك ـ والله أعلم ـ غَلَّب القرآن وصفهم على وصف الأجداد ، هذه واحدة ، أما الثانية : فإن الجد ـ مهما بَعُد ـ يصح أن يسمى أبًا ، ومن ذلك تسمية القرآن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أبًا لنا مع الفارق الزمني المديد بيننا وبينه ، ومع كثرة الأجداد بيننا وبينه ، وذلك في قوله تعالى :

﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ﴾ (الحج:٧٨) .

أما الأب فلا يصح ـ أبدًا ـ أن يسمى جَدًّا ، فتأمل معي جيدًا هذه اللغة البارعة المعجزة ، لغة التنزيل المنزَّلِ بعلم الله الحكيم الحميد .

● شبهات مردودة :

من حق القارئ الكريم أن يقول : إذا سلمنا لكم كل ما هديتم إليه من حقائق ، فماذا تفعل في قوله تعالى في آية لقمان السابقة :

﴿ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ .

وآية الأحقاف السابقة :

﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ . . ﴾ .

ففي آية لقمان ورد «والد» مفردًا مرتين مرادًا به «الأب» المذكر ، ومثلها آية البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ .

وفي آية الأحقاف سُمِّي الأب والأم «وَالِدين» فِي غير مقام الإحسان ؟ كما أن الإحسان منتفٍ في آيتي لقمان والبلد ، وهذا ينافي ما ذكرتموه من قبل ؟

والجواب :

لا منافاة بين هذه الآيات وبين ما هُدِينا إليه من قبل ، والبيان :

١- إن آية لقمان وقد تكرر فيها : «والد» مرتين لم يُردْ فيها الأب الذكر ، بل هو والأم الوالدة ، فالآباء والأمهات جميعًا لا يجزون عن أبنائهم شيئًا ، والأبناء لا يجزون عن آبائهم ولا عن أمهاتهم شيئًا يوم القيامة ، فإن لكل امرئ منهم يومئذ شأنًا يغنيه ، فالوالد في هذه الآية مراد منه الآباء والأمهات معًا .

هذه واحدة ، أمَّا الثانية فإن المقام فيها مقام إحسان في الأصل ، فالمجازاة نوع من الإحسان ، ولكن أهوال القيامة شغلت الوالد عن ولده ، والمولود عن والده ، مهما كان نوع الوالد والولد ، ذكرًا أو أنثى .

وهذا يقال في آية الأحقاف ﴿ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيۡهِ أُفٍّ لَّكُمَآ ﴾ ، فالمقام مقام إحسان ، لكن هذا «الولد» عق والديه وتضجَّر منهما ، وإطلاق وصف الوالدين ـ هنا ـ على الأب والأم بتغليب جانب الأمومة على الأبوة تعريض في غاية البلاغة بهذا «الولد العاق» ، حيث شذ عن الإحسان لمن يجب عليه الإحسان إليهما ، وهما أمه وأبوه ، وبخاصة أنهما يدعوانه إلى الخير والفلاح .

أما آية البلد ﴿ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴾ فليس المراد منها ـ كذلك ـ الأب الذكر ، بل إن كثيراً من المفسرين ذهب إلى أن دلالتها عامة تشمل كل حالات التوالد ، وكون الوالد والولد هنا مُقْسمًا بهما كما أقسم الله بالبلد التي هي مكة المكرمة ، فإن مقام القسم يقتضي فخامة المقسم به .

وهذا التفخيم يقتضي أن يكون المقسم به في ﴿ **وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ** ﴾ ، هو بث المخلوقات وتكاثرها باعتبار هذا آية عظمى من آيات الله ، وهذا ـ بدوره ـ يقتضي عموم الوالدية والمولودية ، ومن باب الكناية عن الكثرة التي نشاهدها والانتشار المتزايد جيلاً بعد جيل[1] .

وبهذا تندفع تلك الشبهات ، وينجلي الحق لذي عينين .

• منهج القرآن في الأبوة والوالدية :

للأبوة والوالدية في القرآن الحكيم منهج يباين ما عداه من كلام البشر ، وما قدمناه يسفر عن الآتي :

أولاً : الأبوة في القرآن في صيغة الإفراد مقصورة على الأب الذكر حقيقة ، ولم يأت لفظ « والد » مرادًا منه الأب الذكر في لغة القرآن ، ولذلك لما أريد الحديث عن الأب الذكر لبيان حكم شرعي منوط بالولادة عَبَّر عنه القرآن باسم المفعول به فقال : ﴿ **وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ** ﴾ (البقرة:٢٣٣).

والأب مولود له حقيقة ، أما هو فليس « والد » .

ثانيًا : الوالدية تطلق حقيقة في لغة القرآن على الأم التي حملت ووضعت وأرضعت ، كما في قوله تعالى حكاية عن عيسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى** ﴾ وقوله خطابًا لعيسى عليه السلام : ﴿ **وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ** ﴾ (المائدة:١١٠) .

ثالثًا : يُحل القرآن كلا من إحدى صيغتي التثنية محل الأخرى على سبيل التغليب لاعتبار مناسب .

رابعًا : أمَّا الجمع المذكر لكلمة « أب » ، وصيغة المفرد المذكر لكلمة « والد » فلا يراد به الأب المذكر ، وإنما يراد به عموم « الوالدية » سواء كان الموصوف بها الذكور أو الإناث .

خامسًا : وهذا المنهج الدقيق المحكم لا وجود له في غير القرآن ، فهو سمة من سمات إعجازه اللغوي البياني ، استُعملت فيه اللغة استعمالاً أمثل ليس له نظير .

* * *

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ : تفسير القرطبي (٢٠/٦١) .

أَقْبِلْ ـ تَعَالَ

ورد فعل الأمر «أقبِلْ» في لغة القرآن مرة واحدة ، فهو «فريدة» من فرائد القرآن صياغة ، وذكرًا :

ذِكْرًا : لأن مادة (ق ب ل) لم يأت منها فعل أمر إلا في موضع واحد من القرآن كله ، في قوله تعالى مخاطبًا رسوله موسى ـ عليه السلام ـ لما ولَّى مدبرًا ولم يعقب حين رأى عصاه تهتز كأنها جان أو ثعبان :

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ ﴾ (القصص: ٣١) .

وصياغة : لأن وزن «أفْعِل» من هذه المادة (ق ب ل) لم يتكرر مرة أخرى في غير آية القصص هذه .

وفِعْل الأمر «أقْبِلْ» هذا له نظائر في اللغة تُؤَدِي معناه حسب العرف اللغوي العام ، مثل :

تعال ـ إئتِ ـ أقدم ، من الأفعال ، ومثل : هاؤم من أسماء الأفعال ، وهذا يضع أمامنا سُؤَالاً ذا شقين :

الأول : لماذا اختير فعل الأمر «أقبل» دون غيره من نظائره التي أشرنا إليها؟

الثاني : لِمَ لَمْ يتكرر هذا الفعل في لغة القرآن مع أن القرآن وردت فيه صياغات أخرى من المادة نفسها ؟

● الجواب على الشق الأول :

تقدم أن لفعل الأمر «أقبل» نظائر في اللغة أوثر هو عليها وأن من تلك النظائر : تعال ـ إِئتِ ـ أقدم ـ هاؤم ، أما أَقْدِم ، فلم ترد في القرآن فلا نقف

أمامها ، وأما تعال وائتِ وهاؤم ، فقد وردت في القرآن ، ومع ذلك لم يستعملها القرآن في هذا الموضع : ﴿ يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ﴾ ، واستعمال القرآن لـ «أقبل» هنا دليل على أن غيرها من نظائِرها لا تسد مسدها ، كما أن «أقبل» نفسها لا تسد مُسَدَّ واحدة من نظائرها ، وإن بدا بين هذه النظائر الترادف في الدلالة على المعنى .

فالقرآن لم يستعمل تعال ولا إِئت ، ولا هاؤم مكان «أقبل» ولا أقبل مكان واحدة من نظائرها ، ولا واحدة من نظائرها مكان أخرى .

والنظر في المقام الذي ورد فيه فعل الأمر ﴿ أَقْبِلْ ﴾ يفيد أن هذا الفعل ورد مُقْتَضى لحال مخصوصة ، تلك الحال هي : التَّلَبُّس بالتولي والإدبار السريع ، ومَنْ كان هذا شأنه ﴿ وَلَّىٰ مُدْبِرًا ﴾ فإن مطابقة الكلام لمقتضى حاله أن يقال له : ﴿ أَقْبِلْ ﴾ لا تعال ولا ائتِ ولا هاؤم ، هكذا تعلمنا البلاغة القرآنية .

ومن دقة المطابقة هنا بين الحال ـ ولَّى مدبرًا ولم يعقب ـ وبين مقتضاه : ﴿ أَقْبِلْ ﴾ أن «أقْبِلْ» فيها أمر بالإقبال وتغيير الاتجاه ، وهو المطلوب ، وفيها نهي عن الإدبار الواقع فِعْلاً في أثناء التكلم ، وصدور الأمر ، وعلى هذا فإن فعل الأمر «أقْبِلْ» مقيد بهذه القيود ، فكان هو التطبيق البلاغي المتَعَيِّن في هذا الموضع ، أما نظائره المذكورة من قبل ، فمع دلالتها على أصل المعنى : مطلق القدوم ، فإن هذه الخصائص الدقيقة التي أفادها : أقبل ، لا تستفاد من أيٍّ من نظائره المذكورة قبلاً .

فـ «أقبل» أمرٌ متعيِّن طلبًا للإقبال ، ونهيًا عن الإدبار المتلبِّس به المخاطب ، وليس كذلك تعالَ وائتِ وهاؤم ، وسنعود لهذه النظائر من حيث استعمال القرآن لها بعد قليل .

• الجواب على الشق الثاني من السؤال :

نُذَكِّر القارئ أن الشق الثاني من السؤال كان :

لماذا لم يتكرر فعل الأمر «أَقْبِلْ» في لغة القرآن ؟ ، والإجابة في إيجاز :

لم يتكرر فعل الأمر «أَقْبِلْ» في لغة القرآن لعدم تكرار المقام الذي اقتضى استعماله ، وذلك المقام ـ كما تقدم ـ هو طلب الإقبال والنهي عن الإدبار المتلبِّس به المخاطَب ، فالحالة التي نُودِيَ فيها موسى ـ عليه السلام ـ وقيل له فيها : أَقْبِلْ ، لم تتكرر من موسى وإن تكررت حكايتها في قوله تعالى :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ (النمل:١٠).

والحكاية في القرآن كثيراً ما تكرر باختلاف في أساليب القص ، ومع تكرار الحكاية ـ هنا ـ لم يذكر فعل آخر مكان «أَقْبِلْ» وسياق الكلام في «النمل» يقتضي ملاحظة ذلك الفعل معنى لا لفظًا .

● منهج القرآن في مادة : (ق ب ل) :

وردت مادة (ق ب ل) في صياغات مختلفة للدلالة على أمرين :

أحدهما : قبول الأعمال أو رفضها بالإثبات في القبول والنفي في الرفض ومن أمثلة القبول قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ ﴾ (التوبة:١٠٤) .

ومن أمثلة الرفض قوله تعالى :

﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾ (البقرة:١٢٣).

الثاني : للدلالة على الحركة أو الانتقال والسير ، وهذا ما يهمنا هنا ، أما الأول فنكتفي بمجرد الإشارة إليه .

ومنهج لغة القرآن فيما دل على الحركة أو السير والانتقال هو الآتي :

أولاً : أتت فعلاً ماضيًا مسندًا إلى «بعض» مضافة إلى ضمير الغائبين الذكور «هم» مرادًا بهم فريق من الناس في أربعة مواضع هي :

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (الصافات:٢٧) .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (الصافات:٥٠) .

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (الطور:٢٥).

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴾ (القلم:٣٠) .

وفي هذه الآيات الأربع استعملت المادة في الدلالة على المواجهة بين طائفتين من الناس يتبادلون الحديث في أمرٍ ما .

ثانيًا : وأتت فعلاً ماضيًا مسندًا إلى « نا » الفاعلين مرة في قوله تعالى :

﴿ وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ﴾ (يوسف:٨٢) .

وإلى « واو الجماعة » مرتين في قوله تعالى :

﴿ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴾ (يوسف:٧١).

ثم في قوله : ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ (الصافات:٩٤).

وإلى اسم ظاهر مرة في قوله تعالى :

﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ ﴾ (الذاريات:٢٩) .

وفي هذه الآيات الأربع دلت المادة على الإقبال بعد الإدبار ، وهذا ظاهر في الآيات الثلاث الأولى ، أما في الرابعة فإن الملائكة لما دخلوا على إبراهيم ـ عليه السلام ـ فأوجس منهم خيفة واشتد فزعه ، وهو الرجل ، فإن فزع امرأته يكون أشد ، وفي هذه الحال لا يبعد أن يكون قد حدث من امرأته انزواء وإدبار ، فلما طمأنت الملائكة إبراهيم أقبلت امرأته ، وبخاصة حين بشرت الملائكة إبراهيم بالغلام .

﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُواْ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (الذاريات:٢٨،٢٩) ، وعطف « أقبلت » بالفاء على ما قبلها دليل على ترتيب هذا الحدث وفوريته عقب توجس الخوف والبشارة .

وعلى هذا فإن دلالة المادة على الإقبال بعد الإدبار في الآيات الأربع دلالة مطردة في نسق واحد .

ثالثًا : وأتت اسم فاعل « متقابلين » للدلالة على هيئة من هيئات أصحاب الجنة ، وهي المواجهة في مودة وصفاء طوية ، وذلك ـ كذلك ـ في أربع آيات ، وهي : قوله تعالى : ﴿ **وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ (الحجر:٤٧) .

وقوله : ﴿ **فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ (الصافات:٤٣،٤٤).

وقوله : ﴿ **عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ** ﴾ (الواقعة:١٥،١٦) .

وقوله : ﴿ **يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَابِلِينَ** ﴾ (الدخان:٥٣) .

رابعًا : وأتت اسم فاعل من المزيد « استقبل » مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (الأحقاف:٢٤) .

● بلاغيات اختلاف الصياغات :

تردد مجيء مادة : (ق ب ل) في لغة القرآن فيما دل على الحركة أو السير والانتقال بين فعل الأمر « أَقْبِلْ » والفعل الماضي : « أَقْبَلَ » ، واسم الفاعل : « مُتَقَابِلِينَ » ، ثم « مُسْتَقبلَ » ، وكل من هذه « الصياغات » واقع موقعه من البلاغة وحسن البيان .

* ففي طلب حصول الحدث : الإقبال ، استعمل فعل الأمر خطابًا لموسى ـ عليه السلام ـ ؛ لأنه كان في حالة إدبار سريعة .

* وفي الإخبار عن الحدث : الإقبال بعد الإدبار ، استعمل الفعل الماضي الدال على وقوع الحدث ، ثم انقطاعه قبل زمن الإخبار به ؛ لأن الأصل في دلالة الفعل الماضي أن يدل على حدث وقع وانقطع قبل زمن التكلم ، وهذا منطبق تمامًا على ما استعملت فيه المادة من آيات الإقبال بعد الإدبار ، سواء كان ذلك في المواجهة بين طائفتين يتبادلون الحديث كما في الحكاية عن أهل النار : ﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ .

أو كان في غير المواجهة كما في الحكاية عن إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ : ﴿ **وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَا** ﴾ .

* أما في الدلالة على إحدى هيئات أصحاب الجنَّة وهي المواجهة في ود وصفاء طوية ، فقد استُعمِل فيها اسم الفاعل : ﴿ **مُّتَقَـٰبِلِينَ** ﴾ للدلالة على دوام تلك الهيئة وثباتها ، وهذا هو الفرق المنصوص عليه بلاغيًّا بين دلالتي الفعل والاسم ، فأصحاب الجنَّة دائمًا متقابلون ينظر بعضهم إلى بعض ، لا تدابر بينهم ؛ لأن التقابل علامة التحاب ، والتدابر علامة التباغض .

● الفرق بين «متقابلين» و «مستقبل أوديتهم» :

اسم الفاعل «متقابلين» دل على الدوام والثبات كما مرَّ ، أما «مستقبل أوديتهم» فمع أنه اسم ، ودلالة الاسم هي الدوام والثبات ، فإن سياق الحديث يدفع هذه الدلالة ، لأن الحديث فيها عن ظاهرة كونية ﴿ **رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾، والظواهر الكونية تحدث ثم تزول ، وهكذا ، والريح التي أرسلها الله على «عاد» ، لم تحدث إلا مرة واحدة ، ثم انقطعت ، فلا دوام ولا ثبات لها ، ولذلك وصفها القرآن بأنها «عارضًا» ، وهذه هي بلاغة القرآن المعجز في لغته ، وفي معانيه .

● الفرق بين «أقْبِل» و «تعال» :

﴿ **فَقُلۡ تَعَالَوۡاْ نَدۡعُ أَبۡنَآءَنَا وَأَبۡنَآءَكُمۡ** ﴾ (آل عمران: ٦١).

﴿ **قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ** ﴾ (آل عمران: ٦٤).

﴿ **وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْ** ﴾ (آل عمران: ١٦٧).

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا** ﴾ (النساء: ٦١).

﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآ** ﴾ (المائدة: ١٠٤).

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ (الأنعام:١٥١).

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ ﴾ (المنافقون:٥).

﴿ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾ (الأحزاب:٢٨) .

هذه المواضع كلها التي ورد فيها فعل الأمر الذي تقدم : تَعَالَوْا أو تَعَالَيْن ليس المقصود بها الإقبال الحركي الانتقالي الحقيقي ، بل المراد كما يقول جار الله الزمخشري :

« تَعَالَوْا : هلموا ، والمراد المجيء بالرأي والعزم ، كما تقول : تعال نفكر في هذه المسألة » [1].

وما قاله الزمخشري صالح لتفسير الفعل « تعالوا ـ تعالين » مما ذكرناه من الآيات ، ومن نظائرها التي لم نذكرها ، بينما كان المراد من « يا موسى أقْبِلْ » هو الإقبال الحسي الحقيقي المتناول لحركة الجسم الناقلة له من مكان إلى مكان .

فليس الفعل « تعالَ » صالحًا للإحلال محل « أَقْبِلْ » لما بين دلالتي الفعلين من تباين .

* فـ « أَقْبِلْ » مراد منها الإقبال الحقيقي الحسي ، و« تَعَالَ » المراد منها الإقبال المعنوي المجازي .

* و« أَقْبل » تكون خطابًا لمن هو في حالة إدبار حسي متلبِّس به بالفعل و« تعالَ » ليست كذلك .

ولهذا ـ والله أعلم ـ قيل لموسى ـ عليه السلام ـ : « أَقْبِل » ولم يَقَل له : « تعال » .

---

(١) الكشاف : (١/١٣٣) .

وقد ذكر صاحب «مفردات القرآن» أن الأصل في الفعل : تعالَ هو دعوة المخاطب إلى ما فيه رفعة شأنه [1].

وهذا الكلام مع وجاهته وصلاحيته للتطبيق على ما ورد منه في القرآن ، فإن قول الرسول لأزواجه : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ يتجافى مع ما ذكره الراغب ؛ لأن تطليق زوجات النبي منه ﷺ ليس فيه رفعة لشأنهن ، بل فيه انحطاط لو كان قد تم ، ويمكن درجة تحت ما قاله الراغب إذا حملنا «فَتَعَالَيْنَ» على التهكم منهن لو اخترن الحياة الدنيا وزينتها ورغبة في مفارقة خاتم النبيين ، ونظيره في القرآن ـ على هذا الوجه ـ قوله تعالى :

﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (التوبة: ٣٤).

لأن البشارة تكون في الخير لا في الشر ، وعذاب الآخرة هو شر الشرور .

● الفروق بين «أَقْبِلْ» و «ائتِ» :

ما أكثر ما تصرف القرآن في مادة «ا ت ي» وما أكثر المعاني التي تواردت عليها ، ومع هذا ، فليس في المواضع التي أتت فيها هذه المادة لازمة ومتعدية ، موضع واحد مثل الموضع الذي نُودِي فيه موسى ـ عليه السلام ـ بالإقبال بعد الإدبار الذي كان مُتَلَبِّسًا به ، ولو كان في مواضعها واحد من هذا القبيل لجاء «أقبل» بدلاً من «إِئتِ» هذه واحدة ...

أما الثانية : فإن «إِئتِ» جاءت في لغة القرآن بمعنى «اذهب» وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (الشعراء: ١٠).

فإن معنى «إِئتِ» هنا : اذهب إليهم ، بدليل قوله تعالى في المقام نفسه : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴾ (الفرقان: ٣٥،٣٦). ولهذين الاعتبارين ، وهما :

* خلو مواضع «إِئتِ» من مماثلة موضع «أَقْبِلْ» .

---

(١) مفردات القرآن : ١١ : ٣٤٦ .

* ومجيء «إئت» أحيانًا متضمنة معنى اذهب ؛ لهذين الاعتبارين ـ والله أعلم ـ لم تصلح «إِئتِ» للدلالة على معنى «أَقْبِلْ» وإن تشابه معنياهما من حيث الظاهر .

ولهذه الآية نظائر أخرى آثرنا تركها خشية الإطالة ، وفيما ذُكِر وفاء بالمراد من الفروق بين كلمتي : أَقْبِلْ وإِئتِ .

● الفروق بين «أَقْبِلْ» و«هاؤم» :

سبقت الإشارة إلى أن «هاؤم» من نظائر «أَقْبِلْ» ، ففي كل منهما طلب للإقبال ، ولكن القرآن الحكيم لم يؤثر على «أَقْبِلْ» أيًّا من نظائرها ، وقد تقدم الحديث عن الفروق بين «أَقْبِلْ» وكلٍ من «تَعالَ وإئتِ» ، وهنا نخص هاؤم بكلمة سريعة نتبين من خلالها الفروقَ بين «أَقْبِلْ» وبينها .

وهاؤم هذه من فرائد القرآن ، حيث لم تذكر فيه إلا مرة واحدة ، في قوله تعالى :

﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ (الحاقة:١٩) .

ذكر بعض اللغويين أن «هاؤم» موضوعة لإجابة الداعي في حالة الفرح والنشاط»[(١)] .

وهذا المعنى ، وإن حُكِيَ بصيغة التمريض يتسق تمامًا مع المقام الوحيد الذي ذكر فيه القرآن هذه الكلمة ، فإن فرح من يؤتي كتابه بيمينه يوم القيامة لا يعادله فرح ، ونشاطه وخفة نفسه ، وبهجة مشاعره ، ليس لها نظير ، لأنها السعادة الأبدية والفوز العظيم .

وبهذا يتضح أن ما يناظر فعل الأمر «أقبل» خطابًا لموسى ـ عليه السلام ـ إنما هي مناظرة في الإطار الدلالي العام مع وجود فروق بين هذه النظائر وغيرها ، لذلك يؤثر القرآن ما يلائم المقام ملاءمة لا نظير لها في أي كلام آخر .

* * *

---

(١) لسان العرب : (٤٥٩٩/٦) ـ ط دار المعارف .

أصحاب ـ أُولُو

من الكلمات التي كثر ورودها في لغة القرآن كلمتا : أصحاب ، وأُولو ، وهما في اللغة بمعنى واحد ، تقول : هم أصحاب الفضل ، وتقول : هم أولو الفضل ، فكلتاهما مضافة إلى الفضل ، والفضل وصف معنوي يقوم بالموصوف باعتبارات معروفة ، كالكرم والسخاء ، والشجاعة والإقدام ، والعلم والمعرفة ، والسيرة الحميدة .. وكثيرًا ما نسمع : فلان صاحب فضل أو صاحب مروءة ونجدة .

بيد أن لغة القرآن تفرِّق بين الكلمتين في الاستعمال ، تفرقة لا نعرفها إلا في البيان القرآني المعجز .

ومن المعروف أن كلمة « صاحب» وجمعها أصحاب تأتي مضافة كما تقدم ، وتأتي غير مضافة في حالتي التعريف والتنكير والإفراد والتثنية والجمع.

أما كلمة « أُولو » ، فهي ملازمة للإضافة مثل : عِنْدَ ، وَلَدَىَ إذا تقرر هذا نقول:

إن تفرقة القرآن بينهما لُحِظَتْ من حيث إضافة كلٍّ منهما إلى ما أضيفَتْ إليه . فصاحب ، وصاحبان ، وأصحاب تضاف إلى غير ما تضاف إليه « أُولو »، و « أُولو » تضاف إلى غير ما تضاف إليه كلمات صاحب وصاحبان وأصحاب، وهذا مطرد في جميع الأمثلة الواردة في كتاب الله العزيز .

● ما يضاف إليه صاحب وصاحبان وأصحاب :

تتبعنا مواضع ورود هذه الكلمات في حالة الإضافة فوجدنا المضاف إليه فيها أمرًا منفصلاً ـ في الأصل ـ عن المضاف ، فالمضاف شيء والمضاف إليه شيء آخر .

● **الأمثلة**[1] :

﴿ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ (القلم:٤٨).

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ ﴾ (الكهف:٣٧) .

﴿ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير:٢٢) .

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

(يوسف:٣٩) .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ﴾ (الأعراف:٥٠).

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ ﴾ (العنكبوت:١٥).

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ (الواقعة:٢٧).

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴾ (الواقعة:٤١) .

﴿ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾ (النساء:٤٧) .

﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴾ (البروج:٤).

في هذه الآيات العشر جاءت كلمة صاحب ومثناها وجمعها مضافة إلى الأسماء الظاهرة مثل : صاحب الحوت ـ صاحبي السجن ـ أصحاب النار ـ أصحاب الجنة ـ أصحاب السفينة ـ أصحاب اليمين ـ أصحاب الشمال ـ أصحاب السبت ـ أصحاب الأخدود .

ثم إلى الضمائر ، مثل : صاحبه ـ صاحبكم .

كما اختلف المضاف إليه في المعنى بين ذات بشرية أو جمادية وبين المكان ، أو الجهة ، ثم الزمان .

وفي كل هذه الآيات كان المضاف إليه مباينًا للمضاف وله وجود مستقل عن المضاف ، وكذلك المضاف له وجود مستقل عن المضاف إليه ، فأهل

---

(١) نظرًا لكثرة الأمثلة سنكتفي بذكر بعض منها للتدليل على صحة ما نقول .

الجنة ليسوا هم الجنة ، والجنة ليست هي أصحابها ، وهكذا كل الأمثلة التي وردت في القرآن في حالة الإضافة ، تجد « صاحب وصاحبان » وأصحاب مضافة فيها إلى شيء آخر يصح فصلُ كل منهما عن الآخر ، وأن كلا منهما ـ أعني المضاف والمضاف إليه ـ كان منفصلاً عن الآخر قبل الإضافة .

هذه الملاحظة مطردة في جميع الأمثلة سواء ما ذكرناه منها وما لم نذكره ، لم يشذ منها مثال واحد .

● ما تضاف إليه « أُولو » :

أشرنا من قبل أن ما تضاف إليه « أُولو » في القرآن يختلف اختلافًا بينًا عما تضاف إليه كلمات : « صاحب وصاحبان وأصحاب »، وقد عرفنا من خلال الأمثلة الآنفة الذكر ما تضاف إليه صاحب ومثنَّاها وجمعها ، ونريد الآن أن نبين ما تضاف إليه « أولو » في لغة القرآن الحكيم :

● الأمثلة :

﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ (البقرة:٢٦٩) .

﴿ **شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ** ﴾ (آل عمران:١٨) .

﴿ **وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ** ﴾ (النساء:٨) .

﴿ **وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ** ﴾ (الأنفال:٧٥) .

﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ** ﴾ (النور:٢٢) .

﴿ **أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ** ﴾ (الإسراء:٥) .

﴿ **وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ (الطلاق:٤) .

﴿ **وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ (الطلاق:٦) .

هذه الآيات الحكيمات وردت فيها كلمة « أولو » مضافة إلى ما بعدها مباشرة ، وإذا دققنا النظر فيما أضيفت إليه « أولوا » خرجنا بحقيقتين بارزتين:

أولاهما : أن ما أضيفت إليه «أولوا» مختلف تمامًا عما سبق أن أضيفت إليه «أصحاب» ومفردها ومُثنَّاها .

وثانيتهما : أن القرآن لم يُضِفْ «أولوا» إلا إلى ما هو من الخصائص الذاتية غير المفصولة عن المضاف أو بعبارة أخرى :

أن القرآن الحكيم لم يضف «أولوا» إلا إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجزء مع استحالة فصل المضاف إليه عن المضاف في الواقع المحسوس ؛ لأنه ليس له وجود مستقل .

● توضيح :

تأمل ـ مثلاً ـ الآية الأولى مما استشهدنا به ، وهي قوله تعالى :

﴿ **وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ ، فالمضاف هو ﴿ **أُوْلُواْ** ﴾ ، والمضاف إليه هو : ﴿ **ٱلْأَلْبَٰبِ** ﴾ ، والألباب جمع لُبّ ، واللب هو العقل الذكي[1] ، والعقل لا يمكن فصله وعزله عن العاقل ، فهو ممتزج به امتزاج اللون بالبشرة.

وكذلك «العلم» الذي أضيفت إليه «أولوا» في الآية الثانية ، هو خاصة ذاتية من خواص «العالم» ، وهيئة راسخة فيه .

وهذا ينطبق على كل ما أضيفت «أولوا» في القرآن ، وإذا تأملنا بقية الأمثلة المذكورة ، وغير المذكورة ، وجدناها كذلك ، أما ما هو كالجزء من المضاف ، فقد وجدنا في القرآن آيتين شاهدتين عليه ، وهما :

قوله تعالى : ﴿ **وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُواْ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ** ﴾ ، لأن الجنين المستكن في الرحم في أثناء الحمل ، ليس له وجود مستقل خارج الرحم ، ونحن حين نرى «الحامل» لا نرى شخصين بل نرى شخصًا واحدًا ، فالجنين في هذه الحالة كالجزء من أمه لذلك أضاف القرآن «أولات» إلى الحمل .

---

(١) المفردات : (٤٤٦) ، والمصباح المنير (٥٤٦) .

• شُبْهَة مدفوعة :

قد يقول قائل : إن في القرآن آية خولف فيها المنهج الذي ذكرناه ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ ﴾ (المزمل: ١١) .

لأن «أولى» أضيفَتْ فيها إلى «النَّعْمَةِ» ، والنعمة يمكن فَصْلُها عن صاحبها ، كأن يُسرق كل ما يملك ، وهي ـ أي النعمة ـ لها وجود مستقل خارج صاحبها ، ومعنى هذا أن القاعدة المذكورة غير مطردة في إضافة «أولوا» إلى ما تضاف إليه في القرآن ؟

والجواب :

ليس هذا بقادح في صحة القاعدة ، واطرادها ، لأن اللغة تفرق بين : النَّعْمة بفتح النون المشددة ، وبين : النِّعْمة بكسر النون المشددة كذلك .

فالنِّعمة المكسورة النون هي ما أنعم الله به على مَنْ شاء من عباده من حطام الدنيا كالنقود ، والدُّور ، وسائر الممتلكات المفصولة عن مالكها ، وهذه ليست جزءًا من المضاف ولا كالجزء ، وهي مفصولة فِعلاً عن صاحبها حال تملكه إياها .

أما النَّعْمة المفتوحة النون ، فهي في اللغة : التَّنعُّم والتلذذ بالنعمة [(١)].

والتنعم والتلذذ صفتان ذاتيتان للمُنْعَم عليه ، وشعور نفسي بالسعادة ليس منفصلاً عن المضاف «أولوا» وليس له وجود مستقل خارج ذاته ، فهما : التَّنَعُّم والتلذذ كاللون لا يمكن فَصْلُهُ عن «الملوَّن»، وليس له وجود مستقل عمَّا قام به ذلك اللون .

ومجيء «أولى» في هذه الآية مضافة إلى النَّعمة المفتوحة النون ، لا المكسورة لاطراد ما تضاف إليه «أولوا» دليل على أن «أولوا» لا تضاف

---

(١) المفردات : (٤٩٩) ، تفسير النسفي : (٤/٣٠٤) .

إلا لما هو جزء من المضاف ، أو كالجزء ، ودليل في الوقت نفسه على حرص القرآن الشديد في انتقاء ألفاظه وصحة معانيه ، ودليل على أن القرآن استعمل اللغة استعمالاً أمثل لا نظير له خارجه ، ولا مضارع ، وهذا هو الإعجاز اللغوي البياني في أجلى صوره ، وأشمل مجالاته .

● منهج القرآن في إضافة «أصحاب» و«أولوا» :

في الأسطر الآتية نوجز بيان المنهج القرآني في إضافة «أصحاب» ، و«أولوا» ، وإن مرَّ الحديث عنه مفرقًا فيما مضى :

أولاً : يفرق القرآن تفرقة دقيقة بين ما تضاف إليه «أصحاب» ومفردها ومثنَّاها ، وبين ما تضاف إليه «أولوا» في جميع حالات إعرابها رفعًا ، ونصبًا ، وجرًّا .

ثانيًا : لم يُضِفْ القرآن «أصحاب وصاحبان وصاحب» ، إلا إلى ما يصح فصله عنها مما له وجود خارجي مستقل كالزمان والمكان ، وبعض الأجسام الحيوانية والجمادية كالسبت ، والجنَّة ، والنار ، والحوت ، والسفينة .

ثالثًا : أما «أولوا» فلا تضاف إلا إلى ما هو جزء من المضاف أو كالجزء، مما ليس له وجود مستقل خارج المضاف .

رابعًا : إن طروء العلاقة بين «صاحب وصاحبان وأصحاب» وأصالة العلاقة بين «أولوا» ، وبين ما تضاف إليه كل منهما هما اللذان ـ أعني طروء العلاقة وأصالتها ـ خصَّصا كُلاًّ منهما بما أضيفت إليه .

هذا هو القرآن الذي أنزل بعلم الله .

* * *

الكَرْهُ – الكُرْهُ

الكَرْهُ بفتح الكاف ، والكُرْهُ بضم الكاف مصدران للفعل الثلاثي كَـرُه وكَـرِه ، هكذا تقول المعاجم اللغوية ، وهل هما بمعنى واحـد أمْ لكـل منهمـا معنـى ؟ اللغويون مختلفون في هذا ، ولكننا إذا رجعنا إلى لغـة القـرآن ، وقـد ورد فيهـا كَره وكُره ظفرنا بحسم الخـلاف حـول معنـى هـاتين الكلمـتين ، ولنـذكر أولاً مواضع ورود كلٍّ من : كَرْه وكُره ، وهي :

● الأمثلة :

أولاً «كَرْه» بفتح الكاف :

﴿ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ (آل عمران:٨٣).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗا ﴾ (النساء:١٩) .

﴿ قُلۡ أَنفِقُواْ طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا ﴾ (التوبة:٥٣) .

﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا ﴾ (الرعد:١٥) .

﴿ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت:١١) .

● ثانيًا : كُرْه بضم الكاف :

﴿ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِتَالُ وَهُوَ كُرۡهٞ لَّكُمۡ ﴾ (البقرة:٢١٦) .

﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗا ﴾

(الأحقاف:١٥).

● منهج القرآن في استعمال كلمتي «كَره وكُره» :

أولاً : أن « كَره » المفتوحة الكاف التزم القرآن استعمالها في القهر النفسي ، وفقد الإرادة عند مَنْ قام به الحدث ، بدليل قاطع من القرآن نفسه حيث قابل بين « الطوع » ، وهو عمل اختياري ، وبين « الكَره » وهو عمل قهري يخضع له الْمُكْرَهُ وهو مجبور عليه .

وهذا ظاهر في كل الأمثلة المتقدم ذكرها ، فالمرأة التي يرثها زوجها كَرْهًا مقهورة وغير راضية بهذا الظلم .

ثانيًا : أما كُرْهٌ المضمومة الكاف فإن القرآن يستعملها دائمًا ـ كما ورد في الصور الثلاث في آيتي البقرة والأحقاف ـ في المشقة البالغة الجامعة بين المعاناة النفسية والجسمية ، فالمقاتل يبذل جَهْدًا شَاقًّا في ميدان القتال ، وهذا الجهد يعكس على النفس همومًا وقلقًا .

وكذلك الحامل ، فإنها تمر بآلام جسمية قاسية في أثناء الحمل ، وتضعف صحتها وتشعر بالإعياء الشاق .

ثم تتعرض للآلام الموجعة وقت الوضع ، وتحدث لها مضايقات نفسية لا تستطيع دفعها .

والفرق بين معنى كَره وكُره كما يدل عليه الاستعمال القرآني أن « كَره » يستعمل في مقام الدلالة على المعاناة النفسية أما « كُرْه » فللدلالة على المعاناة الجسمية والنفسية معًا .

ومضاعفة المعنى في المضموم تناسب « الضم » وخفته في المفتوح تناسب « الفتح » لأن الفتح أخف من الضم ، ولهذا ـ في اللغة ـ نظائر كخُبْر وَخَبَر ، والفرق بينهما أن الخُبر بضم الخاء حصول المعرفة عن ممارسة ومشاهدة والخَبر حصول المعرفة سماعًا .

أو الخُبْر : العلم ببواطن الأمور[1] .

ومنه فَهِمَ وَفَهُم ، يقال : فَهُمَ الرجل أي صار الفهم ملكة راسخة عنده ،

---

(١) المفردات : ١٤٤ .

بخلاف فَهِم الصادقة على حصول الفهم ، وإن كان يسيراً لا رسوخ فيه .

● الإكراه :

أما الإكراه الوارد في قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

فهو مصدر الفعل الرباعي : «أكره» والفرق بين معناه وبين معنى كَره وكُره أن الإكراه فعل الْمُكْرِه ، والكَره والكُره فعلا الْمُكرَه ، الأول اسم فاعل ، والثاني اسم مفعول .

وصفوة القول : أن استعمال القرآن «الكَره» في المعاناة النفسية ، و«الكُرْه» في المعاناة الجسمية والنفسية معًا ، دليل على نَفْي التَّرَادُف بين الكلمتين ، فليس هما كالضَّعْف والضُّعْف كما قال بعض اللغويين[1] .

* * *

---

(١) المفردات : ١٤٣ .

النَّصْر ـ الظَّفَر

في القرآن الحكيم كلمات فرائد ، لم تـرد فيـه إلا مـرة واحـدة ، ومـن هـذه الكلمات ما تنتمي إلى فصيلة لغوية تشترك ـ هي ـ معهـا في المعنـى المـدلول عليه بصيغة من صيغ تلك الفصيلة : ويشيع استعمالها فيه بكثرة لافتـة للنظـر ، مع بقاء تلك « الفريدة » وحيدة فيه ، يستعملها القرآن مرة واحدة ، ثـم يودِّعهـا إلى الأبد .

ومن هذه « الفرائد القرآنية » الفعل الماضي « أظفركم » من « الظفر » بمعنى « النَّصر » أي : نصركم ، لم ترد في القرآن إلا مـرة واحـدة في سـورة « الفـتح » مع أن ورود كلمة « النصر » ومشتقاتها شاع في القـرآن في صـيغه « الصـرفية » شيوعًا مستفيضًا .

فعل ماض ، فعل مضارع ، فعل أمر ، اسم فاعل ، اسم مفعول ، صفة مشبهة باسم الفاعل ، مصدر ، مفعول مطلق .

أليس هذا مدعاة للتساؤل : لماذا ورد النصر بهذه الكثـرة ؟ ولمـاذا لم يُـذكر الظَّفر إلا مرة واحدة ؟

ولو كان هـذا ورد في غـير القـرآن لمـا حـرَّك لنـا سـاكنًا ، لكـن وروده في القرآن « المعجز » يجعلنا « مغرمين » بمعرفـة السـر البلاغـي وراء هـذه السـمة الأسلوبية اللافتة للنظر ، المنيرة للفكر ؛ لأن اسـتعمال القـرآن للغـة جـارٍ علـى نَسَقٍ معجز في انتقاء المفردات ، وصلتها « الحميمة » بدقائق معانيها .

وسيرًا مع المنهج الذي انتهجناه في هذه الدراسة نمثـل أولاً ثـم ننظـر ثانيًـا ، عسى الله أن يَمنَّ علينا بفهم دقائق كتابه الكريم .

● **التمثيل :**

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(آل عمران:١٢٣) .

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾ (التوبة:٢٥) .

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ (التوبة:٤٠) .

﴿ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾ (الصافات:١١٦) .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال:٧٢) .

﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج:٤٠) .

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٦٠) .

﴿ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (الروم:٥) .

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾

(غافر:٥١) .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾ (القمر:١٠) .

﴿ وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة:٢٥٠) .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (المؤمنون:٢٦) .

﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ (الفتح:٣) .

﴿ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ (محمد:١٣) .

﴿ فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾ (الإسراء:٣٣) .

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾ (آل عمران:٢٢) .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾

(الأنفال:٤٠) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴾ (الفتح: ٢٤).

هذه مُثُلٌ مختارة بغير اختيار من الآيات التي ورد فيها «النصر» بصوره الصرفية المختلفة، وبقيت آيات أخرى يضيق المقام عن ذكرها هنا، وقد أحصينا المرات التي ورد فيها في آي الكتاب العزيز فوجدناها أربعًا وأربعين ومائة مرة، ما بين فعل ومصدر واسم وصفة.

هذه المرات يقابلها مرة واحدة «فريدة» ورد فيها «الظفر» في القرآن الحكيم في صورة الفعل الماضي المعَدَّى بالهمزة: ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾.

فلماذا تلك الكثرة في «النصر» والنُّدْرة في «الظفر» في لغة القرآن الحكيم.

محال أن يكون هذا صُنْعًا «عشوائيًّا»، أو «مجرد اتفاق»، فالله حكيم في أفعاله، حكيم في أقواله.

أليس هو الذي وصف كتابه، فقال:

﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ (هود: ١).

عبَّر القرآن بـ «النصر» عن مواقف كثيرة ظهر فيها المؤمنون على عدوهم، وعن تأييد الله للمؤمنين بالغلب والفوز ضد الخصوم، وفي المعارك التي خاضها المسلمون في عصر النبوة، ففي غزوة بدر الكبرى قال سبحانه:

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ ﴾.

وفي حنين وغيرها من الغزوات قال:

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ﴾، وفي ظهور الإسلام على كافة شبه الجزيرة عقب فتح مكة، قال: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر: ١-٣).

فالنصر في القرآن وصف عام لكل غَلَب يحققه أنصار الحق على أعداء الله وأعدائهم.

• إلا فتح مكة المكرمة :

نعم ، إلا فتح مكة المكرمة ، فقد وصفه الله بـ «الإظفار» الذي هو مصدر ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ في آية الفتح (٢٤) مع أن فتح مكة من أكبر وقائع «النصر» الذي كلل الله به الجهاد الإسلامي النبوي قبيل وفاة الرسول ﷺ بقليل : هو نصر عظيم حقًّا ، ومع هذا قال الله فيه : ﴿ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ ، ولم يقل : نصركم ، ولو قيل لكان صوابًا .

لكن خاصيَّة دقيقة في «الظفر» يخلو منها «النصر» هي التي رشَّحَتْ «الظفر» ليكون أداة «التعبير» الوحيدة عما أيد الله به رسوله والمؤمنين يوم الفتح المبين : فتح مكة المكرمة ، ومن المعلوم أن فتح مكة ، ودخول النبي وصحبه ربوعها وتطهيرهم البيت الحرام وطوافهم به ، كل ذلك تم بلا إراقة دماء ، ولا شهر سلاح ، ولا أدنى مقاومة واجههم بها أهل مكة الذين كانوا عقبة كؤودًا في طريق الدعوة من أول يوم أُعلنت فيه ، كان فتح مكة ـ إذًا ـ هي الغنيمة الباردة التي قذف الله بها في أيدي المؤمنين ، أنه غلَبَ عظيم تم بدون قتال يذكر ، وفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء ، وهو العزيز الرحيم .

فتح مكة كان : نصرًا مع سهولة ويُسر ، لا نتيجة ضرب وطعان ، فهو أكثر من «النصر» لما صحبه من تيسيرات وحقن دماء .

وهذا النصر «الخاص» لا يصلح للتعبير عنه إلا الظفر ، لماذا ؟

لأن العرب كانوا يخصون الظفر بالفوز والغلب الذي يتم بسهولة ويسر ، والقرآن بلغة العرب نزل ، وعلى طرائقهم في البيان صاغ بيانه .

والظفر كما نص اللغويون وغيرهم مشتق من : نَشْب الأظفار ، ونشب الأظافر أيسر وسيلة إذا حصل به المطلوب .

وسر تعدية «الظفر» بالهمزة ولم يقل : «من بعد أن ظفرتم» لأن الله هو الذي مَنَّ عليهم بالغلب لا أنهم هم الذين حققوا ذلك الغلب .

إنهم صحَّ منهم العزم على القتال إذا اضطُرُّوا إليه ، فلما لم يقاتلوا لعدم احتياجهم إلى القتال بتيسير الله الغلب لهم كان هو الذي أظفرهم بكف أيدي الأعداء عنهم ، فكفوا أيديهم عن الأعداء لما رأوا الغلب قد تحقق بأمر الله ، إن معنى الغلب الذي حدث عام الفتح أدق من معنى النصر الذي ـ غالبًا ـ يكون بالقتال .

لذلك ـ والله أعلم ـ توارت كلمة « نصركم » في هذا المقام ، وبرزت كلمة « أظفركم » للوفاء بالمعنى حق الوفاء ، وهكذا القرآن كله : إحكام وإعجاز ، وكل لفظة فيه متمكنة في موضعها لا يسد غيرُها مسدَّها ، ولو أدرنا اللغة من ألفها إلى يائها كما قال العلامة ابن عطية ـ رحمه الله رحمة واسعة .

● منهج القرآن في « النصر » و« الظفر » :

لا أرانا بعد الذي تقدم عن « النصر » ، و« الظفر » أننا في حاجة إلى بيان منهج القرآن فيها ، ولكن لكي يكون منهجنا في هذه الدراسة مطرًا ؛ نعيد ما قلناه في إيجاز :

أولاً : النصر ومشتقاته كثير الورود في القرآن بصيغ صرفية متعددة ، أما « الظفر » ، فهو من « فرائد » القرآن حيث لم يرد فيه إلا مرة واحدة ، في صورة الفعل الماضي المعدى بالهمزة « أظفركم » .

ثانيًا : يأتي « النصر » في القرآن وصفًا عامًّا لكل غلب ، أو فوز حققه المؤمنون في ظل الرسالات السماوية ، أما « الظفر » ، فهو مقصور على « الغلب » الذي يحدث بدون قتال يذكر بين المؤمنين وعدوهم .

ثالثًا : إن بين « النصر » و« الظفر » في استعمال لغة القرآن لهما عمومًا وخصوصًا ، فكل « ظفر » نصر ، وليس كل نصر ظفرًا .

رابعًا : إن معنى « الظفر » ملحوظ فيه المعنى اللغوي ، الذي هو : « نشب الأظافر » في الفريسة ، وهو أيسر وسيلة في الحصول على المطلوب .

* * *

قَليلٌ ـ كَثِيرٌ

وردت هاتان الكلمتان «قليل ـ كثير» في لغة القرآن ورودًا مستفيضًا ، وتواردت عليهما جميع حالات الإعراب ، من الرفع والنصب والجر ، وهما ملازمان في لغة القرآن للإفراد والتنكير ، ويستثنى من الإفراد صورة واحدة جاءت فيها «قليل» مجموعة جمع مذكر سالمًا ، أما التنكير فقد عم كل مواضعهما ، فلم تأت فيه أيّ من الكلمتين معرفة قط ، أما قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ** ﴾ فلا يقدح فيما ذهبنا إليه ؛ لأننا نتعرض هنا لـ «قليل» ، و«كثير» لا للقلة والكثرة .

وهدفنا ـ هنا ـ من دراسة هاتين الكلمتين : «قليل ـ كثير» في الاستعمال اللغوي القرآني هو معرفة منهج القرآن فيهما ، ثم محاولة فهم السر في نظام هذا المنهج ، ولنبدأ بذكر أمثلة لـ «قليل» أولاً .

● **أمثلة :**

﴿ **قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ** ﴾ (النساء:٧٧) .

﴿ **وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ** ﴾ (الأنفال:٢٦) .

﴿ **قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ** ﴾ (المؤمنون:٤٠) .

﴿ **وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً** ﴾ (البقرة:٤١) .

﴿ **وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ (الأعراف:١٠) .

﴿ **فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ** ﴾ (يوسف:٤٧) .

﴿ **فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا** ﴾ (التوبة:٨٢) .

﴿ **إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ** ﴾ (الشعراء:٥٤).

في الآيات السابقة جاءت «قليل» ملازمة للتنكير والإفراد إلا في آية الشعراء ، فقد جاءت مجموعة جمع مذكر سالمًا ، «قليلون» كما جاءت في

جميع الأمثلة من كلام الله المباشر ، إلا في آية الشعراء فكانت من كلام الله المحكى عن « فرعون» .

كما جاءت مجراة عن العقلاء في مثل : ﴿ **إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ** ﴾ ، ومجراة على غير العقلاء كالمقادير في قوله تعالى : ﴿ **إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ** ﴾ وهي محكية عن يوسف ـ عليه السلام ـ .

ومجراة على غير المقادير كالسلوكيات في قوله تعالى :

﴿ **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ .

ومجراة على الزمن كما في قوله تعالى : ﴿ **قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ** ﴾ .

وللزومها الإفراد والتنكير ملحظ بياني دقيق سنعرض له فيما بعد ، كما سنعرض لمجيئها جمعًا في آية الشعراء المحكية عن فرعون لعنه الله ، والذي نوصي به القارئ أن يكون على ذكر من مجيئها مفردة مُنكَّرة .

● أمثلة كثير :

مجيء « كثير » في لغة القرآن ملازم للإفراد والتنكير ملازمة تامة ، ومواضع ورودها أكثر من مواضع « قليل » ؛ لأن دواعي استعمالها في القرآن أكثر من دواعي استعمال « قليل » ، وهذا من لطائف القرآن الحكيم ، لصدق القلة والكثرة على « قليل » و« كثير » الواردتين فيه .

أما الأمثلة فهي :

﴿ **يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا** ﴾ (البقرة:٢٦) .

﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا** ﴾ (البقرة:١٠٩) .

﴿ **وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ﴾ (آل عمران:١٤٦) .

﴿ **ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ** ﴾ (المائدة:٧١) .

﴿ **وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ** ﴾ (الشورى:٣٠) .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ (الأنعام:١٣٧) .

﴿ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء:٧٠) .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴾ (طه:٣٣،٣٤).

نكتفى بهذا القدر من التمثيل لورود كلمتى « قليل » ، و « كثير » في القرآن الحكيم ، فليس هدفنا استقصاء كل مواضعهما ، وإنما أردنا أن ندعم ما لحظناه على منهج لغة القرآن في استعمالهما ببعض الأمثلة ، والذي لحظناه ـ كما تقدم ـ هو لزوم الكلمتين للإفراد إلا في موضع واحد ، ثم للتنكير في جميع المواضع .

• لماذا التزام التنكير ؟ :

بعض المواضع التى استعملت فيها « قليل » ، و « كثير » اقتضى المقام فيهما التنكير لمجيئهما وصفًا لنكرة ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾.

وقوله تعالى : ﴿ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ (آل عمران:١٤٦) .

أو خبرًا عن نكرة ، كقوله تعالى : ﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(النحل:١١٧) .

فقد جاءت « قليل » ، وصفًا لنكرة ، ثم خبرًا عن نكرة ، وجاءت « كثير » وصفًا لنكرة كذلك ، وبعضها ، وهو الغالب ، جاء نكرة ابتداء مع جواز التعريف فيه لغة ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ .

وكقوله تعالى : ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ (ص:٢٤) .

وقوله : ﴿ مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (الكهف:٢٢).

والتنكير ـ هنا ـ أبلغ من التعريف وأفخم معنًى ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾ ليس المراد بـ « كثيرًا » فيه قومًا بأعيانهم ، بل

المراد كثرة عامة تتناول طوائف من الناس لا يخلو منهم زمان ولا مكان ، والتنكير هو الأبلغ في الدلالة على العموم .

● ولماذا التزام الإفراد ؟ :

القلة والكثرة نوعان :

– قلة وكثرة منظور فيهما إلى حقيقة الأعداد في الواقع .

– وقلة وكثرة منظور فيهما إلى المعاني النسبية الإضافية ، فالواحد والاثنان والثلاثة ـ مثلاً ـ قلة منظور فيها إلى كمية الأعداد في الواقع ، والنحاة يحصرون هذه القلة فيما دون العشرة ، وهي قلة حقيقية .

والمئة والمئتان ، والألف والألفان كثرة حقيقية منظور فيها إلى كمية الأعداد في الواقع .

وليس هنا بمراد ـ والله أعلم ـ من « قليل » ، و« كثير » في لغة القرآن الحكيم ، بل المراد المعاني النسبية الإضافية لكلٍّ من « قليل » ، و« كثير » والمعاني النسبية الإضافية ـ هنا ـ تتحقق بالمناظرة بين كميتين عدديتين قابلتين للوصف بالقلة والكثرة على سبيل التبادل لا اللزوم ، فالمائة ـ مثلاً « قليل » إذا نوظرت بـ « الألف » ، و« الألف » ـ « كثير » ـ إذا نوظر بالمئة ، ثم إن « الألف » هذا « قليل » إذا نوظر بـ « المليون » ، و« المليون » كثير إذا نوظر بالألف ، وهكذا .

وهذا هو المراد من القلة والكثرة في لغة القرآن ، فمثلاً قوله تعالى :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣) .

ليس معناه « القلة العددية » ، فما أكثر الشاكرين في كل زمان ومكان ، تكتظ بهم دور العبادة ، وتضيق بهم الأماكن المقدسة في الحج والعمرة ، فهم « كثير » من حيث العدد ، ولكنهم « قليل » إذا نوظروا بغير الشاكرين من الناس.

وهذه المعاني النسبية الإضافية الأبلغ في التعبير عنها هو الإفراد لا الجمع ، فلو قيل مكان « قليل » قليلون ومكان « كثير » كثيرون لانصرف الوصف فيهما إلى واقعية العدد ، وهم الأشخاص المعدودون ؛ لأن « قليلون » و« كثيرون »

جمعان للعقلاء ، أما « قليـل » ، و« كـثير » وإن كـان معنياهمـا ملحوظًـا فيهمـا معنى الجمع . فإنهما مفردان أريد منهما القلـة والكثـرة النسـبيتان الإضـافيتان ، فما أبلغ هذا البيان المعجز للإنس والجن ، وكل من عدا الله .

• ولماذا « قليلون » في الشعراء ؟ :

مجيء « قليلون » هكذا مجموعة ، مرة واحدة مـن عشـرات المـرات ، دليـل تلو دليل على العناية الفائقة في انتقاء كلمات القرآن حتى في « الهيئة اللفظيـة » ودليل لا يدفع على أن مجـيء « قليلـون » في هـذا الموضـع لـه خاصـة دلاليـة فريدة ، ولمحة بيانية دقيقة لم يف بها سواه من الألفـاظ المنـاظرة لـه ، حيـث لم يقل : « قليل » ، ولا « أقلة » .

وقد أطلنا النظر فيها ، والتفكير حولها ، وها نحن نسجل ما هدينا إليـه مـن دواعي استعماله بلاغيًّا في هذا المقام :

أولاً : إنها وقعت وصـفًا مباشـرًا لمـا فيـه معنـى الجمـع ، وهـو « شـرذمة » والشرذمة هي الجماعة المنقطعة[1] .

وهذا منطبق تمامًا علـى بـني إسـرائيل حـين كـانوا بمصـر : جماعـة غريبـة معزولة عن أهل الـبلاد ، و« قليلـون » فيـه مطابقـة بـين الوصـف والموصـوف ، فـ« شرذمة » جمع في المعنى ، و« قليلون » جمع لفظًا ومعنًى .

ثانيًا : إن المراد من « قليلون » هنا القلة العددية ولـيس معنـى نسـبيًّا إضـافيًّا على سبيل التبادل ، فأهل البلاد كانوا أضعاف بني إسرائيل ، فهم كثرة حقيقية ، وبنو إسرائيل قلة حقيقية ، وهما ـ أعـني القلـة والكثـرة ـ هنـا وصـفان لازمـان لمن وصف بهما في ذلك الوقت .

ثالثًا : كما يفيد الجمع « قليلون » تهويل شـأن تلـك القلـة بـدليل مـا حكـاه القرآن عن فرعون لعنه الله من وصف تلك القلة في قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴾ (الشعراء:٥٥،٥٦) .

---

(١) االمفردات : (٢٥٩) .

رابعًا : إن في «قليلون» هنا توافقًا لرؤوس الآي (الفواصل) ، فقبلها كانت فواصل الآي :

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ۝ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾ (الشعراء: ٥٠-٥٣) .

وبعدها : ﴿ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴾ .

وتوافق رءوس الآي سمة من سمات إعجاز الإيقاع الصوتي في لغة القرآن ، وهذا ما أسفرت عنه بعض الدراسات القرآنية الحديثة(١) .

من أجل هذه «الأبلغيات الثلاث» كانت «قليلون» هنا في موضعها الفريد في القرآن كله .

● منهج القرآن في «قليل» و«كثير» :

أولاً : التزم القرآن فيهما الإفراد إلا في موضع واحد ثم التنكير في جميع المواضع :

ثانيًا : لم تأت واحدة منهما مجموعة في كلام الله المباشر (غير المحكي)، ولا مرة واحدة .

ثالثًا : المراد بالقلة والكثرة ، فيهما المعاني النسبية الإضافية .

وليس واقعية الأعداد في أنفسها .

رابعًا : الموضع الذي جاءت فيه «قليلون» جَمْعًا أفاد ثلاث لمحات بلاغية ، وهي : مطابقة الموصوف ، والتهويل ، ثم الانسجام الصوتي الذي هو وجه من وجوه الإعجاز .

* * *

---

(١) النبأ العظيم (٩٢) وما بعدها محمد عبد الله دراز .

الرِّيح ـ الرِّياح

وردت الريح مفردة ومجموعة في لغة القرآن العظيم ، ومنكرة ومعرفة ، والإفراد والجمع ، والتعريف والتنكير طرق من طرائق اللغة بوجه عام ، ومن طرائق البيان القرآني المعجز بوجه خاص ، والكلمة القرآنية تخضع لاعتبارات دقيقة ، وتؤدي معاني محكمة هي البلاغة في أعلى مستوياتها .

وكعادتنا نقدم أولاً الأمثلة ، ثم ننظر فيها للوقوف على المنهج القرآني في استعمالها الأمثل :

● **أمثلة الإفراد :**

﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ﴾ (آل عمران:١١٧) .

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ (يونس:٢٢) .

﴿ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ﴾ (الإسراء:٦٩) .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (الأنبياء:٨١) .

﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج:٣١) .

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ (إبراهيم:١٨) .

﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأحقاف:٢٤) .

﴿ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴾ (الروم:٥١) .

﴿ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا ﴾ (الأحزاب:٩) .

﴿ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓ ﴾ (الشورى:٣٣).

في الآيات العشر السابقة وردت الريح في حالة الإفراد والتعريف والتنكير إحدى عشرة مرة ، اثنتين في آية يونس (٢٢) ، وتسعًا في الآيات التالية لها .

وكان ورودها موزعًا على خمسة مقامات :

الأول : المدح ، كما في قوله تعالى في آية يونس (٢٢) :

﴿ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ ﴾ .

الثاني : الذم المقترن بالشر ، كما في قوله تعالى في آية الإسراء (٦٩) :

﴿ فَيُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ قَاصِفٗا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغۡرِقَكُم بِمَا كَفَرۡتُمۡ ﴾ .

الثالث : ضرب الأمثال المنبئة عن الوعيد والتهديد كما في آيتي الحج (٣١) : ﴿ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾ .

وإبراهيم (١٨) :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾ .

الرابع : التذكير بما فعل الله بالأُمم التي أعرضت عن الإيمان كما في آية الأحقاف (٢٤) :

﴿ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ .

الخامس : الامتنان على الرُّسُل وأتباعهم كما في آية الأنبياء (٨١) :

﴿ وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ ﴾ .

وآية الأحزاب (٩) : ﴿ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا ﴾ .

وصفوة القول : أن مجيء الريح في حالة الإفراد استعملها القرآن في مجالي الخير والشر سواء كانت معرفة أو نكرة .

• أمثلة الجمع :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٦٤) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ (الأعراف: ٥٧) .

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴾ (الحجر: ٢٢) .

﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ (الكهف: ٤٥) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ (الأعراف: ٥٧) .

﴿ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ (النمل: ٦٣) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ ﴾ (الروم: ٤٦) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِي يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (الروم: ٤٨) .

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾ (فاطر: ٩) .

﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (الجاثية: ٥).

ما ذكرناه من آيات جمع الرياح هو كل ما جاء في القرآن من أمثلة جمعها.

والسؤال الآن :

لماذا أفردت «الريح» في الآيات السابقة ؟

ولماذا جمعت في هذه الآيات ؟

* والجواب الكاشف هو :

* أفردت «الريح» في الآيات السابقة ؛ لأن مقامات ورودها فيها تقتضي إفرادها :

ففي إهلاك قوم هود ، وهم قبيلة عاد ، أفردت الريح في الحديث عن إهلاكهم ؛ لأن الله أهلكهم بريح واحدة .

وفي الحديث عن الآيات التي أيد الله بها نبيه سليمان ـ عليه السلام ـ أفردت الريح معرفة بالألف واللام تعريف الجنس ، وجنس الريح واحد لا جمع .

وفي الحديث عن تسيير الفلك في البحر أفردت الريح ؛ لأن الفلك تسير سيراً منتظماً إذا دفعتها ريح واحدة لا رياح ، فإذا هبت عليها رياح من كل جهة في وقت واحد اضطرب سيرها ، وقد تغرق ، والمقام مقام تذكير بنعمة الله مع قدرته على تبديلها نقمة : ﴿ **وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ** ﴾ (الشورى:٣٢،٣٣) .

فالريح ـ هنا ـ ريح خير لا ريح شر ، ولما جاءت مفردة في مقام الشر وُصفَت بما يؤهلها له : ﴿ **أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ** ﴾ .

في آية الشورى كانت «الريح» ، وهنا في الإسراء كانت «قاصفًا» ، ومثلها في الحج : ﴿ **أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ** ﴾ ، وفي الحاقة : ﴿ **وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾** ﴾ (الحاقة:٦) .

وفي الروم : ﴿ **وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ** ﴾ (الروم: ٥١) .

وهي الريح الدبور المهلكة[1] .

هذا هو سر إفراد «الريح» في الآيات التي أفردت فيها ؛ لأن تصرف القدرة الإلهية فيها كان منصبًّا على «الريح» مفردة لا مجموعة ، فهي ريح لا رياح .

---

(١) تفسير النسفي : (٢٧٦/٣) .

• منهج القرآن في «الريح» مفردة :

أولاً : المزاوجة في معانيها بين الخير والشر ، وهي في الشر أكثر منها في الخير .

ثانيًا : إذا استعملها في الخير لم يَقْرِنْ بها أوصافًا ، بل يقف عند حد ذكرها إلا في موضعين :

أحدهما : في آية يونس ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، وهي الريح اللينة الهادئة .

والثاني : في آية الأنبياء : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ .

وسر التباين بين الوصفين : «طيبة» ، و«عاصفًا» إكمال النعمة في كل موضع بما يناسبها .

فهي في إجراء الفلك طيبة سهلة لانتظام حركة السير وسلامته من الكوارث ، وهي لسليمان ـ عليه السلام ـ «عاصفًا» لأنها جُنْد من جنوده ، وكمال النعمة في «الجندية» القوة المعبَّرُ عنها بالعصوف ، ولو قيل في الأولى «عاصفًا» ، وفي الثانية : «طيبة» لانقلبت النعمة بؤسًا ، والقوة ضعفًا .

ثالثًا : وإذا استعملها في جانب الشر قَرَن بها أوصافًا تنبئ عنه مثل : «صَرصَرٍ عاتية» ، و«العقيم» ، و«مصفرًا» ، و«تذهب»[١] .

وهكذا جميع المواضع التي وردت فيها «الريح» في جانب الشر .

رابعًا : وقد تستعمل في الخير والشر في آن واحد ، كما في قوله تعالى في آية الأحزاب المتقدمة :

﴿ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا .. ﴾ ، فهي خير بالنسبة للمخاطبين ، وهم المسلمون ، وشر بالنسبة للجنود المغيرين .

---

(١) وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ (الأنفال:٤٦) .

*** ولماذا جاءت الريح جمعًا ؟**

* والجواب :

في أمثلة « جمع الرياح » جاءت « الرياح » معمولاً للفعل الماضي « أرسل » أو « أرسلنا » في ثلاثة مواضع .

كما جاء معمولاً للفعل المضارع « يرسل » في أربعة مواضع .

وجاءت معمولاً للمصدر « تصريف » في موضعين .

وجاءت فاعلاً للفعل « تذروه » وهو مضارع في موضع واحد ، وبهذا كملت مواضعها العشرة الواردة فيها في لغة القرآن الحكيم ، والمقام الذي وردت فيه في المرات العشر مقام واحد هو : لفت الأنظار إلى بعض الظواهر الكونية وتَعَلُّق قدرة الله بها ، وحكمته البالغة في إنشائها وتسخيرها لمنافع العباد .

وهذه الظواهر ثلاثة أقسام بالنسبة لكل جيل يقرأ كتاب الله العزيز :

القسم الأول : ظواهر وقعت قبل نزول القرآن فناسبها الفعل الماضي « أرسل » .

القسم الثاني : ظواهر كانت تقع في عصر نزول القرآن ، فناسبها الفعل المضارع « يرسل » في إحدى دلالتيه ، التي يصور فيها الواقع المشاهد .

القسم الثالث : ظواهر وقعت بعد عصر نزول القرآن ، فناسبها الفعل المضارع ـ كذلك ـ في دلالته الثانية ؛ لأن الفعل المضارع صالح للدلالة على الحال وعلى الاستقبال إذا كان المقام لا يأباه ، وهذا التحليل يصدق على كل جيل .

فجيلنا الآن ما أكثر تلك الظواهر التي وقعت قبله ، وما أكثر ما يقع منها في حياته ، وما سيقع بعد عصره ، وهكذا إلى أن تقوم الساعة .

وهذا صادق على غير « أرسلنا » ، و« يرسل » وغيرهما اثنان :

الأول : « تذروه الرياح » أي تذرو الهشيم .

والثاني : « وتصريف الرياح » فظاهرة تصريف الرياح شاملة للأزمنة الثلاثة : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل ، وظاهرة تذرية الرياح للهشيم ، وقعت في الماضي ، وتقع في الحاضر ، وستقع في المستقبل حتى قيام الساعة .

● **والخلاصة :**

إن هذه الظواهر جميعًا من إرسال الرياح ، وإثارة السحاب ، وإنزال الماء منه ، وإحياء الأرض به ، وإسقاء الناس منه ، وتذرية الرياح الهشيم ، وتصريف الله الرياح والسحاب ، هذه الآيات والظواهر الكونية دائمة مستمرة ، لذلك وجب في سنة الله أن تكون أسبابها جمعًا كاثرًا « الرياح » لا « الريح » .

ولهذا جاءت « الرياح » مجموعة في المجموعة الثانية من الآيات التي وردت فيها الرياح جمعًا لا ريحًا واحدة .

وتعدد الرياح ليس مقصوراً على التوزيع الزمني الذي تقدم ، بل تتعدد في الزمن الواحد باختلاف الأمكنة التي تقع فيها في اليوم الواحد بل في الساعة الواحدة .

وهكذا تتجلى لنا بلاغة القرآن المعجزة ؛ لأنه بعلم الله نزل ، ومن أصدق من الله حديثًا ؟ .

وهكذا يتبين لنا بكل وضوح :

لماذا أُفْردت الرِيح في لغة القرآن فيما أُفردت فيه من آيات حكيمات .

ولماذا جُمِعَتْ فيما جُمعت فيه من آيات معجزات .

﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾ (محمد:٢٤) .

● **منهج القرآن في « الرياح » جمعًا :**

أولاً : التزام استعمالها في مجال الآيات ، والظواهر الكونية .

ثانيًا : توظيف المقام الذي وردت فيه للعظة والاعتبار والتأمل في عجائب خَلْق الله ، تقوية للإيمان ، وتزكية للروح ، وإيقاظًا للقلوب من غفلاتها .

ثالثًا : التزام استعمالها في « الخير » دون « الشر » .

رابعًا : الامتنان على العباد بما سخَّر لهم من نعمه الظاهرة والباطنة .

* * *

الرُّشد ـ الْهُدى

الرشد والهدى في كلام الناس سيان ، وقد يفسَّر أحدهما بالآخر على سبيل التعاقب والتبادل ، أما في لغة القرآن فلهما وضع خاص من حيث الدلالة ، ومن حيث الاستعمال ، ولن يتضح لنا منهج لغة القرآن في كل منهما إلا إذا نظرنا في الأمثلة ، التي تفي ببيان ذلك المنهج ، وغصنا وراء دقائقه وخفاياه .

● **أمثلة « هدَى » :**

﴿ **وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ** ﴾ (البقرة:١٤٣) .

﴿ **فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ** ﴾ (الأعراف:٣٠) .

﴿ **وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ** ﴾ (البقرة:١٨٥) .

﴿ **أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ** ﴾ (الأنعام:٨٠) .

﴿ **وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا** ﴾ (الأعراف:٤٣) .

﴿ **يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا** ﴾ (البقرة:٢٦) .

﴿ **ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الفاتحة:٦) .

﴿ **وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ** ﴾ (الحج:٣،٤) .

﴿ **قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾

(غافر:٢٩).

في هذه الآيات التسع ـ وغيرها كثير ـ جاء الهدى في صياغات مختلفة فعل ماض ـ فعل مضارع ـ فعل أمر ، كما جاء في آيات أخرى اسم فاعل ، أما الفاعل ، فهو الله أو ضمير عائد عليه ، وفي غير هذه الآيات كان الفاعل

ـ أحيانًا ـ : (ربِّ) مضافًا إلى ضمير المتكلم ، وفي موضعين لا ثالث لهما كان الفاعل غير الله .

وهما : الشيطان في آية الحج ﴿ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ ، ثم فرعون في آية غافر : ﴿ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ ، وأما المفعول فقد تردد بين ضمير المخاطبين الجماعة «هداكم» وضمير «الغائبين في آية التوبة : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ (التوبة:١١٥)، أو المثنى الغائب : ﴿ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الصافات:١١٨) .

ثم ضمير المتكلم إما جمعًا كما في قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران:٨) .

أو ضمير المتكلم المفرد كما في قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ وَقَدْ هَدَىٰنِ ﴾ (الأنعام:٨٠).

• منهج القرآن في «هدى» :

أولاً : كثرة التصريفات التي وردت في لغة القرآن في مادة (هـ د ي) .

ثانيًا : يستعمل القرآن «هُدَى» في الخير وفي الشر معًا ، بيد أن ورودها في الخير هو الأصل والأعم ، ورودها في الشر لم يتعدَّ موضعين ، كان فاعل الهدى في الأول هو الشيطان ، وفي الثاني فرعون ، وهُداهما ضلال مبين .

ثالثًا : إن المراد من الهدى في القرآن مطلق البيان ، إلى حق كان أو إلى باطل ، إلى صواب أو إلى خطأ ، إلى خير أو إلى شر .

والذي يميز بين النوعين ثلاثة أمور :

الأول : إذا كان الفاعل هو الله أو فاعل آخر له شرف وطهارة كالقرآن ، أو نبي من الأنبياء كان الهدى حقًّا وصوابًا ، وخيرًا[1] .

---

(١) وتقوم الإضافة مقام الفاعل في بعض الآيات : ﴿ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ﴾ (الأنعام: ٧١) .

الثاني : إذا كان الفاعل معروفًا بالكفر والعصيان كان الهدى الصادر عنه باطلاً وخطأ وشرًّا ، كالشيطان ، وفرعون ، ودعاة السوء .

الثالث : إذا اقترن « الهدى » بما يضاده من أوصاف ، كما في قوله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾ (البقرة:١٦).

● أمثلة « الرشد » :

الذي في القرآن منه : الرُّشْد ، والرَّشَد ، وهما مصدران في الأصل ، ثم « الرشاد » ، وهو الاسم ، ولقلة وروده بالنسبة لـ « الهدى » سنذكر كل مواضعه التي ورد فيها في القرآن ، بادئين بما كان فِعْلاً .

﴿ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة:١٨٦) .

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة:٢٥٦) .

﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ﴾ (الأعراف:١٤٦) .

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ (الجن:١،٢) .

﴿ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ﴾ (النساء:٦) .

﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ (الكهف:٦٦) .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴾ (الأنبياء:٥١) .

﴿ وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ (الكهف:١٠) .

﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ (الكهف:٢٤) .

﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (الجن:١٠) .

﴿ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾ (الجن:١٤) .

﴿ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴾ (الجن:٢١) .

﴿ **وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** ﴾ (غافر: ٢٩) .

﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ** ﴾ (الحجرات: ٧) .

﴿ **أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ** ﴾ (هود: ٧٨) .

﴿ **إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾ (هود: ٨٧) .

﴿ **وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ** ﴾ (هود: ٩٧) .

﴿ **وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا** ﴾ (الكهف: ١٧) .

● منهج القرآن في «رشد» :

أولاً : لم يستعمل القرآن كلمة «رُشْد» أو «رَشَد» إلا في الخير بخلاف ما مرَّ في «هدى» .

ثانيًا : لم يأت منها في القرآن إلا فعل واحد مضارع «يرشدون» ثم جاءت اسمًا فيما عداه :

إما مصدرًا «رُشْد ـ رَشَد» أو اسم فاعل «الراشدون» ، أو صفة مشبهة «رشيد» ، وكل هذه من الفعل الثلاثي «رشد» .

ثالثًا : لم يأت منها «مزيد» إلا اسم فاعل «مرشدًا» من أرشد .

رابعًا : اختُصَّ «الرُّشد» بما جاء في بناء الآيات قبل فواصلها إلا في موضع واحد ﴿ **مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** ﴾ .

خامسًا : اختص «الرَّشَد» بالفواصل إلا في موضع واحد : ﴿ **وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً** ﴾ .

سادسًا : كما اختص «الرَّشَد» بمقامات الدعاء إلا في موضع واحد هو ﴿ **أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ .

سابعًا : «الرُّشْد» في القرآن أخص من «الهدى» بدليل الجمع بينهما في : ﴿ **عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا** ﴾ ، وجعل «الهدى» وسيلة لـ «الرشد» .

ثامنًا : لم يأت الاسم الخالص منه (غير المصدر) إلا مرتين في قولي :
﴿ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ ﴾ ، و ﴿ فِرْعَوْنَ ﴾ : ﴿ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ .

تَاسِعًا : وجاءت الصفة المشبهة منه « رشيد » في موضعين في مقام « النفي »:

﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [1] ، و﴿ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ ، كما جاء اسم الفاعل « الرباعي » في مقام النفي ﴿ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ .

عاشرًا : اختص « الرشد » بالخير دون الشر ؛ لأنه هداية إلى الحق ، وتوفيق للعمل به .

أما مطلق الهداية فلا يلزم منها « التوفيق » ، وهي « أي الهداية » من الله :

نصب الدلائل العلمية والعقلية الفارقة بين :

- الحق والباطل .
- الخير والشر .
- الصواب والخطأ .
- النافع نفعًا محمودًا ، والضار ضررًا مذمومًا[2] .

الحادي عشر : لما كان « الرشد » هو الهداية مع التوفيق للعمل الصالح غلب على استعماله « الاسمية » لدلالة الاسم على الثبات والدوام ، أما مجرد الهداية ومعرفة الحق من الباطل ، فقد يتردد العباد فيها بين الاستقامة والزيغ ، وهذا يناسبه مجيء « الهدى » بين الاسمية والفعلية ، مصداق هذا قوله تعالى في شأن ثمود : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ .

* * *

---

(١) « أليس منكم رجل رشيد » من حيث اللفظ إثبات ، ومن حيث المعنى نفي ، لأن المراد من الاستفهام فيه : التعجب من حالهم ونفي الرشد عنهم .

(٢) النفع المحمود هو المأذون فيه شرعًا ، والضرر المذموم هو المنهي عنه شرعًا .

فَرَقَ ـ فَرَّق

فَرَق وفَرَّق فعلان ماضيان مادتهما واحدة ، هي : الفاء والراء والقاف ، والاختلاف بينهما في تخفيف الراء وتشديدها ، ومصدر الأول : الفَرْق ، ومصدر الثاني : التفريق ، ومن حيث المعنى فإن اللغة تُفَرِّق بينهما بأن الأول : فَرَق يكون في الفصل بين الأُمور المعنوية كالحق والباطل ، والثاني يكون في الفصل بين الأجسام المادية كالشاة إذا قُطِّع لحمُها .

هذا هو الأصل في اللغة ، أما استعمال القرآن لهذين الفعلين ، فمع جريانه على الأصل اللغوي ، فإن فيه اعتبارات لطيفة ، جاء بها التنزيل الحكيم ، وهذا يتضح من ذكر النماذج والنظر فيها :

● **أمثلة فرق المخفف :**

﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ** ﴾ (البقرة: ٥٠) .

﴿ **فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ** ﴾ (المائدة: ٢٥) .

﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ (الدخان: ٤) .

﴿ **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ** ﴾ (الإسراء: ١٠٦) .

هذا كل ما في القرآن من « فرق » المخفف من الأفعال ، مما يدخل معنا في معنى الفصل بين الأشياء ، وهي أربعة أمثلة ، اثنان منها جاريان على الأصل اللغوي ، وهما : ﴿ **فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ ، و﴿ **وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ** ﴾ أي نزلناه مفرقًا في أزمنة مختلفة ، وذلك لأن الأمور والتنزيل أشياء معنوية لا أجسام مادية ، أما الاثنان الآخران وهما :

﴿ **وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ . . .** ﴾ .

و﴿ **فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ** ﴾ .

فالبحر ، والقوم جسمان ماديان فكان الأصل فيهما أن يقال : فَرّقنا بكم البحر ، وفرِّق بيننا وبين القوم الفاسقين ، هل هما خارجان عن الأصل اللغوي ، أم جاريان عليه باعتبار خاص ؟

والإجابة في إيجاز :

الظاهر ـ والله أعلم ـ أن الأصل اللغوي يطرد في الدلالة على الفصل بين الأجسام المادية القوية التماسك والاتصال الحسي ، وهذا مفقود في البحر والقوم .

لأن الماء جسم انسيابي رخو ليس بينه من قوة التماسك ما بين لحم الشاة مثلاً .

ولأن القوم ، أو أي اجتماع بين أي جماعة من الناس يخلو ـ كذلك ـ من التلاحم العُضْوي ، بل هم في الأصل مفصول بعضهم عن بعض ، وعلى هذا الاعتبار الخاص يكون هذان المثالان جاريين على الأصل اللغوي العام .

كما أن في المثال الثاني : ﴿ **فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ** ﴾ لمحة بلاغية لطيفة ، تلحظ من قول موسى ـ عليه السلام ـ « فافرق » مخففًا بدلاً من فَفَرِّق مشددًا ، تلك اللمحة البلاغية تشير إلى صنف العلاقة بين موسى وأخيه هارون ، وهما رسولان ، وبين القوم الفاسقين ، ولضعفها فإنها تزول بأخف عارض دون أي جَهْد يذكر .

أما ورودها غير فعل فله ثلاث صيغ :

اسم الفاعل ثم المصدر في قوله تعالى : ﴿ **فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا** ﴾ (المرسلات:٤)[(١)]، ثم اسم على وزن « فِعْل » في قوله تعالى :

﴿ **فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ (الشعراء:٦٣) .

واسم الفاعل « الفارقات » جارٍ على الأصل اللغوي على ما ذكره المفسرون

---

(١) أما « فَارِقُوهن » في الطلاق : ٢٢ ، فهي من فارَق الرباعي فلا تدخل فيما نحن فيه .

من أن طائفة من الملائكة فَرَقت بين الحق والباطل ، وهما ليس بجسم مادي[1] .

وكذلك المصدر « فرقًا » لأنه مصدر المخفف « فَرَق » أما « فِرْق » فالمراد به الجزء المتفرق من الماء .

● منهج القرآن في « فرق » المخفف :

أولاً : استُعْمِل « فرق » المخفف في الفصل بين الأُمور المعنوية كما هو الأصل في اللغة .

ثانيًا : يُلحق القرآن الفصل بين الأجسام المادية الرخوة كالماء بالفصل بين الأمور المعنوية ، تشبيهًا لضعف التماسك بين جزيئياتها بضعف العلاقة بين الأجسام الإنسيابية الرخوة .

كما ينزل العلاقة بين الطوائف المتباينة منزلة العدم ، فدلَّ على انفصالها بالفعل « فرق » أو « افرق » بدل : « افرِّق » ، أو « فرِّق » .

● أمثلة « فرَّق » المشدد :

في أمثلة « فرَّق » المشدد تكررت بعض الصيغ مرات ، لذلك سنكتفي ببعض المكرر توخيًا للإيجاز ، والأمثلة هي :

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (طه:٩٤) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:١٥٩) .

﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) .

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (النساء:١٥٠) .

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ (البقرة:١٠٢).

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ ﴾ (آل عمران:١٠٥) .

﴿ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (الأنعام:١٥٣) .

---

(١) تفسير النسفي : (٣٢٢/٤) .

﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ ﴾ (آل عمران:١٠٣) .

﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦ ﴾ (النساء: ١٣٠) .

﴿ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (الروم: ١٤).

في هذه الآيات العشر استعمل « فرَّق » المشدَّد إما فعلاً مضارعًا وهو الغالب ، وإما فعلاً ماضيًا ، وقد جاء الفعل على الأصل اللغوي ، وهو الفصل بين الأجسام المادية في ثمانية مواضع ، وهي :

التفريق بين بني إسرائيل ، وبين الرسل ، وبين الزوجين ، وبين جماعة المؤمنين ، وبين المشركين وأصنامهم .

واستعمل في الفصل بين أمر معنوي ـ وهو الدين ، في موضع واحد وله نظائر لم نذكرها . أما التفريق بين الله ورسله ، فقد غُلِّب فيه جانب الرسل ، أما الله ـ سبحانه ـ فليس كمثله شيء .

إذن لم يخرج عن الأصل اللغوي من هذه الآيات إلا التفرقة في الدين ، وكان الأصل فيه يقال : « فرَقُوا دينهم » من « فَرَق » المخفف لا « فرَّق » المشدد ؛ لأن الدين قيم وأصول معنوية ، وليس جسمًا ماديًّا .

ومجيؤه من « فرَّق » المشدد إنما هو تنزيل له منزلة المادي المحسوس القوي التماسك ، لخلو قيمه وأصوله من التجافي والتنافر وتنويه بسلامته من الخلل والاضطراب .

وقد لاحت لي خاطرة ، خلاصتها أن مدار الحديث ـ هنا ـ أعني في « فرَق » مخففًا ، و« فرَّق » مثقلاً ، منظور فيه إلى نوعين من العلاقات :

الأول : العلاقات المعنوية ـ سواء كانت بين أمور معنوية أو أجسام مادية .

الثانية : العلاقات المادية البحتة ، ولا تكون إلا في الأجسام التي بين عناصرها تركيبات عضوية .

وعلى هذا فإن قول هارون لموسى ـ عليهما السلام ـ : ﴿ **إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ** ﴾ يكون التفريق منصبًّا على علاقة معنوية بين

أجسام مادية ، واستعمال « فرَّق » فيها دون « فرق » إشارة إلى قوة التماسك المعنوي بينهم ، حتى لكأنهم بنيان مرصوص .

وعلى هذا ـ مرة أخرى ـ تكون آيات « فرَّق » جميعها من هذا القبيل ، وأن الأصل فيها « فرَقَ » المخفف ، لا « فرَّق » المثقل ، وإنما استعمل القرآن الحكيم فيها « فرَّق » إشارة إلى قوة الرباط بينها وإن كان معنويًا ، وهذا يصدق على الآيات العشر ، كعلاقة الرسل ، وعلاقة المؤمنين بعضهم ببعض ، وعلاقة الزوجين ، وعلاقة عبدة الأصنام بأصنامهم وهكذا .

وتوجيه هذا بلاغيًّا لا يخرج عن واحد من أمرين ، ولنتخذ من علاقة الرسل مثالاً للتوضيح ، والأمران هما :

الأول : أن يكون في الكلام استعارة تصريحية أصلية بتشبيه العلاقة المعنوية بين الرسل بعلاقة هيكل مادي شديد التماسك ، والجامع هو القوة ، والقرينة هو استعمال « فرَّق » بدل « فَرَق » والسر البلاغي إبراز المعقول في صورة المحسوس اعتناء بشأنه .

الثاني : أن يكون في الكلام استعارة بالكناية ، شبهت فيها الأجسام المادية المفصول بعضها عن بعض بالأجسام المركبة تركيبًا عضويًّا قويًّا ، وحذف المشبه به ، ودُل عليه بإجراء خاصة من خصائصه ، وهي التفريق المفهوم من « فرَّق » على المشبه ، والسر البلاغي هو التنويه بقوة الصلات بينها .

وعلى هذا ـ مرة ثالثة ـ تكون آيات « فرَّق » العشر من هذا القبيل .

وأيًّا كان الأمر فإن منهج القرآن في « فرَّق » المشدد هو :

أولاً : استعمال « فرَّق » في الفصل بين الأجسام المركبة تركيبًا عضويًّا ماديًّا.

ثانيًا : استعمال « فَرَّق » في الفصل بين الأطراف ذات العلاقات المعنوية القوية التماسك ، وإن كانت أطرافها أمورًا معنوية ، وهذا ما نرجحه بعد التمهيد الذي قدمناه من قبل .

* * *

جَسَد ـ جِسْم

في كتب اللغة مساواة بين كلمتي الجسد والجسم عند بعض اللغويين ، ومنهم من يفرق بينهما ويرى أن الجسد لا يطلق إلا على ذي روح من الناس والملائكة ، والجن ، ويرى أن إطلاق الجسد على غير العقلاء ، كعجل بني إسرائيل جاء على خلاف الأصل .

بيد أن لغة القرآن تفرق بينهما تفرقة مباينة لما قاله بعض اللغويين ، كما تنبئ بكل وضوح بعدم تساويهما في الدلالة خلافًا لما قاله بعض اللغويين كذلك [1] .

فلنذكر مواضعهما في القرآن لتستبين لنا دلالتاهما فيه :

● **أمثلة « الجسد » :**

﴿ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ (الأعراف:١٤٨) .

﴿ فَأَخۡرَجَ لَهُمۡ عِجۡلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ﴾ (طه:٨٨) .

﴿ وَمَا جَعَلۡنَٰهُمۡ جَسَدًا لَّا يَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ﴾ (الأنبياء:٨).

﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدًا ﴾ (ص:٣٤).

هذه هي المواضع الأربعة التي استعمل القرآن فيها كلمة « جسد » ، ومراده منها الهياكل التي لا روح فيها ، وهذا ظاهر في عجل بني إسرائيل ؛ لأنه هيكل مصنوع من ذهب لا روح فيه ، أما الجسد الذي أُلقي على كرسي سليمان ، فهو كذلك لا روح فيه ميتًا كان أو غير كامل الخلقة[2] .

---

(١) انظر في الفروق اللغوية بين الجسد والجسم ، مفردات الراغب : (٩٣) ، والمصباح المنير : مادتا : جسد ، وجسم .

(٢) انظر « تفسير النسفي » : (٤/٤٢) .

أما آية الأنبياء : ﴿ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴾ ، فهي رد على مشركي مكة لما أنكروا على النبي ﷺ مشيه في الأسواق وأكله الطعام ، فبين الله لهم أنه ليس بدعًا من الرسل ، حيث لم نجعلهم مجرد أجساد لا روح فيها ، ولا تحتاج إلى الطعام والشراب ، بل كانوا بشرًا يطعمون كما يطعم البشر ، وفي هذا يقول جار الله الزمخشري :

« ومَا جعلنا الأنبياء ـ عليهم السلام ـ قبله ذوي جسد غير طاعمين »[1] ، فقد ظهر لنا أن القرآن لا يطلق كلمة « جسد » إلا على ما لا روح فيه .

وهذه دلالة مطردة في المواضع الأربعة التي ذكرناها ، وليس لها في القرآن خامس .

● أمثلة « الجسم » :

﴿ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ﴾

(البقرة:٢٤٧).

﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ (المنافقون:٤).

لم ترد كلمة « الجسم » في القرآن في غير هذين الموضعين ، وقد جاءت فيهما في سياق الحديث عن الإنسان :

الأول : في سياق الحديث عن « طالوت » ملك بني إسرائيل .

والثاني : في سياق الحديث عن « المنافقون » في عصر النبوة ، وبذلك يفارق « الجسم » ـ « الجسد » لفظًا ومعنًى ، فليسا هما ـ كما قال بعض علماء اللغة ـ بمعنى واحد ، وليسا هما على الفروق التي ذكروها ، بل الفرق الوحيد بينهما ـ في لغة القرآن ـ أن « الجسد » يطلق على ما لا روح فيه ، وأن « الجسم » لا يطلق إلا على العقلاء حال الحياة ، بدليل أن الله أطلق على فرعون عقيب موته كلمة « البدن » لا الجسم ولا الجسد ، قال سبحانه :

---

(١) الكشاف : (٥٦٤/٢) .

﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗ ﴾ (يونس: ٩٢).

وإطلاق «الجسد» على ما لا روح فيه ولا حياة تعبير لغوي بالغ الدقة لأن «الجسد» يطلق لغة على الدم إذا يبس وجف .

واليبوسة والجفاف من صفات ما لا روح فيه ، فسبحان الذي نزل أحسن الحديث .

● منهج القرآن في «الجسد» ، و«الجسم» :

أولاً : لكل منهما معنى يغاير معنى الآخر ، فليسا هما مترادفين .

ثانيًا : يُطلق «الجسد» على كل هيكل لا روح فيه ، ولا حياة تامة ، ويطلق «الجسم» على ذوي الحياة من العقلاء .

وهذا هو الاستعمال الأدق الأمثل للغة ، كما يعلمنا البيان القرآني المعجز .

* * *

عَرَفَ ـ عَلِم

من الكلمات التي يفرق بينها القرآن تفرقة بالغة الدقة ؛ كلمتا عرف وعلم وما يُشْتَق منهما من أفعال ومصادر وصفات وأسماء ، أما في العُرف اللغوي العام والخاص فلا تكاد تحس بالفرق بينهما لتقارب المعنى المراد منهما من حيث الظاهر ، وتمهيداً لاستجلاء ما بينهما من فروق نستعين بذكر بعض الأمثلة لكل منهما ، ثم نثبت ما تَهْدى إليه استعمالات القرآن لهما ، الفروق بينهما .

● **أمثلة «عَلِمَ» :**

﴿ **عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ** ﴾ (البقرة:١٨٧) .

﴿ **وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا** ﴾ (الأنفال:٦٦) .

﴿ **عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾ (البقرة:٦٠) .

﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ** ﴾ (التكوير:١٤) .

﴿ **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ** ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

﴿ **يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا** ﴾ (الروم:٧) .

﴿ **فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ** ﴾ (هود:١٤) .

﴿ **إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ** ﴾ (المائدة:١١٦) .

﴿ **ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ** ﴾ (الأنعام:١٢٤) .

﴿ **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ** ﴾ (الأنعام:٧٣) .

﴿ **وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (البقرة:٩٥) .

﴿ **ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ** ﴾ (البقرة:١٩٧).

في هذه الآيات الاثنتى عشر وردت كلمة «علم» وما اشتق منها من فعل مضارع، وأمر واسم فاعل، واسم مفعول، وصفة مشبهة باسم الفاعل، وأفعل التفضيل، وصيغة المبالغة، وهي كثيرة الورود في القرآن، وأمثلتها لا تكاد تحصى.

والذي نريد أن نلفت إليه نظر القارئ الكريم أن «علم»، وما اشتق منها نُسِبَتْ لله ـ سبحانه، ظاهرًا، وضميرًا في جميع الصيغ المشار إليها إلا فعل الأمر.

كما نُسِبَتْ إلى غير الله من مخلوقاته، كما في ﴿ **قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ** ﴾، و ﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ** ﴾ إلا في صيغتي الصفة المشبهة وصيغة المبالغة «عليم ـ علام»، فلم تنسب هاتان الصيغتان لأحدٍ من خلق الله في القرآن الكريم؛ لأنهما من صفات الله وحده[1].

● منهج القرآن في «علم»:

نستطيع أن نسجل ـ هنا ـ منهج القرآن في استعمال كلمة «علم» ومشتقاتها الواردة في القرآن الحكيم في الآتي:

أولاً: إنها كثيرة الورود في لغة القرآن، كثرة مستفيضة، شملت الصيغ اللغوية المعروفة من الأفعال والمصادر والصفات المشتقة.

ثانيًا: إن كلمة «علم» ومشتقاتها تردد إسنادها بين الله ـ سبحانه ـ وبين بعض مخلوقاته إثباتًا ونفيًا.

ثالثًا: إن صيغة المبالغة «علام» لم تأتِ إلا وصفًا لله ـ سبحانه، وكذلك الصفة المشبهة باسم الفاعل «عليم»، إذا أريد بها العلم المطلق من القيود المخصِّصة.

---

(١) ولا يقدح في هذه قول يوسف ـ عليه السلام ـ عن نفسه: ﴿ **إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ** ﴾ (يوسف:٥٥)؛ لأنه وصف مقيد بأمر من أمور الدنيا، أما «عليم» إذا أريد منها العلم المطلق، فلا يوصف بها غير الله سبحانه.

وهذا يضع أمامنا سؤالاً مهمًّا مؤداه :

لِمَ لَمْ يَأت «عرف» فعلاً مسندًا لله وبينها وبين «علم» نَسَب وصلة ؟ والإجابة تحتاج إلى تمهيد :

في كتب العلم فروق متعددة خلاصتها :

١- العلم يتناول كليات المعلوم وجزئياته ، والمعرفة مقصورة على الجزئيات.

٢- العلم لا يتوقف على سبق جهل بالمعلوم ، والمعرفة يسبقها الجهل .

٣- العلم لا يكون عن تَفكُّر وتدبُّر ، والمعرفة لا بد فيها من التفكر والتدبر.

هذه الفروق ، وإن كان بعضها قابلاً للمناقشة ـ فإن خلو القرآن من إسناد المعرفة لله دليل قاطع على أن «العلم كمال» وأن «المعرفة» يشوبها النقص ، فالعلم حقيقة «صفة» خالصة لله ، ووصف غير الله به جارٍ على تشبيه المعرفة بالعلم تشريفًا لها ، أما العلم الخالص ، فهو لله سبحانه ، مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (النحل:٧٤).

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ (الإسراء:٨٥).

﴿ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾ (الروم:٧).

أما الله سبحانه فهو : ﴿ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾ (العنكبوت:٦٢).

لذلك ـ والله أعلم ـ لم يأت «عرف» ولا شيء من مشتقاتها فِعْلاً لله تنزيهًا له عن النقائص ، فلا يقال :

عرف الله كذا ، ولا يقال : الله عارف ، وإنما يقال : علم الله كذا ، والله عالم بكذا .

- **أمثلة «عَرَف» :**

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ (البقرة:١٤٦) .

﴿ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَ ﴾ (الحج:٧٢) .

﴿ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ (النحل:٨٣) .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ ﴾ (الأعراف:٤٨) .

﴿ يُعۡرَفُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ بِسِيمَٰهُمۡ فَيُؤۡخَذُ بِٱلنَّوَٰصِي وَٱلۡأَقۡدَامِ ﴾ (الرحمن:٤١) .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾
(البقرة:٨٩) .

﴿ وَجَآءَ إِخۡوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَعَرَفَهُمۡ وَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾
(يوسف:٥٨).

﴿ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ (البقرة:٢٢٨) .

﴿ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ (البقرة:٢٣٥) .

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩).

تمثل هذه الآيات العشر صور مجيء « عرف » ومشتقاتها في القرآن الحكيم، وهي محصورة بين الفعل المضاع والماضي ، واسم المفعول والاسم ، ولم يأت منها فعل أمر ولا مصدر ولا صفة مشبهة باسم الفاعل ولا صيغة مبالغة كما جاء في « علم » .

كما جاءت فِعْلاً لغير الله ، ولم يأت منها فعل لله قط ، فهي في الآية الأولى مسندة إلى أهل الكتاب باعتبار الضمير « الواو » ، المكنى به عنهم .

وفي الآية الثانية جاءت مسندة إلى ضمير المخاطب من الناس « تعرف » ، وفي الآية الثالثة جاءت مسندة إلى ضمير الذين يجحدون نعمة الله ، كما جاءت في الآية الرابعة مسندة إلى ضمير أصحاب الأعراف .

- **منهج القرآن في « عرف » :**

أولاً : هي فيه فِعْل لغير الله من خلقه ، وليست فِعْلاً ولا وصفًا لله قط .

ثانيًا : هي فيه أقل تصريفًا لغويًّا بالنسبة لـ « علم » .

ثالثًا : المقارنة بين « علم » ، و« عرف » ومشتقاتهما في الاستعمال القرآني تنبئُ عن « أشرفية العلم » عن « المعرفة » .

* * *

اللَّمس ـ المسّ ـ المسح

هذه الكلمات الثلاث : اللمس ـ المس ـ المسح تشترك في أصل الدلالة : ملاقاة جسم لآخر ، وعلماء اللغة منهم من يسَوِّي بين اللمس والمس ، فهما بمعنى واحد في الوضع اللغوي ، ومنهم مَنْ يفرق بينهما تفرقة غير حصينة[1] ، أما « المسح » فلاشتراكه مع اللمس والمس في أصل الدلالة ، الذي أشرنا إليه آنفًا آثرنا دراسته معهما من خلال الاستعمال القرآني لهذه الكلمات الثلاث ، بغية الوقوف على منهج القرآن فيها جميعًا ، وما عسى أن يكون بينها من فروق ينبئ عنها البيان القرآني المعجز .

● أولاً : لمس

لم يرد « لمس » في القرآن إلا خمس مرات ، هي :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:٧).

﴿ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (النساء:٤٣) ، و(المائدة:٦) .

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾ (الجن:٨) .

﴿ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا ﴾ (الحديد:١٣).

هذه الآيات الخمس منها ثلاث آيات استُعْمِلَ فيها « اللمس » مرادًا منه المعنى الوضعي اللغوي ـ أي ملاقاة جسم لآخر ـ وهي آيات « الأنعام » و« النساء » و« المائدة » .

---

(١) المفردات ، المصباح المنير (مادتا : لمس ـ مس) .

أما آيتا «الجن» و «الحديد» فاللمس فيهما بمعنى الطلب، أي طلبنا أو قصدنا السماء، هذا في «الجن»، واطلبوا نوراً، وهذا في «الحديد»، وهما: إما كنايتان، أو استعارتان، والأول أقرب، والعلاقة بين الطلب واللمس أن طلب الشيء يُفْضِي إلى ملاقاته وأخذه، لذلك ساغت الكناية عن الطلب باللمس، كما ساغت استعارة اللمس للطلب على ما بين الكناية والاستعارة ـ هنا ـ من تفاوت.

أما في آيات الأنعام والنساء والمائدة فمع إرادة الدلالة الوضعية من «اللمس»، فيها فإن آية «الأنعام» اللمس فيها واقع من طرف واحد، «فلمسوه»، وهم الذين كفروا، والملموس هو الكتاب المفروض تنزيله، وآيتا النساء والمائدة، وإن قلنا إن الملامسة فيهما كناية عن كنايات الجماع فإن المعنى الحقيقي، وهو ملاقاة أو ملاصقة جسم لآخر، مقصود في الآيتين، لأن المراد ملامسة الأزواج بعضهم بعضًا أو ملامسة أي رجل لأي امرأة تشتهى عادة كالمصافحة إن قُصِدَ معها أو وُجِدَ ما ينقض الوضوء، كما ذهب بعض الفقهاء، وعلى هذا فإن اللمس في الآيتين مقصود منه مجرد ملاقاة بين جسمي بالغين، فلا كناية فيهما عن الجماع، وهو مذهب من مذاهب الفقهاء.

والحاصل أن في الملامسة في آيتي النساء والمائدة مذهبين فقهيين:

الأول: كونها كناية عن مباشرة النساء، وعلى هذا تكون الملامسة الحقيقية مقصودة ضمن معنى آخر.

والثاني: كونها الملامسة التي ينتقض بها الوضوء دون الطهارة الكبرى ـ الاغتسال ـ وعلى هذا يكون اللمس الحقيقي مقصودًا لذاته.

● منهج القرآن في «لمس»:

أولاً: جاء اللمس في القرآن مقصودًا منه ملاقاة جسم لآخر مع المبالغة فيه، لأن الذين كفروا لو أنزل الله كتابًا مكتوبًا من السماء ـ أي لا وحيًا يوحى ـ

فإنهم يلمسونه بشدة بقصد الاختبار والتأكد ، وكذلك تكون ملامسة الرجال النساء إذا قصد منها الشهوة في الغالب ، سواء كانت بين الأزواج أو غيرهم .

ثانيًا : وجاء اللمس فيه كناية عن الطلب أو استعارة له مع قرينة مانعة أو غير مانعة من إرادة المعنى الحقيقي .

ثالثًا : ندرة ورود « اللمس » في القرآن بالنسبة لِلْمَسِّ (مس) .

● ثانيًا : المس

ما أكثر ورود « مس » ومشتقاتها في القرآن ، وما أكثر تصريفاتها اللغوية فيه ، وعلى كثرتها فمن الممكن التعرف على منهج القرآن فيها ، وها نحن أولاء نذكر من أمثلتها ما يعيننا على استخلاص منهجها في لغة القرآن الحكيم:

● الأمثلة :

﴿ وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ ﴾ (الأعراف:٩٥) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا ﴾ (يونس:١٢) .

﴿ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ ﴾ (الحجر:٥٤) .

﴿ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (ص:٤١) .

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ (النور:٣٥) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ (آل عمران:٢٤) .

﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الأعراف:٧٣) .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ (البقرة:٢٣٦) .

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الأنعام:١٧) .

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ (آل عمران:٤٧) .

﴿ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ (الواقعة:٧٨،٧٩) .

﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ (المجادلة:٣) .

﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾

(البقرة:٢٧٥) .

﴿ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ (طه:٩٧).

هذه الآيات الأربع عشرة ورد فيها «المس» في صيغ مختلفة بين الأفعال الماضية والمضارعة والاسم والمصدر ، وقد راعينا في ذكرها أن تكون شاملة لملامح منهج القرآن فيها ، وهذا يتضح من النظرات الآتية :

* تردد مجيؤها بين الحقيقة والكناية والمجاز على النحو الآتي :

١- ثلاثة مواضع منها أريد بها المعنى الحقيقي الوضعي دون اقترانه بمعنى آخر ، وهي :

﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ ، ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾ ، ﴿ لَا مِسَاسَ ﴾ .

٢- وثلاثة مواضع أخرى جاءت كناية عن مباشرة النساء[١] ، وهي :

﴿ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ ﴾ ، ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ ، ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ .

٣- أما المواضع الأخرى ، وهي تسعة ، فقد جاء «المس» فيها مجازًا عن «الإصابة» ، وهي :

﴿ مَسَّ ءَابَآءَنَا ﴾ ، ﴿ مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ ﴾ ، ﴿ مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ ﴾ ، ﴿ مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ ، ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ ﴾ ، ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ ﴾ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ ﴾، ﴿ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾.

هذا من حيث المعنى المراد منها ، أما من حيث المقام الذي وردت فيه فإنها موزعة على مقامي الخير والشر ، واستعمالها في الشرور أكثر من استعمالها في «الخيور» يستوي في ذلك ما ذكرناه وما لم نذكره من أمثلتها ، ومن ينظر

---

(١) الكناية ـ كما هو معروف ـ يجوز فيها إرادة المعنى الحقيقي مع المعنى الكنائي ، ما لم يمنع منه مانع خارجي ، ولا مانع هنا من إرادته .

في جميع مواضع ورودها في القرآن يتبين له صدق ما فهمناه ، والسر البلاغي في الكنايات الثلاث تجنب ما يستقبح ذكره والإفصاح به .

أما في الاستعارة عن الإصابة فالمغزى البلاغي هو إظهار المعنوي المعقول في صورة المادي المحسوس ليتمكن في الشعور أعظم تمكُّن مع شدة الإحساس .

ومن قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ** ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ **لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ** ﴾ ، وقوله : ﴿ **لَا مِسَاسَ** ﴾ ، يظهر أن المس يتحقق بأدنى ملاقاة بين جسمين ؛ لأن القرآن الحكيم نهى في الأولى والثانية عن إلحاق أدنى أذى بالناقة ، وعن أدنى اقتراب من الكتاب المكنون وإن جاء على صورة النفي الخبري .

مصداق هذا قوله تعالى في النهي عن عقوق الوالدين : ﴿ **فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا** ﴾ (الإسراء:٢٣) ، فنهى عن أدنى صور الأذى بـ « أف » ، والنهي عن الأدنى يلتزم النهي عن الأكبر.

وقوله تعالى في شأن اعتزال الظالمين ﴿ **وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ** ﴾ (هود:١١٣) .

والركون هو الميل اليسير ، والنهي عنه يقتضي النهي عن المخالطة والمعاشرة .

وكذلك « لا مساس » ، فهو نفي بمعنى النهي أي : لا يمسسني أحد ، وهو يلتزم النهي عما هو أعظم من مجرد المساس كالمصافحة والمعانقة .

وعلى هذا فقد فهمنا بأن المس أخف من اللمس ، فاللمس ما كان مبالغًا فيه ، والمس هو أدنى ملاقاة جسم لآخر ، وهذا هو الفرق بين اللمس والمس ، والذوق اللغوي يوحي بهذا الفرق الدقيق .

فالمس لمس خفيف ، واللمس مس ثقيل ، ومن الشواهد على خفة المس دون اللمس قول أهل الجنة الذي حكاه عنهم القرآن ، وهو :

﴿ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾

(فاطر: ٣٤،٣٥) .

فنفوا أدنى درجات التعب والإعياء .

• منهج القرآن في «مسّ» :

أولاً : كثرة ورودها فيه ، وكثرة تصريفاتها اللغوية .

ثانيًا : ترددها بين المعاني الحقيقية والكنائية والمجازية .

ثالثًا : استعمالها في مقام الشرور أكثر من مقام الخيور .

رابعًا : اشتراكها مع «لمس» في أصل الدلالة وتفردها بخفة الملاقاة بين الماس والممسوس .

خامسًا : تردد إسنادها بين الخالق والمخلوق ، بخلاف لمس ، فلم تسند إلى الله قط ، لا حقيقة ولا مجازًا .

سادسًا : المس المسند إلى «المخلوق» هو ملاقاة جسم لآخر سواء كان المس حقيقة لغوية أو مجازًا لغويًّا أو كناية .

أما المس المسند إلى الله ، فهو بواسطة ابتلاءاته نعما كانت أو نقمًا ، وليس ملاقاة جسم لآخر ، رعاية لتنزيه الله وتقديسه عن صفات الحوادث ، وهذا مما يلفت النظر إلى سمو لغة القرآن المعجزة ، وحسن وفائها لعقيدة التوحيد .

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ (النساء: ٨٢).

• ثالثًا : المسح

لا ريب أن المسح ضرب من ضروب ملاقاة جسم لآخر ، أحدهما ماسح ، والآخر ممسوح ، كاللامس والملموس ، والماس والممسوس ، بيد أن فرقًا واضحًا بين المسح وكل من اللمس والمس ينبئ عنه الاستعمال القرآني لكلمة «المسح» ، كما أنبأ عن الفروق بين كل من اللمس والمس .

● **أمثلة «المسح» :**

الذي يدخل معنا من أمثلة «المسح» أربع آيات ، هي :

﴿ **فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ** ﴾ (النساء:٤٣).

﴿ **وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ** ﴾ (المائدة:٦) .

﴿ **فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ** ﴾ (المائدة:٦).

﴿ **رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ** ﴾ (ص:٣٣) .

هذه المواضع الأربعة واحد منها خاص بمسح الرأس بالماء في الوضوء ، واثنان وردا في مسح الوجوه والأيدي بالتراب في التيمم ، والمسح فيها ثلاثتها مستعمل في المعنى اللغوي الحقيقي ، أي ملاقاة جسم لآخر كاللمس والمس مع فارق مهم سنذكره بعد قليل .

أما الموضع الرابع ﴿ **مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ** ﴾ الوارد في الحديث عن نبي الله سليمان ـ عليه السلام ـ فهو مسح مجازي لا حقيقي ؛ لأن المراد منه أن سليمان لما شغلته خيله عن الصلاة وتنبه أخذ سيفه مسرعًا فجز أعناقها وقطَّع قوائمها تخلصًا من الفتنة ، فالمسح هنا مستعار للذبح والتقطيع ، إشارة إلى الإسراع في إبادتها إسراع المسح ليسره وسهولته .

وأيًّا كان الأمر فإن المسح ـ كما يفهم من الاستعمال القرآني هو ملاقاة جسم لآخر ، والفرق بينه وبين كل من اللمس والمس أنه يكون مع إمرار الجسم الماسح على الجسم الممسوح ، وهذا هو الذي يحدث في مس الرأس بالماء في الوضوء ، وفي مسح الوجه واليدين بالتراب في التيمم .

● **منهج القرآن في «المسح» :**

أولاً : وروده في مقامي التشريع والقصص .

ثانيًا : تردده بين الحقيقة والمجاز .

ثالثًا : قلة وروده بالنسبة إلى «اللمس» .

● الفروق بينها :

ونعيد ـ في إيجاز ـ الفروق بين هذه الكلمات الثلاث فيما يأتي :

أولاً : كل من الكلمات الثلاث المراد منها ملاقاة جسم لآخر .

ثانيًا : الفرق بين اللمس والمس هو شدة الملاصقة في اللمس وخفتها في المس .

ثالثًا : المسح كاللمس والمس إلا أنه يفترق عنهما بتحريك الجسم الماسح على الجسم الممسوح ، أما اللمس والمس فيكونان مع سكون الجسم اللامس والجسم الماس ، والله أعلم .

* * *

المطر ـ الغيث

المطر والغيث كلاهما اسمان لنزول الماء من السحاب ، فكان ينبغي أن يكونا مترادفين ، لفظهما مختلف ، ومعناهما واحد ، وهذا هو وضعهما في معاجم اللغة . المطر هو الغيث ، والغيث هو المطر[1] .

أما في لغة البيان القرآني فالأمر مختلف ، فمع أن المطر والغيث اسمان لنزول الماء من السماء ، فإن القرآن الكريم يفرق بينهما تفرقة واضحة ، ولنأخذ أولاً في سوق الأمثلة :

● **أمثلة «المطر» :**

﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ** ﴾ (الأعراف:٨٤) .

﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ** ﴾ (هود:٨٢)

﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ** ﴾ (الحجر:٧٤) .

﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ** ﴾ (الشعراء:١٧٣) .

﴿ **فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ (الأنفال:٣٢) .

﴿ **وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ** ﴾ (الفرقان:٤٠) .

﴿ **وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ** ﴾ (النساء:١٠٢) .

﴿ **فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ** ﴾ (الأحقاف:٢٤).

في هذه الآيات الثماني خمسة أفعال ماضية مبنية للفاعل «أمطرنا» مسندة إلى ضمير اسم الجلالة .

---

(١) المفردات : (٣٦٧) ، و«المصباح المنير» : (٤٥٨) .

وفعل ماض واحد مبني للمفعول والفاعل محذوف هو «الله» ـ عَـزَّ وجَـلَّ ـ وأربعة أسماء مصدر «مَطَر»، وواحد اسم فاعل «ممطرنا» من الفعل الرباعي: «أمطر».

وجميع ما ذُكر من «أمطرنا»، و«أُمْطِـرَت»، و«مطر»، و«ممطرنا» مستعمل في مقام الشر والعذاب والأذى، حتى في المقام الذي ظاهره الخير والتفاؤل، وهو قول «عاد»:

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾، فإن «ممطرنا» مستعمل في مقام الشر والعذاب لفظًا وتفسيرًا، أما «لفظًا»، فإن «مُمْطرنا» اسم فاعل من الفعل الرباعي «أمطر» وعلماء اللغة مجموعون على أن «أمطر» بالهمزة لا يرد إلا في مقام العذاب والانتقام، أما «مَطَر» بدون همزة واسم الفاعل منه «ماطر»، فهو عند اللغويين لا يستعمل في «الشر»[1]، وحكاية القرآن عن «عاد»، وهي قولهم: «مُمْطِرنا» حكاية صادقة، فقد قالوا بألسنتهم ما يستحقونه بما كسبت قلوبهم، وهذه إحدى «لطائِف» البيان القرآني المعجز.

وأما «تفسيراً»، فإن القرآن عقَّب على قولهم هذا وبين حقيقة العارض الذي انخدعوا فيه، فقال:

﴿ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

إذن فهذا اللفظ «مطر» ومشتقاته لم يرد في لغة القرآن إلا في مقام الشر والعقاب، ولم يخرج موضع واحد من مواضع وروده عن هذا النسق.

● منهج القرآن في «المطر»:

أولاً: لم يستعمله القرآن إلا في مقام العذاب والانتقام من المعرضين عن رسالات الله، وفي مقام الأذى والابتلاء إذا ورد في سياق الحديث عن المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ ﴾.

---

(١) انظر المصباح المنير: (٤٦٧).

ثانيًا : فاعل المطر والإمطار هو «الله» لفظًا ومعنًى .

أما لفظًا فقد أسندت الأفعال المبنية إلى «الفاعل» إلى «الله» باعتبار الضمير العائد عليه .

وأما معنى ؛ فليس في مقدور غير الله أن يُحدث هذه الظاهرة ، وهي المطر والإمطار .

● **أمثلة «الغيث» :**

﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ** ﴾ (لقمان: ٣٤).

﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟** ﴾ (الشورى: ٢٨) .

﴿ **كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ** ﴾ (الحديد: ٢٠) [١].

هذه هي الآيات الثلاث التي ذُكِر فيها الغيث في لغة القرآن ، والغيث والغوث : النجدة والعون ، ومعنى هذا أن القرآن لم يستعمل «الغيث» إلا في مقام الإنعام والخير ، ويشاركه في هذا المقام الماء ، كقوله تعالى ممتنًّا على عباده :

﴿ **ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ** ﴾ (البقرة: ٢٢).

﴿ **وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَـٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا** ﴾ (الفرقان: ٤٨، ٤٩).

وما أكثر الآيات التي ذُكر فيها الماء في مقام التمدح الإلهي والتفضل على العباد ، أما المطر فلم يذكر قط في القرآن في مقام الإنعام على العباد ، وبهذا تنتفي صفة «الترادف» بين المطر والغيث ، وكذلك الماء ، هكذا نجد لغة القرآن .

---

(١) (والكفار هنا الزراع) .

- **منهج القرآن في «الغيث» :**

أولاً : أنه في القرآن نعمة وفضل من حيث لفظه ، ومن حيث معناه : غيث أو غوث ونجدة .

ثانيًا : ليس له فاعل إلا الله ﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ** ﴾ لا سواه .

ثالثًا : قلة وروده في القرآن الكريم .

* * *

النِّعمة ـ النَّعِيم

من الكلمات الكثيرة الورود في القرآن كلمتا : النعمة والنعيم ، وأصولهما : النون ، والعين ، والميم ، والفرق اللفظي بينهما تاء التأنيث في الأولى ، والياء في الثانية ، أما المعنى فلا يكاد يرى أحد اختلافًا فيه ، فالنعمة هي النعيم ، والنعيم هي النعمة .

ولكن البيان القرآني يخص كلا منهما بمعنى ، فللنعمة فيه مقام ودلالة ، وللنعيم فيه مقام ودلالة ، مع أنهما ـ معًا ـ تدلان على ما يمن الله به على عباده من فضل وخير ومتاع ، والأمثلة الآتية توضح ذلك .

● **أمثلة «النِّعمة» :**

﴿ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ (البقرة:٢١١) .

﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة:٢٣١) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (الأنفال:٥٣) .

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣) .

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ ﴾ (الأحقاف:١٥) .

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل:١٨) .

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ (الزمر:٨) .

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ﴾ (المائدة:٣) .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:١١) .

هـذه تسع آيات ذكرناهـا تمثيلاً لا استقصاء ، وردت فيـهـا كلـمـة «نِعمـة» ـ بكسر النون ـ مسندة إلى الله ، أو مضافة إلى اسم آخـر مـن أسمائـه «رب» أو مسندة إلى ضمير لفظ الجلالة ، أو منسوبة إليـه بواسـطة حـرف جـر «فمـن الله» ، و«منه» ، وبالنظر في هذه الأمثلـة وفي غيرهـا ممـا لم نـذكره نلحـظ أن القرآن لم يستعمل كلمة «نِعمة» ، ولا «نَعْمة» ، ولا «نعماء» إلا فيما يمن الله به على الناس في هذه الحياة الدنيا ، سواء كـان نِعمًـا ماديـة أو روحيـة ، وهـذه الدلالة مطردة في القرآن في الحديث عن النِّعم الدنيوية العاجلـة ، هـذا ونرجـئُ الحديث عن منهج القرآن في «النعمـة» إلى مـا بعـد التمثيـل لكلمـة «النعـيم» والنظر في دلالتها .

- **أمثلة «النعيم» :**

﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (المائدة:٦٥) .

﴿ **فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (الحج:٥٦) .

﴿ **وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (الشعراء:٨٥) .

﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (لقمان:٨) .

﴿ **أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِى جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (الواقعة:١١، ١٢) .

﴿ **فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ** ﴾ (الواقعة:٨٩) .

﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (القلم:٣٤) .

﴿ **إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ** ﴾ (الانفطار:١٣) .

﴿ **تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ** ﴾ (المطففين:٢٤) .

﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا** ﴾ (الإنسان:٢٠).

وفي هذه الآيات العشر جاءت كلمـة «النعـيم» مضـافة إليهـا «جنـات» في خمسة مواضع ، ومضافة إليها «جنة» في موضـعين ، ومضـافة إليهـا «نضـرة»

في موضع واحد ، وغير مضاف إليها في موضعين ، ومواضعها التي لم نـذكرها جارية على هذا النسق .

والجدير بالاعتبار أن القرآن لم يستعمل كلمة « النعيم » في جميع أحوالها إلا في مقام الحديث عن إنعام الله على صالحي عباده في الدار الآخرة ، على نقيض دلالة « النِّعمة » التي وقفها البيان القرآني على الحديث عن نعم الله على خلقه في الحياة الدنيا .

● إلا آية « التكاثر » :

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ .

هـذه الآيـة وردت فـي ختام سـورة « التكـاثـر » ، وفيـهـا كلـمـة « النعـيم » لا « النعمة » ، والمقام الذي وردت فيه ، فيه احتمالان :

أحدهما : أن يكون المراد بـ « النعيم » فيها : نعم الدنيا .

والآخر : أن يكون « النعيم » الذي ورد فيها مرادًا به نعيم الآخرة ، ولكل من الاحتمالين مُسَوِّغ .

أما الأول : فلأن السؤال سيكون يـوم الحسـاب : يـوم يسـأل كـل امـرئ عـن شبابه فيمَ أبلاه ؟ وعن عمره فيم أفناه ؟ وعن ماله ممَّ جمعـه ؟ ، وفـيمَ أنفقـه ؟ وعن علمه فيم عمل به ؟

وأما الثاني : فلأن القرآن خصَّ النعيم بآلاء الحياة الآخرة ، وهذا يقتضـي أن تكون الدلالة مطردة في جميع مواضع ذكره ، وعلى هـذا يحمـل السؤال على النعيم الحق ما هو ؟

أهو ما شغل الناس في الدنيا ، وهو جمع المال « التكاثر » ؟

أم هـو نعـيـم الآخـرة الخـالـد الخالى مـن كـل المنغصات والمكـدرات ؟ ولا نستطيع أن نجزم بواحدٍ من الاحتمالين .

والسر في اختصاص إنعام الآخرة بـ « النعيم » ـ فيما نرجح ـ أن « نعيم »

جاء على صيغة الصفة المشبهة « فعيل »، وهي تفيد الثبوت والدوام : ﴿ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ (الرعد:٣٥) ، وهذا أولى من قول صاحب المفردات : « النعيم : الخير الكثير[١] » لأن الكثرة قد يوصف بها خير الدنيا ، وهو زائل عن صاحبه ، وصاحبه زائل عنه ، كما أن « نعيم » زائد في مبناه بـ « الياء » عن « نعمة » وزيادة المبني تدل على زيادة المعنى ـ غالبًا ـ كما يقول علماء اللغة ، فنعيم الآخرة ـ مع كثرته ـ دائم بلا انقطاع ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

● منهج القرآن في « النعمة » ، و « النعيم » :

أولاً : يخص إنعام الدنيا بـ « النعمة » ويخص إنعام الآخرة بـ « النعيم » .

ثانيًا : يغلب على « النعمة » الإسناد إلى اسم من أسماء الله تعالى أو إلى ضمير عائد عليه ، أو الإضافة إلى اسم من أسمائه أو إلى ضمير عائد عليه ، أو تنسب إليه بواسطة « حرف جر » وقل مجيؤُها مقطوعة عن الإسناد والإضافة .

ثالثًا : يخص إنعام الآخرة بـ « النعيم » مضافة إليه « جنة » أو « جنات » أو « نضرة » ، أي : بهجة وإشراق ، وقل مجيؤُه غير مضاف إليه .

رابعًا : « النعيم » في القرآن موسوم بالكثرة والصفاء والدوام ، أما النعمة فمآلها الزوال إما بنفسها ، أو بموت صاحبها .

خامسًا : استعمال القرآن لـ « النعمة » ، و « النعيم » يوحي بانتفاء الترادف بينهما ، فلكلٍّ منهما مقام ، ولكل منهما معنى خاص بها ، وبهذا جاء التنزيل الحكيم المعجز .

* * *

---

(١) مفردات الراغب : مادة : (ن ع م) .

الجمال ـ الحُسْن

الجمال والحسن من الكلمات التي يكثر في كلام الناس الوصف بها لأشياء مختلفة ، دون التقيد بما يكون موصوفًا بالجمال أو موصوفًا بالحسن ، وإحلال إحدى الكلمتين محل الأخرى أمر لا حرج فيه ، فما يصفه واصف بأنه جميل ، يصفه آخر بأنه حَسن ، أو يصفه الواصف نفسه مرة بأنه حسن ، وأخرى بأنه جميل .

بل إن أئمة اللغة يسوون بين الجمال والحسن ، فهذا سيبويه إمام اللغويين والنحاة يفسر الجمال بأنه : رقة الحسن .

وقالوا في بيان : تَجمَّل تجمُّلاً « أن معناه تزَيَّن وتحسَّن[1] ، وقال الراغب : الجمال الحسن الكبير »[2] .

هذا هو وضع الجمال والحسن في اللغة ، وفي استعمالات الناس ، عامتهم وخاصتهم ، فهل هما في لغة القرآن سواء ؟

وهل ما يوصف بالحسن يوصف بالجمال ؟ وما يوصف بالجمال يوصف بالحسن ؟

وهل إحلال إحدى الكلمتين محل الأخرى سائغ ومقبول ؟

إن الاستعمال القرآني لهاتين الكلمتين هو الذي يحدد الإجابات الواضحة على هذه التساؤلات ، ولنبدأ بكلمة « الجمال » ومشتقاتها لقلة ورودها في لغة القرآن بالنسبة لورود الحسن ومشتقاتها :

---

(١) المصباح المنير : مادة (ج م ل) ـ (١١٠) .
(٢) المفردات : (٩٧) .

● أمثلة «الجَمَال» :

ونذكر جميع مواضعها في القرآن لقلتها :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل:٦) .

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ (يوسف:٨٣) .

﴿ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ (الحجر:٨٥) .

﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ (الأحزاب:٢٨) .

﴿ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾ (الأحزاب:٤٩) .

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً ﴾ (المعارج:٥) .

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (المزمل:١٠).

النظر في هذه الآيات التي استعمل القرآن فيها «الجمال» ، و«جميل» يُسْفِر عن الحقائق الآتية :

* استعمل القرآن كلمة «جميل» ست مرات ، وكلمة «الجمال» مرة واحدة .

* كلمة «جميل» لم ترد إلا وصفًا ، والموصوف بها في هذه المواضع أمر معنوي معقول ، لا مادي محسوس ، فقد وصف بها «الصبر» مرتين ، ووصف بها «الصفح» مرة واحدة ، ووصف بها «التسريح» ، وهو الطلاق ، مرتين ، ووصف بها «الهجر» ، وهو الاعتزال ، مرة واحدة .

وكل هذه الموصوفات أمور ذهنية معنوية .

* أما «الجمال» في آية «النحل» ، فهو السعادة النفسية والمجد[1] .

وهو أمر نفسي شعوري .

● منهج القرآن في «الجمال» :

أولاً : لم يرد منه في القرآن إلا المصدر «الجمال» ، والصفة المشبهة «جميل» .

---

(١) انظر : (الكشاف) للزمخشري (٢/٤٠١) .

ثانيًا : لم يستعمل القرآن «الجمال» ، و«جميل» إلا في سياق الحديث عن «الأمور المعنوية» غير الحسية المادية .

ثالثًا : قلة ورود المادة فيه بالنسبة لمادة (ح س ن) .

● أمثلة «الحسن» :

هذه المادة (ح س ن) كثيرة الدوران في الذكر الحكيم ، وجاءت فيه في صيغ متعددة :

أفعالاً ومصادر وصفات ، ثلاثية ، ورباعية ، وسنقتصر على سوق بعض آيات ورودها ، بالقدر الذي يُجَلِّي لنا منهج القرآن فيها ، ويوضح الفروق بينها وبين مادة : (ج م ل) ، ومن الله وبه التوفيق :

﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء:٦٩) .

﴿ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (الكهف:٣١) .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ ﴾ (الأنعام:١٥٤) .

﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (الكهف:٣٠) .

﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ (غافر:٦٤) .

﴿ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (النساء:١٢٨) .

﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (الكهف:١٠٤) .

﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ (آل عمران:١٤) .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ (العنكبوت:٨) .

﴿ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ (الأحزاب:٥٢) .

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (القصص:٦١) .

﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ (فاطر:٨).

﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ ﴾ (الحديد:١١) .

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (النساء:٩٥) .

﴿ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص:٧٧) .

﴿ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:١٩٥).

إجالة النظر في هذه الآيات ترينا أن القرآن الحكيم يُطلق «الحُسْن» ، و«الحَسَن» على الأمور المعنوية المعقولة ، وعلى الأمور المادية المحسوسة سواء بسواء ، ففي شأن زوجات النبي ﷺ وتثبيته على مَنْ في عصمته ، ونهيه عن التزوج بغيرهن يقول : ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ .

والحُسْن في النساء مادي محسوس .

وفي سياق الحديث عن «الوعد» يقول : ﴿ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ .

وحُسْن الوعود معنوي معقول .

وفي سياق الحديث عن «القرض» يقول : ﴿ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ ، وحُسْن القرض معنوي اعتباري ، وهو خلوه من المنِّ ، وأن يراد به وجه الله .

والحُسْن فيه كالجمال ، والحَسَن كالجميل في المصدرية والوصف ، ولكل منهما : (الحُسْن والحَسَن) مقام ، فالحُسْن مقامه أن لا يقع وصفًا مباشرًا لموصوف مذكور في الكلام : ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ .

أمَّا «الحَسَن» فوصف مباشر لموصوف مذكور قبله في الكلام ، مثل ﴿ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ ﴾ .

وبهذا يظهر الفرق جليًّا بين «الجمال» ، و«الحُسْن» في لغة القرآن .

● منهج القرآن في «الحُسْن» :

أولاً : هو أوسع دائرة ، وأكثر ورودًا وصيغًا لغوية من «الجمال».

ثانيًا : يطلق القرآن «الحُسْن» ومشتقاته على الأمور الحسية والأمور المعنوية ، فكل جميل فيه حَسَن ، وليس كل حَسَن جميلاً ما لم يكن أمرًا اعتباريًّا .

ثالثًا : الحُسْن في القرآن كالجمال كلاهما مصدران . والحَسَن فيه كالجميل كلاهما وصفان .

رابعًا : يأتي «الحُسْن» في القرآن «عمدة» لا «وصفًا» تابعًا لموصوف ، أما «الحَسَن» فيأتي فيه وصفًا مباشرًا لموصوف مذكور قبله في الكلام .

ذلك هو منهج القرآن في «الحُسْن» ، و«الحَسَن» ، والفرق بينهما وبين «الجمال» ، و«الجميل» نسق محكم لا خلط فيه ولا غموض .

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف:٥٢) .

* * *

الميِّتْ ـ الميْت

الميْت والميِّت كلمتان أصولهما الثلاثية واحدة ، هي الميم والياء والتاء ، وهما من كلمات القرآن الحكيم ، والاستعمال القرآني يكشف عن فرق عظيم بينهما ، والوقوف على هذا الفرق بين : مَيْت بسكون الياء ، وميِّت بتحريك الياء مشددة يحسم خلافًا نشأ قديمًا وما يزالَ قَائِمًا بين العلماء من مفسري كتاب الله الكريم وغيرهم من الباحثين ، وسنعود لهذه المسألة بعد التمثيل لـ « مَيْت وميِّت» واستجلاء الفرق بينهما :

● **أمثلة « ميِّت» :**

﴿ **وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** ﴾ (آل عمران:٢٧) .

﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ** ﴾ (الأنعام:٩٥) .

﴿ **حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ** ﴾ (الأعراف:٥٧) .

﴿ **وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** ﴾ (يونس:٣١) .

﴿ **وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ** ﴾ (إبراهيم:١٧) .

﴿ **يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ** ﴾ (الروم:١٩) .

﴿ **فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ (فاطر:٩) .

﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ** ﴾ (الزمر:٣٠) .

﴿ **أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ** ﴾ (الصافات:٥٨) .

في هذه الآيات التسع ذُكِر اسم الفاعل : ميِّت ، وميِّتُون ، ومِيتِّين أربع عشرة مرة ، وكان معناه في كل هذه المرات : الحي الذي قُضِي عليه بالموت ، فهو سيموت بعد حياته تلك .

والدليل على هذا خطاب الله لرسوله حال حياته :

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ، هذا دليل قاطع على أن القرآن أطلق كلمة «مَيِّت» ، و«مَيِّتُون» على الرسول ﷺ ، وعلى أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ، وهو حي ، وهم أحياء . و«مَيِّتُون» وصف شامل لكل حي بعد صحابة رسول الله من الناس جميعًا ؛ لأن الموت سنة من سنن الله في الأحياء من خلقه.

وفي كتب اللغة :

«وَأَمَّا الْحَي فَمَيِّتٌ بالتثقيل لا غير ، وعليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ ، أي : سيموتون»[1] .

● الموصوف نوعان :

في الآيات التسع المذكورة نجد الموصوف بكلمة «ميِّت» نوعين :

الأول : ما كان له روح نشأت عنها الحياة ، وهم الموصوفون في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ .

والثاني : ما ليس له روح وهو الأرض كما في قوله ـ عَزَّ سلطانه ـ : ﴿ فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

● سؤال :

ويترتب على ما قلناه من أن القرآن يطلق كلمة «ميِّت» على الحي الذي سيموت ، سؤال وجيه حاصله أن القرآن وصف «البلد» مرَّتَيْن بـ «ميِّت» ، كما أجرى على لسان بعض أهل الجنة أنه قال :

﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ . . . ﴾ .

و«البلد» التي وصفت بـ : «ميت» غير قابلة للموت لأنها لا زرع فيها ولا ماء ، وخلوها من الزرع والماء هو موتها الواقع بالفعل ، فكيف ستموت بعد موتها هذا ؟

---

(١) المصباح المنير : (مادة : م و ت ٥٨٤) .

وأهل الجنة أحياء أبدًا لا يموت منهم أحد ، فكيف يستقيم القول بأن القرآن يطلق «ميت» أيًّا كان نوع الموت حقيقيًّا أم مجازيًّا على الحي الذي سيموت؟

● الجواب :

والجواب ـ فيما نرى ـ يتلخص في الآتي :

* أما ما حُكِيَ عن بعض أهل الجنة فهو حكاية حال ماضية وسياق الكلام يقضي بهذا .

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٥٠ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ۝٥١ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ۝٥٢ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴾ .

﴿ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ۝٥٤ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ۝٥٧ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ۝٥٨ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (الصافات: ٥٤-٥٩) .

فقول بعض أهل الجنة ـ هذا ـ تذكير لقرين السوء بما قال في الحياة الدنيا، بعد أن وقع ما كان يكفر به ، وأهل الجنة ليسوا بمعذبين ، وإنما قال هذا لقرينه تعريضًا وتبكيتًا ، وبهذا يندفع السؤال المعترض على اطراد القاعدة التي لاحت لنا ، يندفع هذا السؤال في شقه المتعلق بهذه الآية : **﴿ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴾**.

* أما الشق الثاني المتعلق بوصف «البلد» بـ «ميِّت» فقد هدينا في الإجابة عليه إلى الآتي :

*** والجواب من وجهين :**

كان الأصل أن يوصف «البلد» بـ «مَيْتْ» الساكن الوسط لا المحرَّك المشدد «ميِّت» تشبيهًا له بمن مات من الأحياء ـ كما سيأتي ، ولكنه وصف بـ «ميِّت» المحرك المشدد الوسط تشبيهًا له بالحي الذي سيموت ، وهذا يجاب عنه من وجهين :

الأول : أن الآيتين اللتين وصف فيهما « البلد » بـ « ميِّت » اتفقتا في أمرين :

أ - أن السحاب مسوق « سقناه » في « الأعراف » ، و« فسقناه » في الزمر .

ب - أن « السَّوْق » فيهما معدى بحرف جر « لبلد » في الأعراف و« إلى بلد » في الزمر .

وهذا معناه أن مسافة ممتدة بين منشأ السحاب ، وبين البلد الذي سيق إليه ، فلا يبعد أن يكون في هذا « البلد » آثار من حياة ريثما يصل إليها السحاب فيجدد أسباب الحياة فيها ، فعومل ـ أي البلد ـ معاملة « الحي » الذي سيموت .

ذلك أن الفعل « سقناه » وحرف الجر المعدى به « إلى ـ لـ » لا بد أن تكون لهما دلالة في بناء الجملة ، وهذه الدلالة هي التي نصصنا عليها قَبْلاً .

الوجه الثاني : أن يكون المراد من « البلد » أهله ، وهم قطعًا أحياء سيموتون. ونظير هذا في القرآن من إطلاق المكان وإرادة أهله قوله تعالى :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ﴾(الأعراف : ٤).

وغير ذلك في القرآن كثير .

وبهذا تطرد القاعدة التي يكشف عنها منهج القرآن في كلمة « ميِّت » .

• منهج القرآن في كلمة «ميِّتْ» :

أولاً : يستعمل القرآن كلمة « ميِّت » بتحريك الوسط وتشديده وصفًا للحي الذي سيموت ، وليس وصفًا لمن مات من الأحياء .

ثانيًا : كما استعمل « ميِّت » في الدلالة اللغوية الوضعية وفي الدلالة على الموت المجازى لما لا روح فيه .

ثالثًا : جاءت ثلاثة مواضع خارجة عن الأصل الذي أشرنا إليه من حيث ظاهر اللفظ ، وقد طرحنا حولها وجهة نظر ، نرجو أن تكون صائبة ، تقضي

باطراد القاعدة القرآنية في المواضع الأربعة عشر إن شاء الله .

● **أمثلة «مَيْت» :**

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (الأنعام:١٢٢)

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ (الفرقان:٤٨،٤٩)

﴿ وَٱلَّذِي نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ (الزخرف:١١)

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ (الحجرات:١٢)

﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴾ (ق:١١)

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ (البقرة:١٧٣)

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ (المائدة:٣)

﴿ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ﴾ (الأنعام:١٣٩)

﴿ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ ﴾ (الأنعام:١٤٥)

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ ﴾ (النحل:١١٥)

﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا ﴾ (يس:٣٣).

في هذه الآيات الإحدى عشرة جاءت «ميت» وصفًا مجازيًّا خمس مرات ، والموصوف هو «بلدة» في ثلاثة مواضع ، والأرض في موضع واحد ، والجاهل أو الضال أو الكافر في موضع واحد .

ووصف «بلدة» ، و«الأرض» بـ «مَيْت» تشبيهًا لهما بالميْت الحقيقي في عدم النفع على سبيل الاستعارة التصريحية ، التي حذف فيها المشبه وذكر المشبه به .

ووصفت الجاهل أو الضال أو الكافر بـ «ميْت» فهو استعارة ـ كتلك ـ والجامع بين الجاهل والضال والكافر، وبين الميْت موتًا حقيقيًّا هو عدم الاعتداد بالحياة مع الجهل والضلال والكفر، هذا هو الجانب المجازى في استعمال «ميْت» في لغة القرآن الحكيم، أما المواضع الستة الأخرى، فقد استعمل القرآن كلمة «ميْت» فيها في معناها اللغوي الوضعي أو الحقيقي، وهو مفارقة الروح البدن، وجاء ذلك على ضربَيْن:

الأول: في شأن الإنسان مرة واحدة في قوله تعالى:

﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾.

الثاني: في شأن ما يؤكل لحمه من الأنعام والطيور والدواجن في خمسة مواضع من الآيات المذكورة، وهذه الآيات الإحدى عشرة هي كل ما في القرآن الذي استُعْمِل فيه «مَيْت» بسكون الياء.

● منهج القرآن في: «مَيْت»:

أولاً: يستعمل القرآن كلمة «ميْت» الساكن الوسط في الدلالة على الموت المعروف، وهو مفارقة الروح البدن.

ثانيًا: مجيء «ميْت» في القرآن مجازًا في خمسة مواضع وحقيقة في ستة مواضع، وقد تقدم تفصيله.

● تعقيب:

وقد يسأل سائل: لماذا اختُصَّ «ميِّت» المشدد الوسط بالحي الذي سيموت؟.

ولماذا اختص «ميْت» الساكن الوسط بمن كان حيًّا فمات فعلاً.

والجواب:

قد تكون هيئة اللفظ ـ والله أعلم ـ لها مدخل في هذا الاختصاص في الموضعين:

فالمشدَّد الوسط: «ميِّت»، فيه حركة صاخبة، وشِدَّة ملحوظة عند النطق بـه، وهذا يناسب الحياة بما فيها من قوة ونشاط، أما «ميْت» السـاكن الوسـط ففيـه رخاوة وضَعْفٌ يلحظان ـ كذلك ـ عند النطق بـ «مَيْت»، وهذا يناسـب المـوت بما فيه من انقطاع الحركة والنشاط، وليس هذا ببدعٍ فما أكثـر الكلمـات الـتي بينها هيئة ونطقًا، وبين معناها تلازم وتلاحم.

• يخرج الحَيَّ مِنَ المَـيِّتِ:

عرفنا مما تقـدم أن القـرآن يطلـق علـى الحـي الـذي مصيره المـوت كلمـة «الميِّت» بتحريك الياء وتشديده، ويُطلق على من كان حيًّا ثم مات فِعْلاً كلمة «الميْت» بسكون «الياء»، وهذا مطرد في لغة القـرآن، لا يقبـل جـدلاً، وقـد أشرنا من قبل أن هذا الفهم من شأنه أن يحسم خلافًا قديمًا وما يزال قائمًا بـين مفسري القرآن وغيرهم حـول آيـات وردت في القـرآن الحكـيم تـدور وتكـرر حقيقة واحدة هي:

إخراج الله الميِّت من الحي، وإخراجه الحي من الميِّتْ، وتلك الآيات هي:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (آل عمران: ٢٦، ٢٧).

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ (الأنعام: ٩٥).

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢).

﴿ تُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ (الروم:١٩) .

هذه هي الآيات الأربع التي تحدثت عن هذه الحقيقة الإلهية ذكرناها كاملة ـ وأحيانًا ـ مع جارتها ـ كما في آية آل عمران ـ ؛ لأن المقام يقتضي ذلك لما لهذه الآيات ـ بطولها ـ من صلة بالمعنى الجديد الذي هُدينا إليه ، راجين الله أن نكون موفقين فيه ، وأن يكتب له القبول عند أهل العلم وصالحي المؤمنين .

• مذاهب المفسرين في الموضوع :

حاول المفسرون تفسير هذه الحقيقة الإلهية ، وذكروا فيها أقوالاً مختلفة ، وفيما يأتي نسوق بعضًا من أقوالهم في آية آل عمران ؛ لأنها أول آية في المصحف الشريف تحدثت عن هذه الحقيقة الإلهية العظيمة ، وبعد الفراغ من ذكر أقوالهم نذكر المعنى الجديد الذي هدينا إليه .

يقول أبي السعود العمادي : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ، أي : تنشئ من موادها ، أو من النطفة ، وقيل : تخرج المؤمن من الكافر ، ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ﴾ ، أي : تخرج النطفة من الحيوان ، وقيل تخرج الكافر من المؤمن » [١] .

وذكر ابن عطية أقوالاً مشابهة ثم قال :

« واختلف المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ، فقال الحسن : معناه : تخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، وقال عكرمة : هو إخراج الدجاجة ، وهي حية من البيضة ، وهي ميتة ، وإخراج البيضة ، وهي ميتة ، من الدجاجة ، وهي حية » [٢] .

وقال النسفي : ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ ، أي : الحيوان من النطفة ،

---

(١) تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم) (٢٢/٢) .
(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : (٥١/٣) .

أو الفرخ من البيضة ، أو المؤمن من الكافر ، و﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ، النطفة من الإنسان ، أو البيضة من الدجاج ، أو الكافر من المؤمن»[1].

ويقول الشوكاني : «﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ تخرج الرجل الحي من النطفة الميتة ، ﴿ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ، تخرج النطفة الميتة من الرجل الحي .. أو هي البيضة تخرج من الحي ، وهي ميتة ، ثم يخرج منها الحي .. أو المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن»[2] .

ويتابع الطاهر ابن عاشور ، وهو من المفسرين المعاصرين ـ يتابع ما قاله المفسرون الأقدمون ، فيقول :

«وَإِخْرَاج الحي من الميِّت هو إخراج أطفال الحيوان من النُّطف ومن البيض ، فالنطفة أو البيضة تكون لا حياة فيها ، ثم تتطور إلى الشكل القابل للحياة ، ثم تكون فيها الحياة .. وإخراج الميِّت من الحي إخراج النطفة والبيض من الحيوان»[3] .

فالطاهر ابن عاشور لم يأخذ عن المفسرين إلا هذا القول ، وترك ما عداه كإخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، وكأنه لم يرتض تلك الأقوال التي أعرض عنها ، وهو على حق في ذلك .

والذي اعتمده الطاهر قول صحيح في جملته ، ولكن طريقة تفسيره لا تصح.

وابن عاشور وغيره اعتبروا النطفة والبيضة ميتتين وهذا هو مكمن الخطأ في التفسير ، وقد وجد بعض خصوم الإسلام مدخلاً للطعن في صدق القرآن بناء على هذا التفسير ، وقد أشار الشيخ يوسف الدجوي ـ رحمه الله ـ في فتاويه إلى بعض طعون هؤلاء الحاقدين[4] .

---

(١) تفسير أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي : (١٥٢/١) .

(٢) فتح القدير : (٣٨٠/١) ، للإمام الشوكاني (م ١٢٥٠ هـ) ، وقد ساق آثاراً منها أحاديث منسوبة للنبي ﷺ ولم ينص على صحتها .

(٣) تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور (١٥٦/١١) .

(٤) مقالات وفتاوى الشيخ يوسف الدجوي (٢٥/٢) وما بعدها ـ طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف .

ذلك أن العلم الحديث أثبت للنطفة وللبيضة حياة كاملة تليق بتركيب كل منهما ، فراح هؤلاء الحاقدون يحاولون أن يشككوا في صدق القرآن متخذين من التفسير المذكور مدخلاً لطعونهم على كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والواقع أن القرآن ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وهذه الطعون لا تصدق عليه ، فالقرآن لم يقل إن «الحي» هو الحيوان ، وإن الميت هو النطفة والبيضة ، وإنما هذه اجتهادات مفسرين ، وهم بشر يصيبون ويخطئون ، أما «النص القرآني» فهو فوق هذه التصورات «الاجتهادية» والأوهام الحاقدة ، والآن نعرض على القارئ المعنى الجديد الذي هُدينا إليه واطمأنت قلوبنا به ، وركنت نفوسنا إليه ، واقتنعت به عقولنا .

● المعنى الجديد :

عرفنا مما تقدم أن القرآن الحكيم استعمل كلمة «ميْت» في من كان حيًّا حياة حقيقية ثم مات موتًا حقيقيًّا ففارقت روحه بدنه .

وأنه استعمل كلمة «ميِّت» بتحريك الياء وتشديدها في مَنْ هو حي سيموت يومًا ما .

فإذا أخذنا بمنهج القرآن في هذا الاستعمال المطرد ـ ولا بد لنا من الأخذ به ـ كان معنى ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ هو توالد الأبناء من الآباء والأمهات ، أيًّا كانوا ، من بني آدم ، أو من غيرهم ، على أن حمله على الآدميين أظهر وأشهر .

الآباء والأمهات حين يتوالد عنهم أبناؤهم ـ ذكورًا وإناثًا ـ يوصفون حسب منهج القرآن الحكيم بأنهم (ميِّتُون) أي أحياء مصيرهم الموت .

والأبناء حين يتوالدون يصدق عليهم قطعًا أنهم (أحياء) ثم إن هؤلاء الأبناء لما كان مصيرهم مصير آبائهم وأُمهاتهم في أنهم أحياء مقضي عليهم بالموت ، فإنهم يصدق عليهم ما صدق على أصولهم ، فقال في شأنهم : ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ

﴿ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ، وهكذا يُحْكمُ الله سننه في عباده ، فليس منهم أحد خالدًا لا من كان عهده بالحياة أقدم ، وهم الآباء والأمهات ، ولا من كان عهده بالحياة أحدث ، وهم الأبناء ، فكلٌّ منهم يحمل وصفين ، وهما : حياة ثم موت لاحق.

وقدمت حياة الأبناء ﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ لأنهم أحدث حياة وأبقى ـ في الأغلب ـ من أُصولهم .

وقُدِّم موت الأصول ﴿ مِنَ ٱلْمَيِّتِ ﴾ على موت الفروع في الشق الثاني من الآية ﴿ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ ﴾ ؛ لأنه أسبق من موت الأبناء ـ في الأغلب ـ.

وهذا التكرار في الحي والميت والتقديم والتأخير فيهما يسميه البلاغيون « العكس والتبديل » .

هذا الفهم المنبثق من خصائص الاستعمال اللغوي في القرآن أولى بالاعتبار للأسباب الآتية :

أولاً : لأنه يسُدُّ منافذ الطعن في صدق التنزيل الحكيم ، ويُحْكم قبضة الدفاع عنه إحكامًا يستحيل على أهل الزيغ والهوى اختراقه .

ثانيًا : لأنه يليق بمقام التمدح الإلهي وجلال قدرته وبديع صنعه وحكمة تصرفه في خلقه ، وتَبدُّل أحوالهم .

ثالثًا : لأنه إجراء للدلالة اللغوية في القرآن في كلمتي : « الميْت » ، و« الميِّت» على نسق واحد في هذه الآيات الأربع والآيات الأخرى التي وردت فيها .

رابعًا : لأنه لا يمنع منه مانع قط ، فضلاً عما يتضمنه من مزايا وأولويات .

* * *

مَدَّ ـ أَمدَّ

مدَّ وأمدَّ لهمـا أصـول ثلاثيـة مشـتركة بينهمـا ، وهـي المـيم والـدال والـدَّال المدغمة فيها . ودلالتهما في اللغة أشار إليها الراغب ، فقال :

« وأكثـر مـا جـاء الإمـداد ـ يعـني أمـد ومصـدره ـ في المحبـوب والمـدُّ في المكروه »[1] .

هذا ما جزم به صاحب المفردات ، أي أن الفرق بين مدَّ وأمدَّ أن الأصـل في « مدَّ » مجيؤه في المكروه ، وقد يستعمل في المحبوب .

وأن الأصل في « أمدَّ » استعماله في المحبوب ، وقد يجيء في المكروه .

فإذا كان هذا هو منهج اللغة فيها ـ بوجه عـام ـ فمـا هـو مـنهج لغـة القـرآن فيهما ؟

هل هو كما قال الرغب ؟ أم لهما فيه شأن آخر ؟

والإجابة على هذا تتضح بعد التمثيل والنظـر ، فتعـال معـي إليهمـا في لغـة التنزيل الحكيم .

● **أمثلة « مَدَّ » :**

﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا** ﴾ (الرعد:٣)

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا** ﴾ (الفرقان:٤٥)

﴿ **وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ** ﴾ (الحجر:١٩)

﴿ **لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ** ﴾(الحجر:٨٨)، (طه:١٣١)

﴿ **كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا** ﴾ (مريم:٧٩)

---

(١) المفردات : (٤٩٥) .

﴿ قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّا ﴾ (مريم:٧٥)

﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴾ (الحج:١٥)

﴿ وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٌ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٍ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ (لقمان:٢٧)

﴿ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ (البقرة:١٥)

﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ ﴾ (الأعراف:٢٠٢)

﴿ وَإِذَا ٱلۡأَرۡضُ مُدَّتۡ ﴾ (الانشقاق:٣).

هذه اثنتا عشرة آية استُعمِلتْ فيها كلمة «المد» على صيغتي الفعل الماضي والمضارع ، وقد أسفر النظر في هذه الآيات أن القرآن الحكيم يفرق بين «مدَّ يمُدُّ» إذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان وبين مجيئها في سياق الحديث عن غير الإنسان .

فإذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان فإن دلالتها في هذا المقام مرتبطة بـ «المكروه» ، أو في «مقام الشر» ، وجاء ذلك في سبع آيات من الآيات المذكورة مضمومًا إليها آية «طه» المشار إليها في الهامش رقم (١) .

ومن هذا «المكروه» ما هو محرم ، وهو مد الأعين إلى ما متع الله به بعض عباده ؛ لأن من خُلُق المؤمن أن يرضى بما قسم الله له بعد الأخذ بالأسباب .

وهكذا بقية المواضع :

المد في العذاب ، المد في الضلال ، المد في الغي ، المد في الطغيان ، المد في الظنون المعادية للإيمان .

أما إذا جاءت في سياق الحديث عن غير الإنسان فإن القرآن يستعملها في «مقام المحبوب» أو مقام الخير مع العظة والاعتبار ، وجاءت على هذا النسق في خمس آيات ، والخير أو المحبوب فيها هو :

مدُّ الأرض وبسطها لنفع الناس وغيرهم .

مدُّ الظل وتحريكه وتعاقب الضياء بعده في نظام بديع .

مدُّ البحر بسبعة أبحر للفت النظر إلى سعة علم الله .

مـدُّ الأرض يـوم القيامـة فيحظـى الصـالحون برضـوان الله ويبـوء الطـالحون بالخسران ، فمنهج القرآن إذن في « مد » هو الآتي :

● منهج القرآن في « مدَّ » :

أولاً : اختصاصها بالمكروه أو الشر إذا جاءت مجراة على أوضاع الإنسان .

ثانيًا : اختصاصها بالمحبوب أو الخير إذا جاءت مجراة على غير الإنسان .

وما أشار إليه الراغب من قبل من مجيء « المد » في الخير والشـر مـع غلبـة الشر أو المكروه فيها كلام صائب إذا قارنَّا بين منهج القرآن ـ هنا ـ وبـين كـلام الراغب ، ولكن فاته هذا التفصيل الذي هدينا إليه من واقع لغة القـرآن نفسـها ، والتفرقة القرآنية بين « مد » حديثًا عن الإنسان ، و« مَدَّ » حديثًا عن غير الإنسـان جديرة بالتأمل لأنها من سمات الإعجاز فيه .

● أمثلة « أَمدَّ » :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ ﴾

(الشعراء: ١٣٢، ١٣٣).

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾ (الإسراء:٦) .

﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (الطور: ٢٢) .

﴿ فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَـٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ ﴾ (النمل: ٣٦) .

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ﴾ (الإسراء: ٢٠) .

﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٥٥، ٥٦) .

﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٢٥) .

﴿ وَيُمۡدِدۡكُم بِأَمۡوَٰلٖ وَبَنِينَ ﴾ (نوح: ١٢) .

﴿ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴾

(آل عمران: ١٢٤) .

﴿ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ ﴾ (الأنفال: ٩).

في هذه الآيات تكرر الفعل « أمدَّ ـ يُمِدُّ » عشر مرات ، واسم الفاعل منه « ممدكم » مرة واحدة ، وغير خاف أن القرآن الكريم استعمل كل هذه المواضع في مقام الخير ، أو في مقام « المحبوب » ، ولم يخرج موضع واحد منها عن هذا النَّسق .

وغير خاف ـ كذلك ـ أن جميع هذه المواضع وردت في سياق الحديث عن الإنسان مترددة بين الوَعْد الحسن ، والخبر الصادق ، ولم يشذ منها موضع واحد عن هذا الإطار .

● لماذا هذا الاختصاص :

قلنا إن « مدَّ » إذا استُعْمِل في القرآن في سياق الحديث عن الإنسان اختُص بالمكروه ، وأن « أمد » إذا جاءت في سياق الحديث عن الإنسان ـ ولم تأت في غيره قط ـ اختصت بالخير أو « المحبوب » فلماذا إذًا هذه التفرقة القرآنية بين « مدَّ » ، و« أمد » مُجْرَيَين على الإنسان ؟

والجواب :

أشار بعض علماء اللغة إلى أن « المدُّ » معناه الجر ـ أي السحب ـ أما « الإمداد » فمعناه الزيادة في الخير والتقوية من أمددت الجيش إذا عززته بقوة أخرى من الجند والسلاح .

وعلى هذا فإن القرآن في استعماله لـ « مَدَّ ـ أمد » راعى هذين المعنيين .

فكان « المد » فيه مهانة ، والإمداد كرامة ، والمد مصدر مدَّ ، والإمداد مصدر « أمد » .

أما ما ذكره الراغب من أن الأصل في « أمدَّ » الاستعمال في « المحبوب » ويقل استعماله في « المكروه » فهذا لا وجود له في لغة القرآن ، فكل مواضعه كانت في مقام « المحبوب »[1] .

- **منهج القرآن في « أمدَّ » :**

أولاً : قَصْرُ دلالتها على « المحبوب » أو الخير دائمًا .

ثانيًا : قَصْرُ استعمالها في سياق الحديث عن الإنسان .

ثالثًا : لم يرد منها شيء في مقام « المكروه » أو الشر .

* * *

---

(١) وليس للراغب دليل على قوله هذا في آيتي « المؤمنون » (٥٥،٥٦) المذكورتين في الهامش رقم (٦) في صفحة (١٢٦) لأن الإمداد بالمال والبنين مما تحبه النفوس حتى لو كان استدراجًا من الله للعصاة من عباده .

العمل ـ الفِعل

العمل والفعل يبدوان مترادفين على معنى واحد ؛ لأنهما شديدا التقارب ، وبعض اللغويين ذهب إلى أن الفعل أخص من العمل ، ودليله على هذا أن العمل يحتاج إلى قَصْدٍ وهدف عند التعامل ، ولذلك فإنه لا يُسْند إلى غير العاقل من الحيوانات أو الجمادات ، بينما الفعل يُسْند إلى العاقل وغير العاقل ، ويندر إسناد العمل لغير العقلاء ، وإنما كان العمل والفعل متقاربين في الدلالة ؛ لأنهما كنايتان عن صدور « حَدَثٍ » من « مُحْدِث » هذا هو « الأصل » الجامع بينهما .

وهاتان الكلمتان كثيرتا الاستعمال ـ وبخاصة عمل ـ في لغة القرآن الحكيم ، وقد رأينا القرآن في الكلمات التي درسناها من قبل ، رأيناه يستعمل مفردات اللغة استعمالاً أمثل موسومًا بالإعجاز والتفرد ، جاريًا على سنن العرب في طرائق البيان المختلفة ، موظفًا اللغة ـ مفردات وتراكيب ـ توظيفًا يسمو فوق أفصح الأساليب التي عُرِفت عنهم ، وفوق أبلغ ما أُثر عنهم من نماذج البيان الناصع والكلام المحكم .

وسيرًا على المنهج الذي انتهجناه من قبل في دراسة مفردات اللغة المستعملة في القرآن ، واستخراج ما فيها من أسرار لاحت ، ودقائق إعجازية ظهرت سيرًا على هذا المنهج نمضي مع « عمل » ، و« فَعَل » في القرآن ، وننظر إلى ما يسفر عنه النظر فيهما .

• أمثلة « عَمِل » :

مادة « عمل » من أكثر المواد استعمالاً في لغة القرآن والإحاطة بها ـ هنا ـ عزيزة المنال ، فلنذكر بَعْضًا من مواضع ورودها بقدر ما يُسْعفنا بالتعرف على أبرز سمات المنهج القرآني فيها :

﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾
(البقرة: ٦٢)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾
(النحل: ٩٧)

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾ (غافر: ٤٠)

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ (آل عمران: ٣٠)

﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (النحل: ١١١)

﴿ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف: ٤٩)

﴿ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة: ٨٥)

﴿ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ﴾ (النحل: ٢٨)

﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾
(النساء: ١٢٣)

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾
(الأنعام: ١٣٥)

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴾
(يس: ٧١).

النظر في هذه الآيات ـ بمختلف صيغها يسفر عن الحقائق الآتية :

* أن القرآن يستعمل مادة (ع م ل) في جانبي الخير والشر ﴿ **مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا** ﴾ ـ ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ** . . . ﴾ ـ ﴿ **مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً** ﴾ ـ ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ** ﴾ .

* أن استعمال القرآن لها في جانب الخير أضعاف استعمالها في جانب الشر ، وبخاصة الفعل الماضي منها ، حيث أُوقع بكثرة لا مثيل لها على «**الصالحات**».

* يذكر معمولها بكثرة إذا كانت فِعْلاً ماضِيًا ، ويحذف ذلك المعمول بكثرة مماثلة ، إذا كانت فعلاً مضارعًا ، مثل قوله تعالى : ﴿ **وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ** ﴾ .

* يستعملها ـ أحيانًا ـ شاملة لجانبي الخير والشر ، كقوله تعالى : ﴿ **وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ** ﴾ .

* يستعملها كثيرًا في مقام التهديد إذا كانت فعل أمر ، كقوله تعالى : ﴿ **قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ** ﴾ .

* ومن اللافت للنظر أن هذه المادة على كثرة ورودها في القرآن لم يأت منها موضع واحد أُسِندَتْ فيه إلى اسم الجلالة ـ الله ـ أو اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو إلى ضمير عائد على اسم من أسمائه الكريمة ، وإنما جاءت مسندة إليه بواسطة « الأيدي » ، في قوله تعالى :

﴿ **أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا خَلَقۡنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتۡ أَيۡدِينَآ أَنۡعَٰمًا فَهُمۡ لَهَا مَٰلِكُونَ** ﴾ .

مع ملاحظة مهمة ، وهي :

أن هذا الإسناد غير المباشر جاء في حيز الفعل « خلقنا » ، وهو « عمدة الجملة » بلا نزاع .

* أن القرآن الحكيم خلا خُلُوًّا تامًّا من إسناد أي فعل من هذه المادة إلى أسماء الله إسنادًا مباشرًا ، كما خلا من إسنادهما إلى أي ضمير يعود عليها . وهذا مما يدعو إلى التأمل والتفكير.

● **ولماذا خلا ؟**

كلام الله مُحْكم كفعله ، ولا بد أن يكون لخلو القرآن من إسناد « عمل ـ يعمل » إلى اسم من أسمائه المباركة ، أو ضمير عائد على شيء منها ، لا بد أن يكون لذلك من حكمة ، فما هي يا ترى ؟

والجواب :

العمل ـ كما قال بعض أهل العلم ـ يحتاج إلى تفكر ومقارنة بين الفعل والترك ، وتقليب النظر في صوره واختيار ما يهدي إليه النظر فيها ، والله سبحانه ـ لا يخفى عليه شيء ولا تلتبس عليه الأُمور ، هذه واحدة .

والثانية : أن العامل قد يعمل له غيره ، والله غني عن العالمين .

والثالثة : أن العامل يعمل ليحصل على ثمرة عمله من خير هو فقير إليه ، والله أغنى الأغنياء .

لهذه المحظورات ـ والله أعلم ـ خلا القرآن من إسناد (عمل ـ يعمل) إلى أسماء الله الحسنى ، تقديسًا له وتنزيهًا ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد .

● منهج القرآن في «عَمِل» :

أولاً : الإكثار من استعمالها في المحبوب وقلة استعمالها في المكروه .

ثانيًا : خلوه من الإسناد المباشر لله أو أي اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو أي ضمير عائد عليها تنزيهًا له وتقديسًا .

ثالثًا : مجيؤها ـ أحيانًا ـ شاملة للخير والشر في صيغة واحدة ، وبخاصة في الفعل المضارع الواقع في فواصل الآي .

● أمثلة «فَعَل» :

فعل كعمل في استفاضة ورودها في القرآن الحكيم ، وسنسلك في التمثيل لها ما سلكناه في «عمل» بقدر ما يمكننا من الوقوف على منهج القرآن الحكيم فيها :

﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (النحل:٣٣)

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ (آل عمران:١٣٥)

﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ (المائدة: ٧٩)

﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ (البقرة: ١٩٧)

﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ (النساء: ١٢٧)

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الحج: ٧٧)

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾

(الانفطار: ١٠-١٢)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (النحل: ٩١)

﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة: ٢٥٣)

﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ (آل عمران: ٤٠)

﴿ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ (المرسلات: ١٨)

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم: ٤٥)

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ (الفيل: ١)

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾

(الأنبياء: ٧٩).

الآيات الأربع عشرة التي تقدمت، ترسم لنا بكل وضوح ملامح المنهج القرآني في استعمال مادة (ف ع ل) والقارئ الكريم يستطيع أن يستشف تلك الملامح إذا أنعم النظر في هذه الآيات.

* وغير خاف أن القرآن يستعمل صيغ «فعل» في مجالي المحبوب والمكروه، أو الخير والشر مثلما جاءت فيه مادة «عمل» من قبل.

ففي الخير ـ مثلاً ـ كان قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ ﴾، وفي الشر: ﴿ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً ﴾.

* جاءت «فعل» ومشتقاتها مسندة إلى غير الله كثيراً ، وهي التي تتردد بين مجالي الخير والشر، أو المحبوب المرغَّب فيه ، والمكروه المنفَّر منه .

* وجاءت مسندة إلى «الله» وبعض أسمائه الحسنى «رب» كما جاءت مسندة إلى ضمير اسم الجلالة ﴿ **كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ** ﴾ .

* ما أُسْنِد منها إلى اسم «الجلالة» أو «رب» أو إلى ضمير عائد عليه شمل الفعلين الماضي والمضارع ، ثم اسم الفاعل : ﴿ **وَكُنَّا فَٰعِلِينَ** ﴾ ، وصيغة المبالغة ﴿ **فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ (هود:١٠٧).

* والمسند منها إلى «الله» و«رب» واسمي الفاعل والمبالغة على ضربين :

الأول : التمدح بجلال الله ﴿ **ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ** ﴾ .

الثاني : التهديد والاعتبار : ﴿ **كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ** ﴾ ، ثم : ﴿ **وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ** ﴾ ، و﴿ **وَحِيلَ بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ مَا يَشۡتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشۡيَاعِهِم مِّن قَبۡلُ** ﴾ (سبأ:٥٤).

أو الاعتبار فحسب ، مثل قوله تعالى :

﴿ **مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾ .

* خلو المسند إلى الله من المادة من فِعْل الأمر لاستحالة وجود من يأمره ، وهو العلي العظيم ، حتى على سبيل الدعاء مع ورود مثله في ﴿ **ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ** ﴾ لأن فعل الأمر المستعمل (قرآنيًّا) في الدعاء متعلقه مخصوص كطلب الهداية ، والنصر ، وغفران الذنوب ، وهذا إلا يتأتى في «افْعَل» لعموم معناه .

وكما خلا من «فعل الأمر» وإن كان على سبيل الدعاء خلا من المضارع المنهي عنه «لا تفعل» حتى على سبيل الدعاء كذلك ؛ لأن علة امتناع الأمر «افْعَل» هي علة امتناع «لا تفعل» تنزيهًا لله وتقديسًا ، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد ، هكذا نزل القرآن مُحْكمًا بريئًا من المآخذ لأنه نزل بعلم الله .

• منهج القرآن في «فَعَلَ» :

أولاً : استعمال «فَعَلَ» في مجالي الخير والشر إذا أسندت إلى غير الله .

ثانيًا : مجيؤه مسندًا إلى «الله» و«رب» والضمير العائد عليه في صيغ الفعلين الماضي والمضارع واسم الفاعل وصيغة المبالغة .

ثالثًا : ما جاء مسندًا إلى «الله» منها إما للتمدح بجلال الله ، أو للتهديد مع العظة والاعتبار ، أو الاعتبار فقط .

رابعًا : لم يأت منه مسندًا إلى «الله» فعل أمر ولا نهي وإنْ على سبيل الدعاء تقديسًا لله وتنزيهًا ، ورعاية لواجبات عقيدة التوحيد .

• لماذا المنع هناك والجواز هنا ؟

في مادة «ع م ل» عرفنا خلو القرآن من إسنادها إلى «الله» أو اسم آخر من أسمائه الحسنى ، أو ضمير عائد عليه ، كما عرفنا سبب ذلك الخلو .

أما «فَعَلَ» فقد أُسندت إلى «الله» مرات ، والسبب ـ فيما نعتقد ـ انتفاء الموانع التي لوحظت في «عمل» ، ومن أبرزها أن الفعل هو ما صدر عن الفاعل مباشرة بدون واسطة .

وأن أفعال الله صادرة عن قوة سلطانه ، والفعل ـ كما قال اللغويون : لا يحتاج إلى تفكير وطول نظر بل الشأن فيه أن يصدر ابتداء .

لذلك ـ وغيره ـ امتنع إسناد «عمل» إلى «الله» وجاز إسناد «فعل» إليه ؛ لأنه من صفات الكمال والجلال والجمال .

* * *

الجِهَادُ ـ القِتَالُ

الجهاد والقتال كلمتان ثقيلتان الوزن إذا كانا في سبيل الله وأُدّيا بخلوص النية ، وصدق العزم ، وبرآ من الأهواء ، ووقعا موقعهما من الصحة والصواب ؛ ولغة القرآن حفلت بالأمر بهما ، والترغيب فيهما ، وجزيل المثوبة عليهما ، وهما ـ وإن اتحد موضوعهما ـ ليسا بمعنى واحد من كل الوجوه ، بل بينهما فرق جليٌّ كما ينبئ عنهما استعمال القرآن لهما ، ذلك الفرق نتبينه من النظر في النماذج القرآنية الآتية :

● **أمثلة «الجهاد» :**

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ (التحريم:٩)

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ مِنكُمْ ﴾ (التوبة:١٦)

﴿ وَمَن جَـٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَـٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾

(العنكبوت:٦)

﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَـٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (النساء:٩٥)

﴿ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ﴾ (المائدة:٥٤)

﴿ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ﴾

(العنكبوت:٨)

﴿ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ (الحج:٧٨)

﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ (الفرقان:٥٢)

﴿ وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٞ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٤١).

الجهاد في سبيل الله هو تحمل المشاق في نصرة دين الله ودحر الباطل سواء كان باللسان أو بالمال أو بحمل السلاح ومقاتلة العدو إذا وجب القتال .

ويشمل الجهاد كل عمل يؤديه المؤمن من شأنه إعلاء كلمة الله ، فيجاهد المؤمن نفسه لتنأى عن المعاصي والمنكرات ، ويجاهد غيره فيدعوهم إلى القيام بواجباتهم الدينية والدنيوية ، آمرًا بالمعروف ، ناهيًا عن المنكر ، داعيًا إلى الخير .

ووسائل هذا الجهاد أكثر من أن تُحصى :

خطبة تُؤَدَّى ، أو محاضرة تُلْقى ، أو مقالة تُنشر ، أو إصلاح بين الناس أو مال تُسَدُّ به حاجات المعوزين ، أو كتاب يتصدى لدعاوى المارقين أو تعليم لبث الوعي ، أو مرض يعالج ، أو استعمار يُقَاومَ ، أو مساجد تُشاد ، أو مستشفيات ، أو ملاجئ أيتام تقام .

والقتال في سبيل الله أسمى مراتب الجهاد ، وله دواعٍ خاصة به ، وأسباب تقتضيه ، بيد أن الجهاد أوسع دائرة من القتال ، لأن الجهاد هو الجهد المبذول بإخلاص بغية إعلاء كلمة الله .

دليل ذلك أن الله سمَّى إلحاح الوالدين على ولدهما ليشرك بالله مجاهدة ، وهما لا يحملان على ولدهما سلاحًا .

كما سمى إقامة الحجة على «الكافرين» بالقرآن ، ومجادلتهم به جهادًا ، ﴿ وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ﴾[1] .

ولما كان الجهاد أوسع دائرة من القتال فإنه يصدق على نشاطات الدعوة كلها ، وله في لغة القرآن ضوابط منظمة هي :

---

(١) انظر «تفسير النسفي» (٣/١٧١) .

* أن يكون في سبيل الله لا في أغراض أخرى عصبية أو شخصية .

* أن يكون لإعلاء كلمة الله ابتغاء مرضاة الله مع خلوص النية والتجرد .

* أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

• منهج القرآن في «الجهاد» :

أولاً : اتساع دائرته بما يشمل نشاطات الدعوة كلها ، ووسائله لا تكاد تُحصى ، وعلى كل فرد في الأمة عبء منه حسب مقدرته وميدان عمله في المجتمع .

ثانيًا : أن يكون عملاً واعيًا ومخلصًا مرادًا به وجه الله ولإعلاء كلمته في كل شأن من شئون الحياة .

ثالثًا : أن يكون بالحكمة ، والموعظة الحسنة .

• أمثلة القتال :

إذا كان الجهاد مشتقًّا من «الجهد» وهو المشقة ، فإن القتال مشتق من القتل ، أو مرادف له في الدلالة مع أعمية «القتال» و«أخصية» القتل .

ومن أمثلة «القتال» في القرآن الآيات الآتية :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١)

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (آل عمران: ١٥٧)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ

خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٦٩-١٧١)

﴿ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٥)

﴿ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

(النساء:٧٤)

﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة:١٩٠)

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(البقرة:٢١٦)

﴿ وَقَـٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ (التوبة:٣٦)

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾

(الصف:٤).

هـذه الآيات بـعـض مـن حديث القرآن عـن القتال وفضله ، وقداسته ، وهـو ـ كما سبق ـ أسمى درجات الجهاد ، لهذا نجـد القـرآن يبـدئ ويعيـد في فضـله والجزاء الحسن الجميل الذي أعده الله للمقاتلين ، سـواء قتلـوا فــي سـبيل الله ، أو حققوا الغلب على العدو ، وأعْلَوْا كلمة الله خفاقة في الآفاق .

ونلحظ تفاوتًا كبيرًا في المثوبة على مجرد الجهـاد ، والمثوبـة علـى خـوض غمار المعارك ، لما فيه من تعريض النفس للأخطار ـ وكُلا وعد الله الحسنى ـ.

وللقتال في القرآن ضوابط ، كما كان للجهاد ضـوابط ، إلا أن ضـوابط القتـال أكثر حيطة ، وأشد إحكامًا ، لأن القتـال فيـه إزهـاق لـلأرواح ، وإسـالة للـدماء

فكان لا بد فيه من «ضمانات» تكفل العدالة، وتصون الحقوق، وترعى الحرمات.

هذه الضوابط منها ثلاثة جاءت مجموعة في آية واحدة:

﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾.

فهو أولاً: لا يكون إلا في إعلاء كلمة الله، وهذه عبارة جامعة لمعان كثيرة.

وهو ثانيًا: لا يكون إلا مع الذين يقاتلوننا فِعلاً أو عزمًا مؤكدًا.

وهو ثالثًا: مشروط بعدم الاعتداء والتجاوز.

وورود كلمتي «الجهاد» و«القتال» في لغة القرآن مبدآن تنظيميان للحفاظ على الحقوق ورعاية الحرمات، ونصرة الحق، ودحر الباطل، الجهاد يؤدي دوره في الداخل بالحكمة والموعظة الحسنة، والقتال يدفع الأخطار الخارجية، ويصد أي عدوان يمس رسالة الأمة، أو يهدد أمنها، كلاهما ـ الجهاد والقتال ـ صماما الأمن العام والخاص، ولكل عدوان سلاح يليق به، فإذا لم تحقق الوسائل السلمية الأهداف، فلا مناص من شهر السلاح حتى يحكم الله بيننا وبين الخصوم.

• منهج القرآن في «القتال»:

أولاً: هو ضرورة تدعو إليها ظروف لا يُجدي فيها إلا حملُ السلاح.

ثانيًا: هو أخص من «الجهاد» المرادف لـ«الدعوة» وأسمى درجات الجهاد.

ثالثًا: يحيطه القرآن بـ «ضمانات» محكمة لئلا يترتب عليه ظلم أو قتل بريء.

رابعًا: أجره عند الله أعظم من «مجرد الجهاد» بالوسائل السلمية لما فيه من أعباء جسام، وتعريض النفس لأقدح الأخطار.

خامسًا: أن يكون لإعلاء كلمة الله، ونصرة الحق، ودحر الباطل، وتأمين الحقوق، ورعاية الحرمات، وتحقيق الأمن خارجيًّا وداخليًّا.

* * *

المُخْطِئ ـ الخَاطِئ

تشترك هاتان الكلمتان في ثلاثة أصول ، هي : الخاء ، والطاء ، والهمزة ، ولكل منهما بعد هذا الاشتراك تصريفاتها اللغوية ، بل ودلالتها الخاصة بها ، وللغويين آراء متباينة حول المعاني التي تدلان عليها ، فمنهم من يسوي بينهما في الدلالة ، وممن يسوي بينهما في الدلالة أبو عبيدة ، فهما عنده بمعنى واحد هو « ضد الصواب »[1] ، أي أن أخطأ وخطئ سواء .

ومنهم من قال : خطئ في الدين ـ أي في أمور الدين ، وأخطأ عام في كل شيء عَمْدًا كان أو غير عمد[1].

أما لغة القرآن فإن لكل كلمة منهما معنى خاصًّا بها ، ولم تأت واحدة منهما مكان الأخرى .

وسنخالف المنهج الذي اتبعناه من قبل بعض المخالفة ، فنذكر أمثلة الكلمتين تباعًا ثم ننظر ما تدل عليه كل منهما .

- **أمثلة « أخطأ » :**

أخطأ اسم الفاعل منها « مخطئ » ، و« خَطِئَ » اسم الفاعل منها « خاطئ » ، أما مصدر الأولى فهو في الأصل : « إخطاء » كأرسل « إرسال » ، ولكن القرآن لم يستعمله ، بل استعمل اسم المصدر « خطأ » ، ولم يستعمل منه اسم فاعل ، وعلى هذا يجري التمثيل :

﴿ **رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا** ﴾ (البقرة:٢٨٦) .

﴿ **وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ** ﴾ (الأحزاب:٥) .

---

(١) المصباح المنير : (١٧٤) .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ (النساء:٩٢) .

﴿ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ ﴾

(النساء:٩٢).

هذا كل ما ورد في القرآن من « أخطأ » فِعْلاً ومَصْدرًا .

- **أمثلة « خَطِئَ » :**

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴾ (الحاقة:٣٦،٣٧) .

﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٢٩) .

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩١) .

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴾ (يوسف:٩٧) .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَـٰطِـِٔينَ ﴾ (القصص:٨) .

﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ (الإسراء:٣١) .

﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾

(العلق:١٥،١٦) .

﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ (الشعراء:٨٢) .

﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا ﴾ (طه:٧٣).

إن ما يسفر عنه النظر في هذه الآيات هو الحقائق الآتية :

* جاءت صياغات « خطئ » كثيرة التنوع بالنسبة لصيغ أخطأ ، فهناك لم يأت إلا الفعل (الماضي) ثم اسم المصدر ، أما هنا فجاءت اسمًا واسم فاعل مذكر ومؤنث ، كما جاءت مصدرًا ، واسم الفاعل جمعًا ومفردًا .

* أن القرآن يفرِّق بين دلالتي الكلمتين تفرقة دقيقة في كل صورهما .

فـ « أخطأ » معناها : جانبه الصواب سواء كان الخطأ مقصودًا أو غير مقصود ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ .

أما «خطئ» وجميع صورها فمعناها : أثم ، أو ارتكب إثمًا ، وهذا ظاهر جدًّا ، خذ إليك ـ مثلاً ـ قوله تعالى :

﴿ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴾ ، أي : «الكافرون أصحاب الخطايا ، وخطِئَ الرجل إذا تعمد الذنب»[1] .

وقول العزيز لامرأته التي راودت يوسف عن نفسه ، ﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ ، أي : المذنبين الآثمين .

وقول إخوة يوسف ـ عليه السلام ـ ﴿ وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴾ ، أي آثمين حين ألقوا يوسف في البئر وكذبوا على أبيهم وزعموا أن الذئب أكله وهم عنه غافلون .

وقوله تعالى في النهي عن قتل «الأولاد» خشية الفقر : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴾ .

إذن فقول بعض اللغويين أن «أخطأ» و«خطئ» بمعنى واحد فيه غفلة وبُعْد عن الصواب .

وكذلك ما نراه شائِعًا ـ الآن ـ في وسائل الإعلام وفي كتابات كثير من أصحاب الأقلام ، حيث يستعملون «خاطئ» و«خاطئون» مكان «مخطئ» ، و«مخطئون» ولو كان الأمر كما يقولون ـ في الواقع ـ لما التزم الكتاب العزيز كلمة «خطئ» وصورها في الدلالة على «الإثم» و«أخطأ» في الدلالة على مجانبة الصواب .

• منهج القرآن في «أخطأ» و«خطئ» :

أولاً : التفرقة الواضحة بين «دلالتيهما» ، فالأولى بمعنى مجانبة الصواب ، سواء كان «الخطأ» مقصودًا أو غير مقصود ، والخطأ المقصود إثم ولكن باعتبار القصد والنية ، وهي أمر نفسي خفي ، لا من حيث دلالة اللفظ .

---

(١) تفسير النسفي : (٢٨٩/٤) .

والثانية بمعنى الإثم والذنب ، وكل صـورها في القـرآن تـدل دلالـة واضـحة على هذا المعنى .

ثانيًا : « خطئ» أكثر استعمالاً وصورًا في لغـة القـرآن ، وأكثـر تصـرفًا مـن « أخطأ » .

ثالثًا : اختصاص « أخطأ » بمقـام التشـريع مـدنيًّا وجنائيًّـا (الأيمـان ـ القتـل الخطأ) .

أما « خطِئ» فمختصة بمقام السلوك الإنساني عقيدة ، وأخلاقًا، وسيرة .

هذه الدقة في استعمال مفـردات اللغـة ، الـتي تلـوح لنـا مـن خـلال دراسـتنا لبعض مفردات لغة القرآن ، هذه الدقة التنظيمية العجيبة وجه عظيم مـن وجـوه الإعجاز البلاغي للقرآن العظيم ، وحقًّا إنه أنزل بعلم الله المحيط .

* * *

غفر ـ كفَّر

هاتان الكلمتان : غفر ـ كفَّر . يكاد استعمالهما أن يكون مقصوراً على لغة القرآن ، فإن لهما فيه وبخاصة غفر ـ لشأنًا عظيمًا ، والسبب في قلة استعمالهما في غير القرآن أن معناهما والوصف بهما من المعاني والأوصاف العلية التي يستأثر بها الله نفسه إلا ما ندر ، وإسنادهما والوصف بهما يتطلبان في المسند إليه والموصوف اعتبارات ليس لها وجود حقيقة إلا في العلي القدير . فإن أُسْنِدَ منهما شيء أو وصف بهما ـ غير الله ـ ففيه شيء من التسامح أو التجوز .

والذي نريده من دراسة هاتين الكلمتين في القرآن هو استخراج منهج القرآن فيهما ، وهل هما بمعنى واحد أم أن لكل كلمة منهما معنى ؟

ثم الدقائق واللطائف في استعمال القرآن لهما ، وقبل الأخذ في التمثيل والنظر نلفت نظر القارئ إلى ورود هاتين الكلمتين ـ وصورهما ـ له في القرآن ثلاث طرائق :

الأولى : أن يُذكْرَا معًا في سياق واحد .

الثانية : أن تذكر « كفر » في سياق مستقل .

الثالثة : أن تذكر « غفر » في سياق خاص بها .

فلنسر في التمثيل لهما على هذا النسق ، وبالله ومنه التوفيق ، وبَدَهي أننا لن نتقيد في التمثيل بصيغتي الفعل الماضي (غفر ـ كفَّر) بل سنمثل لكل صورهما الواردة بقدر ما تسنح لنا فرصة الوقوف على منهج القرآن فيهما .

● ورودهما في سياق واحد :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الأنفال: ٢٩).

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران:١٩٣) .

في هاتين الآيتين جُمع بين « غفر ـ كفَّر » في سياق واحد مع ملاحظة أن « غفر » خُصَّت بالذنوب ، و « كفَّر » خُصَّتْ بالسيئات .

● ورود « كفَّر » وحدها :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (محمد:٢).

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَـٰهُمْ جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ (المائدة:٦٥).

﴿ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ (آل عمران:١٩٥).

﴿ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ﴾ (المائدة:١٢).

﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ (النساء:٣١).

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (العنكبوت:٧).

﴿ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ (البقرة:٢٧١).

﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ (الزمر:٣٥).

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ (الفتح:٥).

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (التغابن: ٩).

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴾ (الطلاق: ٥).

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ﴾ (التحريم: ٨).

﴿ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ﴾ (المائدة: ٤٥) .

﴿ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ (المائدة: ٨٩).

﴿ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾ (المائدة: ٨٩).

هذه مواضع ورود « كفَّر ـ يكفر ـ كفارة » ، منها اثنتا عشرة مرة جاءت فيها فعلاً ماضيًا أو مضارعًا أو أمرًا (دعاء) ، وثلاث مرات جاءت فيها اسمًا « كفَّارة » ، ونلاحظ أن ما جاء منها كان مفعوله « السيئات » أو « أسوأ » مثلما كانت « السيئات » مفعولها ـ كذلك ـ في الموضعين اللذين جُمع فيهما بينها وبين « غفر » .

وهذا من أبرز خصائص منهج القرآن في « كفَّر » حيث لم ترد فيه معدَّاة إلى غير « السيئات » كما أنها لم تأت ـ ولا في موضع واحد ـ محذوفة المفعول أو منزَّلة منزلة اللازم غير المعدى هذه واحدة .

أما الثانية : فإن « كفَّر ـ يكفِّر ـ كفِّرْ » ليس لها فاعل في لغة القرآن إلا الله ، فهي مسندة إليه دائمًا ، إما إلى لفظ الجلالة « الله » ، أو إلى ضمير عائد عليه في الأفعال الثلاثة :

﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ـ ﴿ وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ ـ ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا ﴾ ـ ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ .

والثالثة : أنها جاءت ـ دائمًا ـ مقرونة بحرف الجر مجرورًا به ضمير « عنهم » أو « عنكم » أو « عنه » مع أنها فعل يتعدى بنفسه ولا يحتاج واسطة ، ولهذا مغزى بلاغي عظيم ، وهو إظهار الامتنان على المتحدَّث عنهم والتفضل عليهم بنعمة الله .

وزَان ذلك أن قول أحدنا : « أدَّيْتَ دَيْن فلان » ، غير قوله « أدَّيْت عن فلان دَيْنه » ففي « عنه » إظهار لبراءته وتحمل الغرم عنه ، أما العبارة الأولى فتخلو من هذه اللطيفة الحانية .

والرابعة : أن ما جاء منها فعلاً اختص بمقام الوعد الحسن ، إلا موضعًا واحدًا جاء في مقام « الدعاء » ﴿ وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا ﴾ .

أما ما جاء اسمًا ، فهو مختص بمقام التشريع كما هو ظاهر .

• منهج القرآن في « كَفَّرَ » :

أولاً : تخصيصها بـ « السيئات » أو « أسوأ » دائمًا .

ثانيًا : قصرُها على « الله » دون غيره من الفاعلين .

ثالثًا : اقترانها ـ دائمًا ـ بحرف الجر « عن » ومجروره ضمير المتحدث عنهم جمعًا وإفرادًا ، خطابًا وغيبة .

رابعًا : إذا كانت فعلاً مضارعًا أو ماضيًا اختصت بمقام الوعد الحسن ، وإذا كانت فعل أمر اختصت بمقام الدعاء .

خامسًا : ما جاء منها اسمًا اختص بمقام التشريع .

سادسًا: التزام تعديتها إلى مفعول ، ولم ترد بمنزلة اللازم قط .

سابعًا : قصرُ استعمالها على الأفعال والأسماء ، ولم يأت منها اسم فاعل « مكفِّر » ولا اسم مفعول « مكفَّر » ولا صيغة مبالغة « كفَّار » إلخ .

ثامنًا : شَفْعُ الوعد بها بوعد حسن غيرها كإصلاح البال في « محمد » وإدخال الجنات في « المائدة » و« آل عمران » ، والجزاء الحسن في « العنكبوت » وإعظام الأجر في « الطلاق » .

وهكذا جميع مواضع ورودها فِعْلاً ، حيث لم يخلُ موضع واحد منها من إنعام الله عن المتحدث عنهم .

تاسعًا : قلة ورودها بالنسبة لنظيرتها « غفر » عددًا وصيغًا .

• «غَفَر» وحدها :

مادة «غ ف ر» كثيرة الاستعمال في لغة «القرآن» عددًا وصيغًا، وسبيلنا معها التمثيل لصورها لا الاستقصاء لتعذره هنا، ومنهجنا في التمثيل لها سيكون على النسق الآتي :

* الماضي متعديًا ومنزلاً منزلة اللازم .
* المضارع متعديًا ومنزلاً منزلة اللازم .
* الأمر متعديًا ومنزلاً منزلة اللازم .
* ثم الصور الأخرى غير الفعلية .
* إسنادها لغير الله .

• الماضي متعديًا ولازمًا :

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ (ص:٢٥).

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ﴾ (القصص:١٦).

﴿ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾ (يس:٢٦،٢٧).

• المضارع متعديًا ولازمًا :

﴿ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ (البقرة:٥٨).

﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران:٣١).

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ (آل عمران:١٣٥).

﴿ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (النور:٢٢).

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (الفتح:١٤) .

• الأمر متعديًا ولازمًا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا ﴾ (آل عمران:١٤٧).

﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ﴾ (البقرة:٢٨٦).

● **الصيغ غير الفعلية :**

﴿ **وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ** ﴾ (طه:٨٢) .

﴿ **فَقُلۡتُ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا** ﴾ (نوح:١٠) .

﴿ **غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ** ﴾ (غافر:٣).

﴿ **إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** ﴾ (القصص:١٦).

﴿ **قَوۡلٌ مَّعۡرُوفٌ وَمَغۡفِرَةٌ خَيۡرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتۡبَعُهَآ أَذٗى** ﴾ (البقرة:٢٦٣).

﴿ **وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ** ﴾ (البقرة:٢٨٥).

● **إسنادها إلى غير «الله» :**

﴿ **قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ** ﴾ (الجاثية:١٤).

﴿ **وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ** ﴾ (الشورى:٣٧).

﴿ **وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التغابن:١٤) .

﴿ **وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ** ﴾ (يوسف:٢٩).

﴿ **وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ** ﴾ (آل عمران:١٣٥) .

الآيات المذكورة شملت الصيغ الواردة من «غفر» في القرآن الحكيم .

أفعالاً متعدية ولازمة ، وصفات مشتقة ، ومصادر وأسماء ، والنظر في هذه الآيات ـ جميعها ـ يسفر عن الحقائق الآتية :

* هذه المادة «غ . ف . ر» أكثر استعمالاً ـ عددًا وصيغًا من مادة «ك . ف . ر» في لغة القرآن .

* ما كان منها فعلاً جاء متعديًا ولازمًا لم يذكر له مفعول على خلاف ما كان عليه الحال في «ك. ف . ر» حيث لم يأت منها لازم .

* بعض مواضعها الفعلية أسندت إلى غير «الله» بينما لم يُسْنَد من «كفَّر» شَيء إلى غير الله .

* لم تُسَلَّط «غفر ـ يغفر» على «السيئات» مفعولاً لها قط، بل كان مفعولها «الذنوب» أو «الخطايا» مع التزام إضافتهما إلى «الضمائر» خطابًا وغيبة وتكلما، فإن لم تكن إضافة ناب التعريف بـ «أل» عنها في «الذنوب» دون «الخطايا» مثل:

﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، و﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾

(الزمر:٥٣).

* ما جاء منها مع السين والتاء فعلاً ومصدرًا التزم القرآن إسناده أو إضافته إلى غير «الله»، مثل: ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾، و﴿ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ﴾، و﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ ﴾

(التوبة:١١٤).

ومثل:

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (التوبة:١١٣).

* وسر هذا الالتزام أن السين والتاء للطلب: أي طلب المغفرة، وهذا من صفات المخلوقين لا من صفات «الخالق» عَزَّ وجَلَّ وهذا ـ ونحوه ـ من احتراسات البلاغة القرآنية البديعة، ومن لطائف التنزيل المحكم من سمات التقديس والتنزيه.

• لماذا اختصت «كفَّر» بالسيئات؟

عرفنا أن «كفَّر» ليس لها مفعول إلا «السيئات»، وأن «غفر» لم تُسَلَّط على «السيئات» بل على «الذنوب» و«الخطايا» ولم يأت في لغة القرآن: اغفر لي سيئاتي قط، فهل لهذا الاختصاص من سر؟

لقد حاولنا فهم هذا السر، والذي هدينا إليه أن المعاصي نوعان:

الأول: نوع تصح التوبة منه بالإقلاع عن الفعل والعزم على عدم العودة إليه، والندم على ما وقع منه، وهو الغالب على المعاصي.

الثاني : نوع تتوقف التوبة فيه على « غُرْم مالي » ، أو « جَهْد بـدني » المعبَّـر عنهما في الفقه بـ « الكفَّارات » مثل :

القتـل الخطـأ ، والظهـار مـن الزوجـات ، والحنـث في الأيمـان ، والإفطـار المتعمد بلا عذر في نهار شهر رمضان ، ومخالفات مناسـك الحـج ممـا ينجـبر بالـدم أو الفديـة ، وجـزاء الصـيد حـال الإحـرام ، ورد المظـالم إلى أصـحابها ، ووطء الحائض والاقتصاص من الظالم للمظلوم .

فالتوبة في النوع الأول يسيرة ، وفي النوع الثاني عسيرة ، لأنها تتوقـف علـى عملين :

* عزم وإقلاع وندم .

* غُرْم مالي أو جهد بدني .

لذلك ـ والله أعلم ـ تسمى المعاصي من النوع الثاني « سيئات » والعفو عنها « تكفير » .

وتسـمى المعاصـي مـن النـوع الأول « ذنـوب » أو « خطايـا » والعفـو عنهـا « غُفران » .

والله تعالى « ذو الطول » إذا صدقت التوبة من العبـد كفَّـر عنـه معاصـيه بـلا غرم مالي ولا عناء بدني ، وغفر له ذنوبه ما لم يكن مشركًا ظل على إشراكه .

هذا ما لاح لنا من الفروق بين السيئات والذنوب والتكفير والغفران ، وفـوق كل ذي علم عليم.

● منهج القرآن في «غَفَر» :

أولاً : كثرة استعمالها وتعدد صورها .

ثانيًا : ورود بعض أمثلتها مسندة إلى غير « الله » ـ عَزَّ وجَلَّ ـ .

ثالثًا : اختصاصها بـ « الذنوب » و« الخطايا » .

رابعًا : ورودها متعدية ومنزَّلة منزلة اللازم .

خامسًا : ما اقترن منها بـ « السين والتاء » مقصور على غير « الله » رعاية لواجبات « عقيدة التوحيد » .

سادسًا : اقترانها ـ دائمًا ـ بالجار والمجرور « له ـ لهم ـ لكم ـ لك ـ لي » إظهاراً للامتنان على المغفور له كما كان في « كفَّر » حيث التزم اقترانها بـ« عن » .

سابعًا : التزام إضافة « الذنوب » و« الخطايا » إلى « الضمائر » خطابًا وغيبة ، وتكلما ، فإن لم تكن « إضافة » ناب التعريف بـ « أل » مناب الإضافة في « الذنوب » دون « الخطايا » .

ثامنًا : اختصاصها ـ إن صحَّ ما فهمناه ـ بالمعاصي التي لا تتوقف التوبة عنها على غُرْم مالي أو عناء بدني « الكفارات » في العبادات ، والجنايات ، وبعض المعاملات .

هذا ما هُدينا إلى ملاحظته ورصده في منهج القرآن في « كفَّر » و« غفر » وكم في القرآن من المناهج التنظيمية « البديعة » في استعمالاته لمفردات اللغة .

* * *

مَرِضَ ـ مَرَضٌ

المرض في اللغة هو العلة التي يصاب بها الجسم فتؤثر في قواه تأثيرًا يجعله غير قادر على القيام بوظائفه ، ومنه ما يعتري الجسم كله كارتفاع ضغط الدم ودرجة الحرارة ، وما يصيب بعض أعضاء الجسم كالرمد ، فالمرض نوع من الفساد يحول دون تحقيق المنافع التي يحتاج إليها الإنسان ، وقد استعملت لغة القرآن هذه الكلمة وبعض تصاريفها استعمالاً خاضعًا لمنهج لم تحد لغة القرآن عنه ، وهذا ما سيتضح لنا من الآيات الآتية :

• التمثيل :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (الشعراء:٨٠).

﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة:١٠) .

﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ ﴾ (المائدة:٥٢).

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾ (الأنفال:٤٩).

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (الفتح:١٧) .

﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ (البقرة:١٨٤).

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ (النساء:٤٣).

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ ﴾ (النساء:١٠٢).

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ ﴾

(البقرة:١٩٦).

نستنتج من الآيات التسع التي مثلنا بها لمادة (م . ر . ض) في القرآن الكريم أن الصور التي جاءت عليها ثلاث :

الأولى : الصورة الفعلية : «مرضت» .

الثانية : الصورة المصدرية : «مرض» .

الثالثة : الصورة الاسمية «المريض ـ مرضى» .

والصورة الفعلية لم تذكر إلا مرة واحدة ، هي المحكية عن إبراهيم عليه السلام .

أما الصورتان المصدرية والاسمية فقد تكررتا مرات وبخاصة المصدرية .

كما يسفر النظر في هذه الآيات أن معاني المادة «م . ر . ض» ترددت بين الحقيقة والمجاز .

وأن المجاز ملازم للصورة المصدرية حيثما ذكرت ، كما أن هذه الصورة المصدرية ملازمة للقلوب ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ ، وليس المراد به العلة المرضية بل المراد المرض المجازى ؛ لأن مرض القلوب المراد من ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ هو الكفر والنفاق وحب الشهوات ، ولما كانت هذه الآفات «المعنوية» تحول دون طهارة القلوب بالإيمان والاستقامة والعفة والعمل الصالح شبهت بالأمراض الحسية التي تحول بين الجسم وبين أداء واجباته ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، ولذلك وصفت القلوب في القرآن بـ «العمى» في قوله تعالى :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾

(الحج:٤٦).

والعمى لا يكون وصفًا حقيقيًّا إلا للأبصار ، أما في القلوب ، فهو وصف

مجازى ، شُبِّه فيها فساد القلوب المانع من إيصال الهدى إليها بعمى الأبصار المانع من إيصال الرؤية إليها .

كما شبِّه فساد القلوب بمرض الأجسام بجامع تعطيل كل منهما عن المنافع .

أما الجانب الحقيقي فخاص بالصورة الفعلية ﴿ **وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ** ﴾ ، وبالصور الاسمية : « المريض ـ مرضى » لأن المراد من المرض في هذه الصور المرض الحقيقي الذي يصيب الجسم أو بعض أجزائه فيعجزه عن العمل كُلا أو بعضًا .

• منهج القرآن في «مَرِضَ» :

ومما تقدم برزت لنا في وضوح ملامح المنهج القرآني في هذه المادة :

فأولاً : لم يرد في القرآن منها إلا فعل ماض واحد « مرضت » مع تكرار الصور المصدرية والاسمية .

وثانيًا : ترددت تصريفات المادة بين الحقيقة والمجاز .

وثالثًا : المجاز فيها ملازم للصورة المصدرية حيثما وردت .

ورابعًا : أما الحقيقة فملازمة للصور الفعلية والاسمية .

وخامسًا : الصورة المصدرية ملازمة لمقام الذم والتشنيع ، وهي ـ دائمًا ـ وصف في المعنى للقلوب ، مع ملاحظة إضافة القلوب إلى ضمير الغائبين « هم » .

وسادسًا : الصورة الفعلية اختصت بمقام تمجيد الله وآلائه .

وسابعًا : الصور الاسمية اختصت بمقام التشريع في كل موضع وردت فيه .... فما أعظم هذا النظام وما أحكمه ؟

* * *

المرْأَة ـ البَعْلُ

للمرأة في العرف اللغوي العام والخاص دلالتـان : إحـداهما : الدلالـة علـى « الأنوثة » المقابلة لـ « الرجولة » ، والمقصود بهما هنا : النوع .

والثانية : الدلالة على « الزوجـة » وبخاصـة إذا أضـيفت إلى الـزوج ، مثـل : « امرأة نوح » يعني زوجته أو « زوجه » بدون تاء التأنيث .

أما البعل فهو في اللغـة الفصـحى ، أو العـرف اللغـوي الخـاص ، يـراد منـه الزوج أحد عَميدَي الأسرة .

وكلتـا الكلمـتين وردت في لغـة القـرآن ، ولهمـا فيـه اسـتعمال خـاص فيـه اعتبارات بديعة ، لطيفة ، حكيمة ، هي من سمات إعجاز القرآن البياني اللغـوي ، وقد قلنا مرات من قبل إن القرآن يستعمل مفردات اللـغــة اسـتعمالاً « أمثــل » لا نجد لـه نظـيراً في كـلام البشـر ، مهمـا عـلا حظهـم مـن البلاغـة والفصـاحة ونصاعة البيان .

وأمثلية استعمال القرآن لمفردات اللغة له خصائص مرَّ بنا الكثير منها :

كاستعماله الكلمة في موضع لا تصلح له غيرها مهما كان بينهما مـن تشـابه واتصال .

وكتوزيع مادة الكلمة الواحدة على منهج بديع ، فيستعمل بعض صـورها في معنى لا يستعمل فيه صورة أخرى من صورها وكأن الكلمة الواحدة فيه كلمات بحسب ما تدل عليه ، وليست كلمة واحدة .

وهاتان الكلمتان : (المرأة ـ البعل) ، تحملان مـن سمـات الإعجـاز القرآنـي البلاغي اللغوي ما يدعو إلى الدهش وشدة الإعجاب ، فتعال ـ مـعـي ـ نجتلـي ما يثلج الصدور ويقر العيون من عجائب البيان .

● **التمثيل :**

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ (النساء:١٢).

﴿ وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦ ﴾ (يوسف: ٣٠) .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحريم: ١٠) .

﴿ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡ ﴾ (هود: ٨١).

﴿ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ (هود: ٧١) .

﴿ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ﴾ (آل عمران: ٤٠) .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ﴾ (مريم:٨) .

﴿ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ ﴾ (البقرة:٢٨٢) .

﴿ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ ﴾ (القصص:٢٣) .

﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗا ﴾ (النساء:١٢٨) .

﴿ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا ﴾ (هود:٧٢) .

﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗا ﴾ (البقرة:٢٢٨) .

﴿ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ (النور:٣١).

من النظر في الآيات التي ذكرناها يتبين لنا الآتي :

* أن القرآن يؤثر أن يطلق على زوجة الرجل كلمة «امرأة» إذا اختلت عُرى الحياة الزوجية ، أيـًّا كان نوع ذلك الاختلال سواء كان بموت أحد الزوجين كآية الكلالة التي صدَّرنا بها آيات «التمثيل» ومثلها مما لم نذكره :

﴿ **إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا** ﴾

(آل عمران:٣٥).

* أو حدث نزاع بين الزوجين سواء أدَّى إلى طلاق أو لم يؤدِ مثل : ﴿ **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** . . . ﴾ .

* أو لاختلاف الدين بين الزوجين مثل :

﴿ . . . **وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ**. . . ﴾ لأن امرأة لوط عليه السلام كانت على دين قومها .

* أو كانت العلاقة الزوجية قائمة على غير دين صحيح ، مثل ما جاء عن أبي لهب وامرأته :

﴿ **وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ**﴾ (المسد:٤) ، لم يقل : زوجه .

* أو كانت الحياة الزوجية لا إنجاب فيها مثل :

﴿ **وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا** ﴾ .

* أو كانت المرأة غير ذات زوج ، مثل ما جاء في ابنتي شعيب :

﴿ **وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ** ﴾ .

* أو كان الزواج لا مدخل له في المعنى المراد ، مثل ما جاء في الشهادة على الدَّيْن :

﴿ **فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ** ﴾ .

فالشهادة تصح من المرأة سواء كانت ذات زوج أو لم تكن ، والسر في هذا ـ والله أعلم ـ أن المرأة أو الزوجة في الحالات التي أشرنا إليها ليست أهلاً للوصف بـ «الزوج» أو الزوجة لأن معاني الزوج في اللغة «الاثنان» المضموم أحدهما إلى الآخر ، ولذلك سمى الزوج مضمومًا إلى «زوجته» وسميت الزوجة زوجا مضمومة إلى زوجها ، وهذا الضم لا يكون على كماله إلا في حالات الوِئام التام ، والوفاق الكامل والصفاء الخالص ، بين عميدَي الأسرة ،

والعقم سواء كان من الرجل أو المرأة أو هما معًا يهز العلاقات الزوجية ، ويوهن الروابط بينهما ويعرض اقترانهما للزوال .

وانظر ـ مثلاً ـ إلى نبي الله زكريا وهو يشكو حاله إلى ربه من دبيب الشيخوخة إليه وعقم امرأته :

﴿ **وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا** ﴾ (مريم:٥-٨) .

قارن هذا بما جاء في سورة الأنبياء :

﴿ **وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ** ﴾ (الأنبياء:٨٩،٩٠) لقد كانت في سورة آل عمران ومريم «امرأتي» حين كانت عاقرًا ، أما هنا في «الأنبياء» فقد أصبحت «زوجَهُ» لأن وصف العقر زال عنها وأنجبت «يحيى».

أرأيت كيف ضنَّ القرآن عليها بوصف «الزوجية» لما كانت عقيمًا لا تلد ؟ وكيف سخا به عليها في «الأنبياء» لما أصلحها الله للإنجاب ؟

أرأيت مثل هذا الصُّنْعَ البديع في كلام أحد غير الله ؟ إنه للإعجاز الإلهي في أدق وأعمق معانيه .

● ثلاث شبهات مردودة :

ولقائِل أن يقول : لقد أطلق القرآن وصف «الزوجية» على نساء في حالات الشقاق ، بل والفراق ، وذلك في ثلاثة مواضع :

الأول : على نساء النبي وقت حدث الشقاق المشهور بينه وبينهن ، ومع هذا قال الله في شأنهن :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التحريم: ١).

والثاني : في شأن زيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ وزوجه زينب بنت جحش لما دبَّ النزاع الذي أدى إلى الفراق بينهما ، ومع هذا قيل في شأنها :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ (الأحزاب: ٣٧).

فأطلق على زينب وصف « زوجك » ولم يقل : « امرأتك » .

والثالث : في تسوية النزاع بين المسلمين وبين مشركي مكة بعد صلح الحديبية ، فقد وصف النساء اللاتي فارقن أزواجهن بأنهن « أزواج » ، فقال :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴾ (الممتحنة: ١١).

● الردود على هذه الشبهات :

الرد على الشبهة الأولى :

لم يكن اختلاف النبي مع زوجاته اختلافًا ذا خطر ، بل كان الوفاق الخالص هو الذي يسود العلاقات بينه وبينهن ، بدليل أنه عليه الصلاة والسلام حرَّم على نفسه بعض ما أحله الله له تطييبًا لمشاعرهن وتوددًا إليهن ، وهو الأمر الذي أفصح عنه القرآن وعاتب الله رسوله فيه ، وفي الموضوع رد آخر سنذكره عند الرد على الشبهة الثالثة .

الرد على الشبهة الثانية :

أما قول الرسول ﷺ لمولاه زيد : « امسك عليك زوجك » ، ولم يقل : امرأتك ، فهذا التعبير : « زوجك » هو المطابق لمقتضى الحال . والحال ـ هنا ـ هو الأمر بالإمساك وإبقاء الحياة الزوجية قائمة ، فكأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ اعتبر النزاع الدائر بين زيد وزينب كأنه لم يكن ، ولو قال : « امسك عليك

امرأتـك» ، لكـان هـذا تسـليمًا منـه بنتيجـة النـزاع ، وهـو التطليـق ، وكلمـة «زوجك» أرأب للصدع من كلمة «امرأتك» بلاغيًّا .

الرد على الشبهة الثالثة :

أما وصف النساء المفارقات لأزواجهن في قوله تعالى :

﴿ وَإِن فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ . . . ﴾ .

فهذا التعبير «أزواج» هو المتعيِّن هنـا ؛ لأنهـن «جَمْـعٌ» لا «مفـرد» ولـم يقُلْ : امرآتهم جريًا على منهجه في المفرد لأمرين :

الأول : أن هذا الجمع غير مستعمل في اللغة لا في فصيحها ولا في غريبها ، والقرآن نزل على طرائق العرب في كلامهم .

الثاني : أن هذا الجمع «امرآتهم» جاف مستثقل خشن «الجرس» وفي لغـة القرآن رشاقة وصفاء وسهولة ، ينبو عنها هذا اللفظ وأمثاله لبعده عن الفصاحة ؛ لأنه غير مستعمل في لغة العرب .

وهـذا ينطبـق علـى الموضع الأول الخاص بـ «أزواج» النبي ﷺ لو سـلمنا ـ جَدَلاً ـ بأن شقاقًا ذا بال حدث بينه وبينهن .

فإن قـال القائـل : ولِـمَ لَـمْ يقُـلْ : نسـائكم ـ نسـاؤهم ـ بـدل «أزواجكـم» ، و «أزواجهم» ؟

قُلْنَا : إن كلمة «نساء» عامة تشمل ذوات الأزواج وغـير ذوات الأزواج ، فـلا تصلح قط مكان «أزواج» ، وبهذا نزل القرآن الحكيم حقًّا .

وبهذا يسـلم مـا فهمنـاه مـن دقـائق الاسـتعمال القرآنـي لكلمـتي : «امـرأة ـ وزوج» وعدم الخلط بينهما كما هو الحال في كلام غير الله .

● منهج القرآن في استعمال كلمتي : «امرأة» ، و«زوج» :

أولاً : يطلـق القـرآن كلمـة «امـرأة» في حالـة الإفـراد علـى «الزوجـة» إذا

أصاب العلاقات الزوجية اختلال كنشوب نزاع بين الزوجين ، أو عقم لدى أحدهما أوكليهما ، أو اختلاف دين أحدهما عن الآخر ، أو حدث تفريق بينهما بطلاق ، أو موت ، أو وقعت خيانة في العلاقات الزوجية .. إلخ .

ثانيًا : كما يطلق كلمة « امرأة » في الحالات التي لا يكون للوصف بالزوجية علاقة بالمعنى المراد كمقام « الإشهاد على الديون » أو إرث الكلالة .

ثالثًا : ويطلق كلمة « زوج » إفرادًا لا جمعًا في كل الأحوال التي لا يعكر صفو الحياة الزوجية فيها شيء ، طبيعيًّا كان أو مكتسبًا كالعقم واختلاف الدين.

رابعًا : في حالات « الجمع » يؤثر كلمة « أزواج » . دون « امرآت ـ جمع امرأة » لأن هذا الجمع غير مستعمل لغة فضلاً عن ثقله وخشونة « جرسه » .

خامسًا : قد يؤثر كلمة « زوج » إفرادًا في بعض حالات النزاع المكدرة لصفو الحياة الزوجية لعدم الاعتداد بالنزاع ولمطابقتها لمقتضى الحال .

● بَعْل وبعولة :

لما ضنَّ القرآن بإطلاق كلمة « زوج » على الزوجة في حالات تدهور العلاقات الزوجية ، وأطلق عليها كلمة « امرأة » ضنَّ ـ كذلك على الزوج الذكر بإطلاق كلمة « زوج » عليه ، ثم أطلق عليه كلمة « بَعْل » والآيات التي ذكرناها وفيها إطلاق كلمة « بَعْل » أو « بُعُولة » لا تخلو آية واحدة منها مما يهدد ، أو هدَّد الحياة الزوجية فعلاً من شقاق بين الزوجين أو سوء معاملة من الزوج للزوجة ، أو سلوك شائن من الزوجة ينافي قدسية الحياة الزوجية ، خذ ـ مثلاً ـ قوله تعالى :

﴿ **وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا** ﴾ فها هنا توجس وخيفة وقلق من جور زوجها ، لذلك صارت « امرأة » مضنونًا عليها بكلمة « زوجًا » أو « زوجة » وصار زوجها « بعل » مضنونًا عليه بكلمة « زوج » .

وقوله تعالى في شأن إبراهيم عليه السلام وزوجه « سارة » ﴿ **ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا** ﴾ لأن الشيخوخة تمنع الإنجاب عند الزوجين ، لذلك

صار الزوج «بَعْلاً» والعقم من شأنه تقويض الحياة الزوجية ، أو جعلها كأنها لم تكن قط ، لعدم حصول ثمارها ، وهي ولادة الأولاد .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ فأطلق على الأزواج «بعولة» جمع «بعل» لأن المقام فيه مخالفة من الزوجات ، وهي النظر إلى غير أزواجهن وإظهار زينتهن لغيرهم بدليل أمرهن بغض أبصارهن ، وحفظ فروجهن ونهيهن عن إبداء زينتهن لغير محارمهن :

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ (النور:٣١) .

والشيء لا يؤمر به في القرآن إلا إذا كان معدومًا ، ولا ينهى عنه إلا إذا كان موجودًا ، هذا هو الأصل في الخطاب القرآني .

لذلك ـ والله أعلم ـ أُطْلِق على «الأزواج الذكور» هنا : بعولة والوصف بمجرد «المرأة» فيه تجريد من المعاني الإضافية التي تفيدها كلمة «الزوج» أو «الزوجة» وبمجرد «البعل» فيه تجريد من المعاني الإضافية التي تستلزمها كلمة «الزوج» ولكأن القرآن ـ ببلاغته العالية ، وبيانه المعجز يشير إلى انعدام الروابط الزوجية ـ كما ينبغي أن تكون ـ وهو يطلق على الزوجة «امرأة» وعلى الزوج «بَعْلاً» ، حين يقتضي هذا الإطلاق ـ بنوعيه ـ داع من الدواعي التي أشرنا إليها من قبل ، مما يعكر صفو الحياة الزوجية .

وكلمة «امرأة» هنا تشف عن معنى قرآني دقيق للغاية ، لأنها واسطة بين كلمتين بديلتين هما:

أنثى ـ زوجة ، فأُنثى لفظ عام لا ينبئ عن علاقة الزوجية بل يطلق على كل «حواء» وكلمة «زوجة» تنبئ عن خلو الحياة الزوجية من كل ما يكدِّر صفوها ، فلا تصلح واحدة منهما على ما نحن فيه من رباط زوجي بين زوجين

لم تصف حياتهما الزوجية من مكدرات ، أما كلمة «امرأة» التي آثرها القرآن في هذا المقام «المتوتر» فتدل على علاقتها الزوجية بـ «بعلها» فهي امرأة ذات زوج لا مجرد «أنثى» ولا «زوجة» صفت حياتها مع بعلها من كل المكدرات .

وهذا المعنى القرآني الدقيق تحمله ـ كذلك ـ كلمة «بَعْل» فهي واسطة بين كلمتين بديلتين لم تصلح واحدة منهما مكان «بَعْل» ، وهما :

«رجل» و«زوج» فلفظ رجل عام لا ينم عن علاقة زوجية قائمة ، بل يُطلق على كل «آدم» ، فهو قاصر عن تصوير المراد ، وكلمة «زوج» تدل على روابط زوجية قائمة خالية من كل المنغصات ، وهذا مع وجود المنغصات لا وجود له .

أما «بعل» فهو الكلمة الوحيدة التي تصور الواقع بكل أمانة ووفاء ؛ لأنها تدل على أن مَنْ أُطْلِقَتْ عليه له روابط زوجية بـ «امرأة» لكنها مشوبة بما يتنافى معها .

هذا ما هدينا إليه في إيثار لغة القرآن التعبير بكلمتي «امرأة» و«بعل» في هذا المقام ، وشرح الله به لنا صدرنا ، فإذا صح هذا «الاجتهاد» ـ ونرجو أن يكون كذلك ـ فإنه سمة من سمات الإعجاز القرآني البياني اللغوي ، يقتضي «السجود» إعجابًا وإجلالاً لمنزِّل هذا الكلام ـ عَزَّ وجَلَّ .

• وإن تعجبَ فَعَجَبٌ :

نعم ، إن تعجب فعجبٌ تفرقة القرآن بين موضعين لا يبدو بينهما تفاوت ، لكن القرآن ذكر في كلٍّ منهما ما يلائمه من الألفاظ ، فلفت أنظارنا إلى فرق جدَّ دقيق بينهما ، لا يهدى إليه إلا طول نظر ، وعمق تأمُّل ، وإدامة فكر ، والموضعان هما :

﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾ (البقرة:٢٢٨).

﴿ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ (البقرة:٢٣٢).

• مقارنة بين الموضعين :

غير خافٍ أن الموضعين فيهما نساء مطلقات .. وفيهما جواز إعادة العلاقات الزوجية بينهن وبين الذين طلقوهن ما لم تنقضِ العدة في الطلاق الرجعي ، وكما عرفنا من قبل أن الطلاق يقتضي أن يُعبَّر عن المطلِّق بـ «البعل» دون الزوج . والآية جاءت على هذه السنة القرآنية البيانية فأُطلق على «المطَلِّقِين» كلمة «بعولتهن» .

أما الآية الثانية فمع اتحاد مقامها مع مقام الأولى ، فلم يُطْلَق على المطلقين لفظ «بعولتهن» بل «أزواجُهنَّ» ، فما الذي اقتضى هذه المخالفة في التعبير مع اتحاد المقام في الآيتين يا تُرى؟

إن الذي هُدينا إليه بعد طول نظر هو الآتي :

* في الآية الأولى يشير المقام إلى وجود منافس من الرجال للمطلقين ، والقرآن يقضي بأولوية المطلقين في التزوج من مطلقاتهم ، فهم أولى من غيرهم ممن يبدون رغبتهم في التزوج من مطلقاتهم .

هذا المعنى يُفهم ـ بقوة ـ من قوله تعالى : **﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحًا ﴾** .

وأفعل التفضيل «أحق» يتقضي اشتراك طرفين في معنى مع أرجحية أحدهما على الآخر ، فجاء التعبير على القاعدة ، فقال : «بعولتهن» دون «أزواجهن» .

أما الآية الثانية فهي تتجه من أول الأمر إلى ولاة أمور المطلقات وتنهاهم عن منعهن من التزوج بمطلقيهنَّ إذا أراد المطلقون والمطلقات العودة إلى الحياة الزوجية معًا مرة أخرى .

فميل كلٍّ إلى الآخر ـ هنا ـ متحقق تحققًا يجعل الطلاق كأنه لم يكن . فاقتضت البلاغة القرآنية أن يُطْلَق على « المطلقين » « أزواجهن » دون بعولتهن ، وهذا أنسب بمقام النهي عن العَضْل في بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة .

ومما يرجِّح كلا اللفظين في موضعه ما يأتي :

* وجود المنافسة في الأولى وعدمها في الثانية .

* ضعف الرغبة في المراجعة في الأولى المستفاد من أداة الشرط « إن » الموضوعة لاحتمال حصول جواب الشرط وعدم حصوله .

وقوة الرغبة في المراجعة في الثانية المستفادة من أداة الشرط « إذا » الموضوعة لتحقق وقوع الشرط .

* خلو الأولى من النهي عن العَضْل ، واشتمال الثانية عليه .

أيها القارئ الكريم ، ألست معي في أن هذا البيان المعجز حقًّا يستحق منا أن نخر للأذقان سجدًا إجلالاً وإعظامًا لمن أنزل هذا الكتاب هدًى للمتقين ، وحجة على الكافرين ؟

• منهج القرآن في كلمة «بَعْل» :

أولاً : استعمالها في الأحوال التي يشوب الحياة الزوجية فيها بعض المكدرات كالشجار والعقم والطلاق الرجعي .

ثانيًا : أن يدُلَّ بها على معنى دقيق بين معنى مُطْلَق رجل وخصوصية معنى .

ثالثًا : مجيء كلمة « زوج » أو « أزواج » بدلاً منها إذا اقتضى المقام ذلك .

رابعًا : مجيؤها أقل استعمالاً من كلمة « امرأة » المقابلة لها لكثرة دواعي استعمال كلمة « امرأة » وقلة دواعي استعمال كلمة « بعل » .

خامسًا : مجيء « بعل » في لغة القرآن ملازمة للإضافة إلى الضمير : « بعلي ـ بعلها ـ بعولتهن » وعدم هذا الالتزام في « امرأة » المقابلة له[1] .

* * *

(١) لا يقدح في هذا ورودها مقطوعة في آية الصافات (١٢٥) : ﴿ **أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ** ﴾ لأنه بمعنى : « الصنم » ، وليس بمعنى : الزوج .

خَتَمَ ـ مَخْتُومٌ

في القرآن الحكيم ثلاث كلمات ، أو مواد لغوية استعارها للدلالة على معان تتوارد على محل واحد ، هو «القلب» مع مجيء بعضٍ منها ـ أعني الكلمات أو المواد الثلاث ـ في سياق الحديث عن غير ذلك المحل ، وهما السمع والبصر ، وتلك الكلمات أو المواد اللغوية الثلاث هي :

ختم ـ طبع ـ ربط ، أو «الختم والطبع والرباط» ، وللقرآن الحكيم مناهج في استعمالها ـ كما له في غيرها ـ تُبرز ـ بقوة ـ صورًا أخرى حافلة بالإعجاز البياني اللغوي ، آثرنا النظر فيها لتسجيلها ولفت الأنظار إليها ، في هذه الدراسات التي تحاول ـ جاهدة مخلصة ـ عرض الإعجاز القرآني في ثوب جديد ، قوامه التطبيق العملي من الداخل ، بدلاً من تلك المناهج التقليدية ، التي تصف الإعجاز من «الخارج» وقل أن تخوض بحره الزاخر ، وأن تستخرج لآلئه المكنونة وجواهره الثمينة من أعماق نظمه البديع العجيب .

وآثرنا ـ كذلك ـ أن نبدأ بـ «ختم» قبل أختيها : طبع وربط ، لاختصاصها بمعنى دونهما سنفصح عنه قريبًا بإذن الله .

● التمثيل :

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ ﴾ (البقرة:٧).

﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِ ﴾ (الأنعام:٤٦) .

﴿ أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ ﴾ (الجاثية:٢٣) .

﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾ (يس:٦٥).

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (الشورى:٢٤) .

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب:٤٠).

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ﴾ (المطففين:٢٥،٢٦).

ما ذكرناه من الآيات هو كل ما وردت فيه هذه المادة (خ . ت . م) في القرآن الحكيم .

وظاهر من النظر فيها أن القرآن يفرِّق بين ما جاء منها فعلاً ، وما جاء منها اسمًا .

* فالصور الفعلية : (ختم ـ يختم ـ نختم) استعملها القرآن الحكيم في مواضع الذم والعقاب المؤلم ، إلا موضعًا واحدًا ـ سنذكره ـ اختلف في معناه ، والأصوب أنه جارٍ على نسق القرآن من استعمال هذه المادة إذا كانت فِعْلاً في مواضع الذم والعقاب .

* أما إذا كانت اسمًا : (خاتَم ـ ختام ـ مختوم) فإن القرآن قصرها ـ بلا خلاف ـ على مواضع المدح والجزاء الحسن .

● **بيان ذلك :**

قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ ، هو استئناف بياني بعد أن وصف الكفار في الآية السابقة مباشرة على هذه الآية ، وقد جاء فيها :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (البقرة:٦) .

فلما أخبر بأنهم لا يؤمنون في جميع الأحوال بيَّنَ سبب استمرارهم على الكفر ، بأنه ختم ﴿ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ عقابًا لهم على عدم انتفاعهم بالإنذار ، وإعراضهم عن الإذعان مع ظهور دلائل الحق عليه .

وقوله تعالى :

﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

فصورة العقاب هنا ـ فضلاً عن الذم ـ أشد ما تكون وضوحًا ، فيُمنعون من الدفاع عن أنفسهم ، ويفاجأون بأعضاء من أجسامهم ـ تتكلم وتشهد ـ بما يدينهم ، وليس من عادتها الكلام ولا الشهادة .

وهكذا بقية المواضع ، لا تخلو من عقاب وذم من الصيغ الفعلية كلها .

بيد أن موضعًا واحدًا ، اخْتُلِفَ في معناه اختلافًا غير متكافئ ، وهو قوله تعالى الذي سبق ذكره :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ . . . ﴾ .

فقد جزم النسفي في تفسيره بما أسنده إلى مجاهد من أن معنى ﴿يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ هنا هو :

« يربط على قلبك بالصبر عَلَى أذَاهم .. لئلا تدخله مشقة تكذيبهم »[1] .

وأشار جار الله الزمخشري إلى هذا بصيغة التمريض « وقيل » أما معناه عنده ، فهو :

« فإن يشأ الله يجعلك من المختوم على قلوبهم .. وهذا الأسلوب مؤداه استبعاد الافتراء من مثله ﷺ وأنه في البعد مثل الشرك بالله والدخول في جملة المختوم على قلوبهم .. »[2] .

أما ابن عطية الأندلسي فيقول في معنى : ﴿ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ : « معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين : ينسيك القرآن . والمراد الرد على مقالة الكفار وبيان إبطالها وذلك كأنه يقول :

---

(١) تفسير النسفي : (١٠٧/٤) .
(٢) الكشاف : (٤١٨/٣) .

«وكيف يصح أن تكون مفتريًا وأنت من الله بمرأى ومسمع وهو قادر لو شاء ـ على أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق»[1] .

هذا هو الأصوب ـ بل الصواب ، لا ما جزم به النسفي من قبل عن مجاهد .

والمقصود من هذا الأسلوب ـ وأمثاله ـ تبرئة صاحب الدعوة ﷺ مما يرميه به منكرو الرسالة ، ولهذا نظائر في القرآن منها :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ (الإسراء:٨٦).

وقوله تعالى :

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذاً لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذاً لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ (الإسراء:٧٣-٧٥).

وقوله تعالى : **﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾** (الحاقة:٤٤-٤٧).

هذه ـ كلها ـ جزاءات فَرْضية رُتِّبَتْ على أمور لم تقع منه ﷺ .

وبعد هذا الإيضاح نقول ـ جازمين ـ إن مادة الخاء والتاء والميم ما جاء منها فِعْلاً فإن القرآن التزم فيها استعمالها في الذَّم والمجازاة المؤلمة ـ ولم يشذ منها موضع واحد عن هذا المنهج حتى آية «الشورى» على ما بيَّنَّاه آنفًا .

* وَلِلْقُرآن التزام آخر في الصور الفعلية ، وهو استعمالها في المعاني المجازية دون الحقيقة ؛ لأن المراد بـ «الختم» منع القلوب من دخول الهدى فيها ، وخروج الضلال منها ، كأنّها مختومة بخاتم حقيقي محكم يحول دون الدخول والخروج .

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٢١٦/١٤) .

وهو مجاز على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، شبه فيها المنع المذكور بالختم المادي تصويراً للمعنى المعنوي العقلي ، بصورة الختم الحسي ، وفي توجيه هذه المسألة تفاصيل واسعة ينظرها من يشاء في مظانها من كتب التفسير ، وبخاصة تفسير : الزمخشري ـ أبي السعود ثم حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي ، وحاشية الكازروني على البيضاوي كذلك[1] .

• الصور الاسمية :

أما الصورة الاسمية الثلاث : خاتم ـ مختوم ـ ختام ، فقد التزم القرآن الحكيم استعمالها في مواضع المدح والجزاء الحسن .

ففي آية « الأحزاب » :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ .

جاء « خاتم » في ذروة المدح والثناء العطر على صاحب الدعوة ﷺ ودلالة « خاتم » هنا على المنع الذي هو أصل دلالة المادة ، دلالة ظاهرة ، حيث إن نبوته منعت مجيء نبوات بعده ، فهو الرسول النبي المصطفى لجميع العباد من لدن بعثته إلى قيام الساعة .

لأن رسالته الخاتمة أغنت البشرية عن أية رسالات أخرى ، لاشتمالها على كل الفضائل ، ونهيها عن كل الرذائل ، وصدق شاعرنا الذي قال :

لا تذكروا الكتب السوالف قبله   جاء الصباح فأطْفأ القنديلا

وآيتا « المطففين » :

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴾ (المطففين: ٢٥،٢٦).

فيهما إظهار التفضل على عباد الله الصالحين ، وإشادة بالجزاء الحسن الذي وعدهم الله به .

---

(١) تراجع هذه التفاصيل في المصادر المشار إليها عند تفسير الآية السابعة من سورة البقرة .

وهذا يرسم لنا خطوات المنهج القرآني في مادة (خ . ت . م) ، ولكن قبل تسجيل هذا المنهج نجيب عن السؤال الآتي :

لماذا اختص الفعل بالذم والعقاب ؟

والجواب : معروف أن الفعل له ثلاث دلالات هي : دلالته على « الحدث » من حيث معناه ، ودلالته على « الزمن » من حيث صياغته ، ثم دلالته على « الفاعل » التزامًا .

والاسم أو الصفات المشتقة ، والمصدر يشترك مع الفعل في دلالة واحدة هي « الحدث » .

فالفعل أكثر مرونة من الاسم لدورانه مع الزمن ماضيًا وحاضرًا ومستقبلاً ، وصالح للتعليق كذلك ، كقوله تعالى :

﴿ **فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ** ﴾ فقد عُلِّق « يختم » على مشيئة الله ، والاسم بمنأى عن هذا .

ولما كان الفعل بهذه المرونة والمطاوعة صلح للإخبار عن الماضي في قوله تعالى :

﴿ **خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ** ﴾ كما صلح للمستقبل في الآية السابقة : ﴿ **فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَ** ﴾ وفي قوله تعالى : ﴿ **ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ** ﴾ وهذا سيكون يوم الحساب .

لذلك اختص بمقام الذم والعقاب ، وملاحقة الأحوال التي حدثت أو هي حادثة ، أو ستحدث .

أما الاسم : « خاتَم » ، و« مختوم » ، و« ختام » فلتجرده عن الزمن صارت دلالته ثابتة . فـ « محمد » ﷺ خاتم النبيين في كل وقت ، وليس خاصًّا بوقت دون آخر ، ولا في ختمه للنبيين تجدد وانقطاع ، وشراب أهل الجنة تحقق الختم بالمسك عليه وثبت فهو ـ دائمًا ـ مختوم وختامه مسك ، وإن شئت

فجرِّب وضع اسمًا بدل الفعل في مواضع الفعل ، أو فعلاً بدل الاسم في مواضع الاسم ثم انظر عقبى الكلام كيف تكون ؟ والمعنى إلى أي جهة ذَهب ؟

● منهج القرآن في «خَتَم» :

أولاً : استعمال الصيغ الفعلية في مقام الذَّم وسوء المصير والعقاب الأليم .

ثانيًا : قَصْرُ استعمال الصيغ الاسمية في مقام المدح والتكريم والجزاء الحسن .

ثالثًا : التزام إيقاع أفعالها على القلوب ، وحينًا السمع .

رابعًا : إسناد الصور الفعلية إلى «الله» أو إلى أحد الضمائر المكنى بها عنه ـ عَزَّ وجَلَّ .

خامسًا : التزام الدلالات المجازية في الصور الفعلية بلا خلاف .

* * *

طَبَعَ - يَطْبَعُ

في اللغة يفسرون - غالبًا - الطبْع بالختم ، ويفسرون الختم بالطبع ، فَبَيْن الكلمتين تشابه ، وقد مرَّ بنا منهج القرآن في « ختم » ورأينا أن استعمالها فيه قائم على التفرقة بين صورها الفعلية ، وصورها الاسمية ، فصورها الفعلية مقصورة على مقام الذَّم والعقاب ، وصورها الاسمية مقصورة على مقام المدح والتكريم وحسن الجزاء .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فإن ما كان منها فِعْلا فلا ينفك عن المجاز اللغوي الاستعاري ، وقد عرفنا - الآن - أن بين « ختم » ، و« طبع » في اللغة تشابهًا لدرجة أن كُلاًّ منهما تُفسَّر بالأخرى ، فهل هما في القرآن كذلك ؟ أي يثبت لـ « طبع » ما ثبت لـ « ختم » أم أن بينهما تباينًا ملحوظًا في لغة القرآن ؟ هذا ما سيظهر لنا بعد التمثيل والنظر .

● **التمثيل :**

﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

(النساء:١٥٥) .

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة:٩٣) .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (النحل:١٠٨) .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ (الأعراف:١٠٠) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ (محمد:١٦) .

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (يونس:٧٤) .

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (الأعراف:١٠١) .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم:٥٩) .

﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر:٣٥) .

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(التوبة:٨٧) .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾

(المنافقون:٣).

هذه الآيات الإحدى عشرة هي كل ما وردت فيها كلمة «طبع» في صور مختلفة ، والنظر فيها يسفر عن الآتي :

* لم يستعمل القرآن منها إلا الأفعال ، ولم يأت منها اسم ولا مصدر قط .

* والأفعال التي وردت في الآيات إما أفعال ماضية ، وإما مضارعة ، فالمضارعة ستة أفعال مبنية للفاعل ، والماضية خمسة أفعال ثلاثة للفاعل واثنان للمفعول .

* الأفعال المبنية للفاعل كلها مسندة إلى «الله» ولم يُسْنَد منها موضع واحد لغير الله ، سواء كانت ماضية أو مضارعة ، ولهذا الإسناد صورتان :

الأولى : وهي الغالبة ، الإسناد إلى الاسم الظاهر «الله» .

والثانية : الإسناد إلى الضمير «نحن» وجاء ذلك في موضعين : ﴿ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ - و﴿ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ .

أما ما بني للمفعول ، وهو موضعان ، ففاعلهما « الله » حَمْلاً للمطلق على المقيد ؛ ولأن هذا الفعل لا فاعل له إلا « الله » .

* إيقاع « الطبع » على « القلوب » مثلما كان في « ختم » إلا في موضع واحد قُرِن السمع والأبصار مع القلوب :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ .

* أن يذكر « الطبع » مقرونًا بصفات ذم أخرى لاحقة له أو سابقة ولاحقة . فمثال اللاحقة قوله تعالى :

﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴾ فوصفوا بـ « الغافلون » بعد الطبع ، ومثال السابقة اللاحقة قوله تعالى :

﴿ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ .

فوصفوا بعدم الإيمان والتكذيب قبل الطبع ، ووصفوا بـ « المعتدين » بعد الطبع .

* جاءت جملة « الطبع » مسبوقة بأداة التشبيه « الكاف » داخلة على اسم الإشارة « ذلك » في ثلاثة مواضع ، ولم يأت هذا في « ختم » .

* قَصْرُ كل مواضع « طبع » على مقام الذَّم وسوء العقاب ، ولم يأت موضع واحد منها في مقام المدح والتكريم ، والجزاء الحسن كما كان في « ختم » .

* شدة الإنذار في « طبع » أظهر من « ختم » .

* تصَرُّف لغة القرآن في « طبع » أقل من تصرفها في « ختم » حيث لم يأت من « طبع » إلا الأفعال ، وجاء في « ختم » الاسم والمصدر واسم المفعول .

• لماذا اختُصَّتْ «طَبَع» بمقام الذم وسوء العقاب ؟ :

مع قوة التشابه بين «طبع» و«ختم» خُصَّت «طبع» بمواضع الذم وسوء العقاب ، بينما جاءت الصور الاسمية من «ختم» في مواضع المدح والتكرم والجزاء الحسن ، فهي ـ أي ختم ـ في القرآن أداة ذم ومدح .

أما «طبع» فقد رأينا القرآن يَقْصرها على مواضع الذم وسوء المصير . فهل لهذه التفرقية الأسلوبية في القرآن الحكيم من سبب ؟ أم الأمر مجرد اتفاق ؟

والجواب :

مادة الطاء والباء والعين لها مصدران في اللغة :

أحدهما : الطبْع ، بسكون الباء ، ويدور معناه بين ضرب الدراهم وصُنْع السيوف ، والجبِلَّة التي خُلِق عليها الإنسان[1] .

والثاني : الطَبع ، بفتح الباء ومعناه : الدَّنَس والصدأ الذي يصيب الحديد فيفسده ، ويعلو جوانب السيوف فيضعف حدتها ، وقد تتآكل[2] .

والذي نرجحه أن كل مواضع «طبع» في القرآن مشتقة من «الطبَعُ» بفتح الباء ، لذلك اختصت بالذَّم وسوء المصير ، لأن القلوب المطبوع عليها صارت «فاسدة» كَما يُفْسِد «الطبَعُ» الحديد .

فهذا المعنى ملحوظ في كل المواضع التي ذكرناها من القرآن الحكيم ، وهذا هو سبب تفرقة القرآن بين «طبع» و«ختم» فيما نفهم وتستريح إليه نفوسنا .

• منهج القرآن في «طبع» :

أولاً : قصرُها على مواضع الذم وسوء المصير .

ثانيًا : التزام المجاز في جميع صورها ، حيث شُبِّه فساد قلوبهم بالكفر والنفاق بفساد الحديد يعلوه الصدأ والأوساخ .

(١،٢) انظر : (لسان العرب) لابن منظور ، و(المصباح المنير) : مادة (ط ب ع) .

ثالثًا : التزام إسنادها إلى « الله » ظاهرًا ومضمرًا .

رابعًا : اقترانها بأوصاف ذم أخرى لاحقة لها أو سابقة ولاحقة .

خامسًا : إيقاعها على « قلوب » العصاة دائمًا ، وحينًا عليها وعلى سمعهم وأبصارهم .

سادسًا : قصرها على الأفعال دون الأسماء والصفات .

سابعًا : تصاعد شدة الإنذار فيها حيثما وردت .

ثامنًا : أرجحية اشتقاقها من « الطبَع » بفتح الباء أي : الدنس ، على اشتقاقها من « الطبْع » بسكون الباء ، لتناسب معناها مع « الأول » دون « الثاني » .

* * *

رَبَطَ ـ يَرْبِطُ

وقفنا من قبل على منهجَي القرآن في « ختم » و« طبع » وعرفنا ما بينهما من اتصال وانفصال ، فما هو منهج القرآن في « ربط » ؟ والتشابه بين الكلمات الثلاث قائم كما قلنا في التقديم لها ، هذا ما نحاول الوصول إليه فيما يأتي :

● **التمثيل :**

﴿ **نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا** ﴾ (الكهف:١٣،١٤).

﴿ **وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (القصص:١٠).

﴿ **إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ** ﴾

(الأنفال:١١).

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران:٢٠٠).

﴿ **وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ** ﴾ (الأنفال:٦٠).

هذه هي كل مواضع ورود « ربط » في القرآن الكريم ، خمس آيات ، وقليل من النظر فيها يضع أمامنا الحقائق الآتية :

* هذه المادة « ر . ب . ط » لم تستعمل في القرآن إلا في مقام الفضل والنبل ، والمدح والثناء ، والقوة والطهر ، وكل هذه معانٍ شريفة ، وخصال

حميدة ، فلا هي مادة ذم ومدح كما كانت « ختم » ولا مادة ذم كما كانت « طبع » بل هي مادة رفعة وسمو في كل صورة من صورها الواردة في التنزيل العزيز .

* في الثلاث الآيات الأولى شاركت « ربط » كلا من « ختم » و« طبع » في إيقاعها على « القلوب » كما اشتركت معهما في « التعدية » بحرف الجر « على » .

* في كل موضع من المواضع الخمسة الواردة فيها حُفَّتْ بهالة من صفات النبل والشرف :

* ففي الآية الأولى تقدم عليها الوصف بالإيمان وزيادة الهدى ، ثم تلاها الإعلان بالإيمان برب السموات والأرض،والبراءة من الإشراك ووصفه بالشناعة .

* وفي الآية الثالثة سبقت بظلال الأمن ، والماء المطهر من الدنس الحسي والمعنوي : رجز الشيطان ، ثم تثبيت الأقدام ، وهو كناية عن التمكين والغلبة على الأعداء .

* وفي آية « أم موسى » جُعِل الربط على « قلبها » سببًا في الثبات على « الإيمان » .

وفي آية آل عمران سبقت بنداء المؤمنين والصبر والتصابر ، ثم تلاها الأمر بالتقوى والفلاح.

أما آية الأنفال فقد سبقت فيها « رباط » بالأمر بالإعداد للقوة ، ثم تلاها إرهاب عدو الله وعدو المؤمنين ، سواء من ظهر منهم وعُرِف ، ومن هو سارب بالليل مستخف بالنهار ، فـ « ربط » في القرآن كوكب درى يدور في « مطالع السعد واليمن » فِعْلاً كانت أو اسمًا .

* وهي مادة مجاز في لغة القرآن إلا في « رباط الخيل » فحمله على الحقيقة سائغ ، أو هو كناية عن « حماية الثغور » وربما كان « ورابطوا » شريكًا لها في هذا المعنى ، والكناية فيها جانبا الحقيقة والمجاز .

• ولماذا اختُصَّتْ «ربط» بمعاني الفضل والنبل ؟ :

للإجابة على السؤال نقول للقارئ الكريم ارجع إلى ما شئت من «معاجم اللغة العربية» ، أو المؤلفات التي وُضِعَتْ في بيان مفردات القرآن ، تجد هذه المادة «ر . ب . ط» لم تستعملها اللغة العربية إلا في المعاني الشريفة ، ومنها : «الحفظ» وهو لا يكون إلا لـ «المحبوب» والأشياء الثمينة ، وحماية الحرمات .

والقرآن عربي عربي ، نزل بلغة العرب في أسمى أساليبها البيانية .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (يوسف:٢) .

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر:٢٨).

* وظَّف القرآن مواضع مادة «ربط» فيه للدلالة على معنيين عظيمين لا يعادلهما شيء في الوجود بل ، ولا يدانيهما :

الأول : حفظ القلوب من الزيغ والفساد وحب الشهوات ، وهي ـ أي القلوب ـ إذا صلحت صلح الجسد كله كما جاء في الحديث الشريف ..

الثاني : حفظ رسالة الأمة وعزتها وكرامتها وحرماتها ومقدساتها من عبث العابثين وعدوان الظالمين ، ففي «الرباط» إذًا سعادتها العاجلة والآجلة .

• منهج القرآن في «ربط» :

أولاً : هي في القرآن عنوان الفضائل ومصدر القوة والعزة والنبل والشرف .

ثانيًا : فاعل الأفعال فيها هو «الله» ـ أعني الأفعال الماضية والمضارعة ـ أما فعل الأمر الوحيد فيها «ورابطوا» ففاعله جماعة المؤمنين .

ثالثًا:مجيؤها مصحوبة بهالة من صفات الكمال والشرف ، وكريم الخصال .

رابعًا : توظيفها فيما يحفظ للأمة سلامة عقيدتها ، ونزاهة سلوكها ، وحماية بيضتها .

* * *

سخَّر ـ مُسخَّرات

المادة اللغوية «س . خ . ر» وردت في لغة القرآن الحكيم على ضربين :

أحدهما : سخَّر بتضعيف الخاء ، على وزن «فَعَّل» .

والآخر : سخِر بتخفيف الخاء ، على وزن «فعِل» .

ولاستعمالهما في لغة القرآن نظام ومنهج ، نستجليه بذكر الآيات التي وردت فيها المادة في الضربين المشار إليهما ، ولنبدأ بالمضعَّف الخاء الذي على وزن «فعَّل» ؛ لأنه الأهم من حيث الواقع ، ومن حيث الفاعل الذي سنعرفه من واقع النصوص القرآنية الحكيمة :

• سخَّر المضعَّف :

التمثيل :

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الرعد: ٢) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾

(إبراهيم: ٣٢، ٣٣)

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (النحل: ١٢) .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ (النحل: ١٤) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الحج: ٦٥) .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (العنكبوت: ٦١) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (لقمان: ٢٠) .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (لقمان: ٢٩) .

﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (فاطر: ١٣) .

﴿ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (الزمر: ٥) .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ (الزخرف: ١٣) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ ﴾ (الجاثية: ١٢) .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣) .

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾

(الأنبياء: ٧٩) .

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ (ص: ١٨) .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴾ (ص: ٣٦) .

﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الحج: ٣٦) .

﴿ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ﴾ (الحج: ٣٧) .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾

(الحاقة: ٦، ٧) .

﴿ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (البقرة: ١٦٤) .

﴿ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (النحل: ١٢) .

﴿ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (الأعراف: ٥٤) .

﴿ أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾

(النحل: ٧٩).

* وردت كلمة « سخَّر » مشددة الخاء فعلاً ماضيًا في مجموعة الآيات الأولى اثنتين وعشرين مرة .

* وفي مجموعة الآيات الثانية وردت اسم مفعول أربع مرات :

مرة واحدة وردت مفردًا مجرورًا ﴿ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ ﴾ وثلاث مرات جمع مؤنث سالمًا « مسخراتٍ » بحركات إعراب مختلفة .

* في جميع الصور الفعلية كان الفاعل ضميرًا عائدًا على اسم الجلالة « الله » إما لفظًا ومعنى ، وهو في أحد وعشرين موضعًا وإما معنى ، وهو في موضع واحد ، هو قوله تعالى :

﴿ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ ﴾ .

* تردد الضمير المسند إليه « سخَّر » بين ضمير « الغيبة » وضمير « التكلم » مع غلبة « ضمير الغيبة » (ثماني عشرة مرة) على ضمير « التكلم » (أربع مرات) .

* الفعل « سخَّر » بصوره الاثنى عشرة وزِّع على محورين اثنين :

الأول : مقصور على لفت أنظار العباد إلى نعم الله وآلائهِ في الكون ، ثم بعض تعلقات القدرة الإلهية بالآيات الكونية .

وجاء هذا المحور على ضربَيْن :

أ ـ لفت الأنظار إلى حقائق إلهية تعم جميع عباده مؤمنهم وكافرهم ، صالحهم وطالحهم ، وذلك مثل :

* تسخير الشمس والقمر .

* تسخير الفلك تجري في البحر .

* تسخير الأنهار .

* تسخير الليل والنهار .

* تسخير البحر لمنافع العباد .

* تسخير ما في السموات والأرض .

والخطاب الإلهي في هذا الشق عام وموجه إلى جميع العباد ، وفي أفعال هذا الشق كان الإسناد إلى ضمير « الغيبة » .

ب ـ الامتنان على المؤمنين خاصة بنعم لا تكون لغيرهم ، وهذا مقصور على بهيمة الأنعام في مناسك الحج والعمرة ، والفعلان الواردان فيها أولهما مسند إلى ضمير « التكلم » ﴿ **كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ** ﴾ .

والثاني : مسند إلى ضمير « الغيبة » ﴿ **كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ** ﴾ .

المحور الثاني : مقصور على لفت الأنظار على وقائع تاريخية وهو ـ كذلك ـ شقَّان .

(أ) خاص بما منَّ الله به على بعض رسله ، وهما داود وسليمان عليهما السلام .

فلداود سخر الله الجبال والطير يسبحن معه ، ولسليمان سخَّر الله الريح تجري بأمره حيث يريد .

(ب) ويقابل هذا الشق ، شق الانتقام من مكذبي الرسل ، وهم عاد قوم هود . سخَّر الله عليهم ريحًا عاتية دمرتهم تدميراً .

﴿ **فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ** ﴾ ، ولما كانت « ريح سليمان » نعمة عُدِّيت بحرف الجر « اللام » (له) .

ولما كانت « ريح عاد » نقمة عُدِّيت بحرف الجر « على » ـ « عليهم » .

• لماذا الفعل الماضي ؟ :

لم يأت من هذه المادة في لغة القرآن إلا الفعل الماضي ، فلم يأت منها مضارع قط ، ولم يأت منها فِعْل أمر ، فلماذا أوثر الماضي على نظيريه المضارع والأمر .

ومن البديه أن فعل الأمر لا مكان له ـ هنا ـ فقد علمنا أن فاعل هذه الأفعال ـ كلها ـ هو الله ، وليس في مقدور أحد غير الله تحقيق أو الإتيان بشيء من « مفاعيل » هذا الفعل « سخَّر » حتى يأمره الله به ، وليس فوق الله سلطة تأمره بشيء .

إذن فلا محل للمناظرة بين الماضي والأمر ـ هنا ـ قط ، وإنما التنظير بين الماضي الذي جاء به التنزيل الحكيم وبين المضارع المتروك .

والتعبير بالماضي هنا ـ سخَّر ـ هو المتَعَيِّن بلاغة وإعجازًا ؛ لأن التسخير هو سوق الشيء لنيل المراد منه قهرًا ، وبدون توقف على إرادة منه ، وهذا المعنى وُجِد في الأشياء التي سخرها الله لنا مرة واحدة منذ خلقها الله مع استمراره دون توقف .

فالشمس تؤدِي للعباد المنافع من يوم خُلِقَتْ ولا إرادة لها فيها ، ولم يحدث هذا منها شيئًا بعد شيء .

وكذلك القمر يؤدي المنافع التي خُلِق من أجلها من أول يوم خُلِق فيه . ولذلك قال سبحانه في سورة « إبراهيم » عليه السلام في وصف تسخير الشمس والقمر :

﴿ دَآئِبَيْنِ ﴾ وكل « مفاعيل » الفعل « سخَّر » التي فصلتها الآيات السابقة ينطبق عليها هذا المعنى ، وهو : سوقها لتأدية المراد منها قهرًا وبلا إرادة منها ، تلك هي طبيعتها التي خلقها الله عليها .

والله ـ سبحانه ـ سخَّرها مرة واحدة ولم يستأنف منها تسخيرًا بعد تسخير فهو ـ أي تسخير الله لها ـ ماض مستمر غير منقطع .

ولا يفي بهذا المعنى إلا الفعل الماضي الذي جاء به التنزيل الحكيم .

مثال ذلك :

الله ـ سبحانه وتعالى ـ يقول دائمًا :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ بإيثار الفعل الماضي دون المضارع، ولم يقل: «يَخْلق السَّمَوَاتِ وَالأرْضَ» لأنه خلقهما من قبل، ولو قيل: «يخلق» لكان معناه يخلق الآن، وهذا معنى باطل، ومع تقدم خلق السمواتِ والأرض فهما باقيان، وكذلك الأشياء التي قال الله: إنه «سَخرها لنا»، فالتسخير حصل قبل نزول القرآن، وبقاء هذا التسخير في كل زمان ليس معناه أن الله «يسخرها» وإنما «سخرها» وبلا انقطاع كما خلق السموات والأرض بلا زوال.

فالفعل الماضي «سخَّر» هو التعبير الوحيد المتعين في الآيات المذكورة للدلالة على المراد.

أما المضارع فلا يصلح لتلك الدلالة؛ لأنه إما أن يدل على «الحال»، وهذا ممتنع في آيات التسخير؛ لأن التسخير حصل من يوم خلق الله الكون.

وإما أن يدل المضارع على «الاستقبال» وهذا أبعد ما يكون عن الواقع، لأن معناه أن التسخير لم يحدث وسيحدث في المستقبل.

لهذا وذاك امتنع «المضارع» كما امتنع «الأمر» ولم يبق إلا الماضي الذي نزل به التنزيل المحكم، أليس هذا إعجازًا بلاغيًّا لغويًّا في أجلى مجاليه؟.

• وحدة الإسناد:

تقدمت الإشارة إلى أن فاعل «سخَّر» في جميع الآيات السابقة هو «الله» أو أحد الضمائر العائدة إليه، والسبب في «وحدة الإسناد» هنا لأن هذه الأفعال ليس في مقدور أحد إلا «الله» خالق كل شيء، لذلك كان الله ـ وحده ـ هو فاعل هذه «الخوارق».

• الوقائع التاريخية:

أما الوقائع التاريخية في المحور الثاني الذي ورد فيه الفعل «سخَّر» ماضيًا فإن لمجيئه ماضيًا تفسيرًا آخر غير تفسير «سخَّر» في المحور الأول، ففي المحور الأول وسمنا الفعل «سخَّر» بأنه ماض مستمر، أما في الوقائع التاريخية الثلاث، وهي:

* تسخير الجبال والطير مع داود عليه السلام .

* تسخير الريح لسليمان عليه السلام .

* تسخير الريح العاتية العقيم على عاد قوم هود ، فإن الفعل الماضي فيها « ماض منقطع » أي وقع وانقطع قبل نزول القرآن به .

لذلك أوثر الفعل الماضي معه ؛ لأنه لا وجود له يوم نزل به القرآن ، فهو قد حدث في زمن محدد ثم زال ، وما كان هذا سبيله فليس له وسيلة أو أداة تصوره إلا الفعل الماضي « سخرنا ـ سخرها » وبهذا ـ كذلك ـ نزل التنزيل المحكم ، فسبحان مَنْ أنزل هذا الكلام ! .

● اسم المفعول من «سخَّر» :

جاء اسم المفعول من « سخَّر » أربع مرات :

مرة في وصف السحاب ﴿ **وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ** ﴾ .

ومرة في وصف النجوم وحدها على قراءة الرفع في النحل في قوله تعالى : ﴿ . . . **وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ** ﴾ .

ومرة في وصف الشمس والقمر والنجوم معًا في سورة الأعراف في قوله تعالى : ﴿ **وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ** ﴾ .

ومرة في وصف الطير في سورة النحل في قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ** . . . ﴾ .

● ولماذا اسم المفعول ؟ :

أطلنا التفكير حول السبب الذي استدعى التعبير باسم المفعول في المواضع الأربعة ، وقد لاحظنا أن « مسخراتٍ » لم يَأتِ وصفًا للشَّمسِ والقمر إلا مع عطف النجوم عليها في آية الأعراف :

﴿ **إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الأعراف: ٥٤).

وجاء اسم المفعول وصفًا مستقلاً لـ «النجوم» وحدها في آية النحل ، وهي قوله تعالى :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾ (النحل:١٢) .

فقد اختصت آية النحل «النجوم» بوصف «مسخراتٌ» بعد أن جاءت بحرف الاستئناف «الواو» وصارت «النجوم» مبتدأ خبره «مسخرات» ولم تعطف «النجوم» على المنصوبات التي قبلها ، وهي :

الليل ـ النهار ـ الشمس ـ القمر ، ولم تشترك «النجوم» في الحكم الذي سبق لما قبلها .

وهذا يدل على خاصية في «النجوم» جعلت الحكم عليها ـ الخبر ـ مباينًا لحكم ما قبلها .

فما الفرق ـ إذًا ـ الذي اقتضى هذه «المباينة» بين «الحكمين» ؟ هذا ما حاولنا أن نفهمه ، وبعد طول نظر لاح لنا أمران صالحان ـ فيما نرى ـ لتفسير هذا التباين ـ اجتهادًا منا ـ مع تفويض العلم لله ، وقد يرى غيرنا غير ما نرى ، ونحن لا نزعم أن فهمنا هذا هو قول جهيزة الذي يقطع قول كل خطيب[1] . وإليك ما فهمناه .

• الفهم الذي فهمناه :

هذا الفهم يعتمد على الملاحظات الآتية :

الأولى : أن القرآن الحكيم يوقع الفعل «سخَّر» على أفراد من آيات الله

---

(١) «قطعت جهيزة قول كل خطيب» مثل عربي قديم له قصة ، ويضرب لمن يأتي بالقول الفصل في مسألة يختلف الناس حولها . فيحسم الخلاف .

الكونية ؛ الليل ـ النهار ـ الشمس ـ القمر ـ البحر ـ الفلك ـ ما في الأرض ـ ما في السموات ـ أو جمع قلة : الأنهار[1] .

أما النجوم فجمع كثرة لا يعلم حقيقة عددها إلا الله ، وقد رصد العلم الحديث حوالي ثلاثمائة مليون نجم في مجرتنا وحدها فما بالك بغيرها[2] .

الثانية : أن القرآن الحكيم يوقع الفعل « سخَّر » على « مفاعيل » عظيمة الحجم ، نظامها الكوني مشاهد بقوة ولافتة للأنظار لفتًا قويًّا لا يحتاج إلى دليل ، وهذا بالنسبة للنجوم ـ مع عظم حجمها ـ ليس مدركًا إدراكًا حسيًّا كجري الفلك في البحار ، وجري الشمس والقمر في منازلهما.

الثالثة : أن القرآن يوقع الفعل « سخَّر » على ما هو ثابت غير متغير ولا تفنى عناصره في هذه الحياة ، فالشمس هي الشمس ، والقمر هو القمر ، والليل هو الليل ، والنهار هو النهار .

أما النجوم فقد أثبت العلم الحديث أن لها أعمارًا تفنى بعدها ، إما بالانفجار أو التضاؤل ، هذه فروق ملحوظة بين « النجوم » وبين غيرها مما أوقع عليه القرآن الفعل « سخَّر » وهي في إيجاز :

١- فرق من حيث القلة والكثرة في عدد المفاعيل المسخرة .

٢- فرق من حيث الظهور والخفاء في حركة التسخير .

٣- فرق من حيث الاستمرار والفناء في أجرام الكتل المسخرة ، هذا ، وليس بلازم اجتماع هذه الفروق ـ جميعًا ـ في كل ما أوقع عليه القرآن الفعل « سخَّر » فالفلك يجتمع فيها فرقان وهما :

* الكثرة .

---

(١) لا يقدح في هذا إيقاع « سخر » على « الجبال » في شأن داود ـ عليه السلام ـ وهي من جموع الكثرة ، أو « البدن » في آية آيتي الحج ؛ لأن حديثنا هنا خاص بما ورد في المحور الأول من الآيات التي تلفت أنظارنا إلى ظواهر كونية جمادية دائمة من المخلوقات العلوية والسفلية .

(٢) انظر : (هندسة النظام الكوني) : (٥١) . للدكتور : عبد الكريم خضر .

* قوة ظهور حركة التسخير .

* أما الفرق الثالث «استمرار ذواتها» فليس له فيها وجود ، وهذه الفروق ـ كلها أو بعضها ـ صالحة لإطلاق اسم المفعول «المسخر» على «السحاب» في آية البقرة .

* فهي كثيرة كثرة مستفيضة .

* وذواتها تفنى ولا تدوم .

وساغ لإطلاق اسم المفعول «مسخرات» على الطير في آية النحل :

* لأنها كثيرة كثرة لا يعلمها إلا الله .

* ولأن ذواتها تفنى ولا تدوم .

أما إطلاق اسم المفعول «مسخرات» على الشمس والقمر في آية الأعراف فله مسوغان صحيحان .

الأول : ذِكْرُها في سياق واحد مع «النجوم» التي الأصل فيها أن توصف باسم المفعول «مسخرات» في لغة القرآن ، كما أشرنا من قبل مع إيلاء «مسخرات» لـ «النجوم مباشرة» .

الثاني : أن كل ما قاله القرآن فيه «سخَّر» فهو «مسخَّر» فعلاً .

هذا ما هدينا إليه ، فإن يك صوابًا فمن الله ، والحمد لله ـ وإن يك غير ذلك فمني ، وشفيعي عند الله أني مجتهد حسن النية ، والله على ما أقول شهيد ، مبرأ من الهوى ، والله بقصدي عليم .

• منهج القرآن في «سخَّر» المشدَّد الوسط :

لن أقول جديدًا ـ هنا ـ لم أقله من قبل ، وإنما أوجز ما تقدم وبالله التوفيق .

أولاً : وردت مادة السين والخاء والراء المشددة الوسط في القرآن الكريم في صيغة الفعل الماضي «سخَّر» اثنتين وعشرين مرة ، ولم يأت منها مضارع ولا أمر ، لأن المقام يُعَيِّن التعبير بالماضي ، ويمتنع فيه ـ بلاغة وواقعًا المضارع والأمر .

ثانيًا : فاعل هذا الفعل « سخَّر » في جميع مواضع وروده هو الله وحده ؛ لأن « موضوعه » من خواص « الألوهية » وليس في مقدور أحد سواه .

ثالثًا : إسناد هذا الفعل في لغة القرآن جاء على ضربين :

أحدهما : إسناد مباشر إلى اسم الجلالة « الله » .

الثاني : إسناد إلى ضمير « الغيبة » وهو الغالب ، وإسناد إلى ضمير « التكلم » في أربعة مواضع :

رابعًا : الفعل « سخَّر » في الاثنتين والعشرين مرة جاء موزعًا على محورين:

الأول : مقصور على لفت أنظار العباد إلى نعم الله وآلائه وآياته في الكون . وتحته شقان :

(أ) خطاب عام لجميع العباد ، مؤمنهم وكافرهم .

(ب) خطاب خاص لجماعة المؤمنين .

المحور الثاني : مقصور على لفت الأنظار إلى وقائع تاريخية . وتحته شقان كذلك :

(أ) إظهار المنَّة والتأييد لبعض الرسل (داود وسليمان) ـ عليهما السلام ـ .

(ب) إحلال النقمة على بعض مكذبي الرسل (عاد قوم هود) عليه السلام .

خامسًا : وجاءت المادة اسم مفعول : (المسخر ـ مسخرات) في أربعة مواضع .

سادسًا : المواضع الأربعة التي جيء فيها باسم المفعول لوحظ فيها فروق بينها وبين ما جاء فعل ماضيًا سوغت الفعل الماضي في مواضع وروده ، واسم المفعول في مواضع وروده .

سابعًا : أن مادة (سخَّر) في القرآن الكريم مادة إنعام وتفضُّل ، حتى في تسخير الريح عَلَى « عاد » لأن في إهلاكهم قطعًا للباطل ، ونَصْرًا للحق ، ونَصْر الحق من جلائل النعم على المؤمنين .

* * *

سَخِر - يسْخَر

سَخِر المحركة الخاء مع التخفيف تشترك مع «سَخَّر» في الحروف الأصول، وهي: السين والخاء والراء، وفي مطلق الدلالة - كما سيأتي - وتختلف عنها في التعدي واللزوم، فـ «سخَّر» المشدد متعدٍ لمفعول واحد، ويتعدى للمفعول الثاني بواسطة «حرف جر» مناسب يقتضيه المقام - كما مرَّ -: «اللام»، وهو الغالب، ثم «على» في الإهلاك والانتقام.

أما «سخِر» المخفف، فلازم، وتعديته بحرف الجر «مِنْ» أما الدلالة الخاصة لكلٍّ من الفعلين فبينهما ما بين المشرق والمغرب.

وهذا ما سيظهر لنا جليًّا من واقع استعمال لغة القرآن لـ«سخِر» المخفف.

• التمثيل:

﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأنعام: ١٠).

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (التوبة: ٧٩).

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (هود: ٣٨).

﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾

(البقرة: ٢١٢).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾

(الحجرات: ١١).

﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾ (الصافات:١٢) .

﴿ وَإِذَا رَأَوْا ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ (الصافات:١٤) .

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴾ (الزمر:٥٦) .

وهذه هي المواضع التي وردت فيها « سخِرَ » مخفف الخاء في القرآن الحكيم في صيغ مختلفة[1] .

* ثلاث مرات جاءت فيها فِعْلاً ماضيًا .

* وثماني مرات وردت فيها فِعْلاً مضارعًا .

* وموضع واحد جاءت فيه اسم فاعل للمفرد المذكر ، أي أن جميع مواضع ورودها اثنا عشر .

* ويلاحظ أن الأفعال الأحد عشر لم يأت فيها ما هو مسند إلى « الله » إلا موضع واحد في سورة التوبة ، وسنعود إليه مرة أخرى .

أما بقية المواضع فمسندة إلى غير الله من مكذبي الرسل أو العصاة إلا موضعًا واحدًا أُسند فيه الفعل إلى « نوح » عليه السلام ، وذلك في آية سورة « هود » عليه السلام ، وسنعود إليه قريبًا إن شاء الله .

* كما نلاحظ أن المادة اختصت بالأسلوب الخبري إلا موضعًا واحدًا جاء على الأسلوب الإنشائي وهو آية « الحجرات » ـ ﴿ ... لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ ﴾ .

* إن هذه المادة جاءت في لغة القرآن مقصورة على مقام الذَّم وسوء الخلق ، وهذا هو الفارق الكبير بينها وبين مادة « سخَّر » المشددة الخاء ، وهذا هو السبب في خلو القرآن من إسنادها إلى « الله » أو صالحي المؤمنين .

أما الموضع الوحيد الذي جاءت فيه مسندة إلى « الله » ، فليس على ظاهره ، بل هو مشاكلة « لفظية » للفعل الذي جاءت في سياقه :

---

(١) بقيت ثلاث صور ستعرض في « النظر والتحليل » .

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، والمراد من « سخر الله منهم » جازاهم من جنس عملهم ، فسخرية الله هنا المراد منها العقاب ، وأن الجزاء من جنس العمل ، وفي هذا تبكيت للساخرين من المؤمنين .

وأما الموضع الذي جاء فيه الفعل « نَسْخَر » مسنداً إلى نوح عليه السلام ، فهو ـ كذلك ـ ليس على ظاهره ، بل المراد نعاملكم بمثل معاملتكم لنا :

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ (الشورى:٤٠).

فليس في إسناد « سخر » إلى « الله » ولا في إسناد « نسخر » إلى نوح قبح ، بل مشاكله لفظية ، والمعنى مختلف ، فالسخرية من مكذبي الرسل سوء خُلُق حقيقي ، أما من « الله » ومن نوح ، فاللفظ لفظ « السخرية » ، والمعنى هو العقاب من الله ، والمعاملة بالمثل من نوح عليه السلام .

* السخرية في القرآن فِعْل الأشرار ، ولذلك نهى الله المؤمنين عنها في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ . . ﴾ أي لا يَسْتَهْزِئ ولهذا ـ كذلك ـ يُقرِّعُ الله الأشرار يوم القيامة كما جاء في قوله تعالى :

﴿ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (المؤمنون:١٠٨-١١١).

كما أن الأشرار أنفسهم يتندَّمُون على سخريتهم واستهزائهم بعباد الله ، وقد حكى عنهم القرآن ، فقال :

﴿ وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ (ص:٦٢-٦٤).

أما قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (الزخرف:٣٢) .

فـ « سُخْريا » بضم السين ليس من الاستهزاء بـل من الاحتياج وتبادل المنافع : الغني يحتاج إلى خدمة الفقير ، والفقير يحتاج إلى مال الغني ، وأحرى بهذا الموضع أن يكون من التسخير للمنفعة المحمودة لا من « السُّخْر » بمعنى الهزء والاستخفاف ، وأيًّا كان الأمر فإن مادة السين والخاء والراء ـ مطلقة ـ تشترك في معنى مطلق هو عدم الامتناع والإباء ، ثم تفترق بعد ذلك من حيث التشديد والتخفيف ، وإذا ما استثنينا آية الزخرف ﴿ **لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا** ﴾ ، فإن « سَخِر » المخفف المكسور الخاء لا يدل إلا على سوء الخُلُق وبذاءة اللسان .

- **منهج القرآن في « سَخِر » المخفف المكسور الخاء :**

أولاً : تنوُّع استعمالها بين الأفعال ـ ما عدا الأمر ـ والصفات والأسماء .

ثانيًا : هي في لغة القرآن فعل الأشرار ولا تدل إلا على سوء الأخلاق وبذاءة اللسان .

ثالثًا : ما أُسْنِد منها إلى « الله » ـ موضع واحد ـ وما أسند إلى نوح عليه السلام ، إنما هو مشاكله لفظية ومعناه من الله : العقاب ، ومن نوح المعاملة بالمثل ليرتدعوا ويكفوا عن سخريتهم منه .

رابعًا : نَهْيُ المؤمنين عن « السخرية » بعضهم من بعض ، لأن الإيمان عمل صالح .

خامسًا : السبب في عدم ورود فعل الأمر منها لأنها من المنكرات القولية .

سادسًا : يفرق القرآن بين « سِخْريا » بكسر السين ، و« سُخْريًا » بضم السين ، فالأول منكر قبيح ، والثاني سنة لله في « عباده » لتتفاعل طاقاتهم وتنمو حركة الحياة .

* * *

السَّكِينَة ـ الشَّجَاعَة

في اللغة الفصحى ، وفي دنيا الناس كلمات لها بريق وانتشار ، وتحمل «شحنات» هائلة من الشرف وطيب السمعة ، ومع هذا فإن القرآن يخلو منها ، ولم ترد فيه ولا مرة واحدة ، مع وجود المناسبات التي يحسن ورودها فيها .

ومن هذه الكلمات «الشجاعة» وهي في اللغة الفصحى كثيرة الاستعمال ، ويُقْصَد بها قوة القلب ، والاستخفاف بالخطر ومواجهة «الصعاب» ، وقد اكتسبت كلمة «الشجاعة» هالة من النبل والشرف ، وكادت تستأثر بالدلالة على المدح في التصدي للأخطار ، وخوض غمار الخطوب ، ولم تحظ هذه الكلمة «السَّيَّارة» بشرف استعمال القرآن الحكيم لها مع تكرار معانيها فيه مدلولاً عليها بغيرها من الألفاظ .

ونبدأ الآن بهذا السؤال :

ما البديل الذي استعمله القرآن في الدلالة على معنى الشجاعة التي هجر استعمال لفظها ؟

والإجابة تتكفل بها الآيات الآتية :

● **التمثيل :**

﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾ (الفتح:٤)

﴿ لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ يُبَايِعُونَكَ تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا ﴾ (الفتح:١٨)

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ

عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة: ٤٠)

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ (الفتح: ٢٦)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾

(الأنفال: ١٥)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (الأنفال: ٤٥)

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٦، ١٤٧).

إذا دققنا النظر في هذه الآيات التي أثبتناها هنا اتضح لنا أمران :

الأول : أن القرآن الحكيم آثر في الآيات الأربع الأولى كلمة «السكينة» على كلمة «الشجاعة» وقد أضاف اللهُ عَزَّ وجَلَّ هذه السكينة إلى نفسه في قوله جَلَّ شأنه ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ ﴾ .

وفي قوله : ﴿ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أما في الآيتين الآخريين ، فقد جاءت السكينة معرفة بالألف واللام : «السكينة» .

والمراد منها مضافة وغير مضافة : الثبات ، والقرار ورباطة الجأش .

وآثر عليها «الثبات» في آية الأنفال (٤٥) :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ ﴾ (الأنفال: ٤٥) ، فالسكينة والثبات بديلان إيجابيان عن الشجاعة حيث لم يقل : أنزل الشجاعة ، وحيث لم

يقل : تشجعوا ، أما آيتا الأنفال (١٥) ، وآل عمران (١٤٦) ، فقد عُبِّر عن الشجاعة بنفي أضدادها :

﴿ **فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ** ﴾ في الأنفال : أي لا تفروا منهم ، و﴿ **فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ** ﴾ في آية آل عمران الأولى : أي ثبتوا وسكنوا ولم يجبنوا .

وهذان بديلان سلبيان عن معنى الشجاعة ، حيث نهى في الأنفال عن الفرار ، ونفى في آل عمران الضعف والاستكانة .

وفي دعاء الربيين في آية آل عمران الثانية قالوا : ﴿ **وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا** ﴾ ، وهذا بديل إيجابي ثالث ، لأنه كناية عن معنى «الشجاعة» ولم يقولوا : شجِّعْنَا وهكذا نجد القرآن في جميع الأحوال لم يستعمل لفظ الشجاعة ، مؤثرًا عليها مصطلحات أخرى أشرنا إليها وأسميناها بدائل إيجابية تحقيقًا للضبط ، هذا وجه .

أما الوجه الثاني ، فهو : إرادة معنى الشجاعة إما بالنهي عن أضدادها ، أو بنفي تلك الأضداد.

وأظهر مصطلح إيجابي يؤثره القرآن على كلمة «الشجاعة» هو «السكينة» وما دمنا عرفنا أن «الشجاعة» ليست من لغة القرآن ، فلنقل إن البدائل التي أسميناها سلبية إنما هي كنايات عن «السكينة» لا عن «الشجاعة» .

• ولماذا هجر القرآن كلمة «الشجاعة» ؟ :

الإجابة على هذا السؤال ستكشف لنا إلى أي مدى بلغت دقة اختيار كلمات القرآن ؟ وفي الإجابة إضافة جديدة إلى ترسيخ ما سبقت الإشارة إليه من أن القرآن يستخدم اللغة استخدامًا أمثل ، بل منقطع النظير في أي كلام سواه مهما بلغت جودته .

الإجابة في إيجاز :

إن مادة «سكن» حيث وردت في اللغة ، أو في القرآن ، تدل على المعاني الشريفة البريئة من أدنى المآخذ ، تأمل معناها في سياق الحديث عن صلاة النبي ﷺ لمؤتي الزكاة ، وصلاته عليهم هي دعاؤه لهم : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ (التوبة:١٠٣) .

وتأمل معناها في سياق الحديث عن الروابط الحميمة بين الأزواج :

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

وتأمل معناها في سياق الحديث عن نعم الله على عباده . ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا ﴾ (النحل: ٨٠) .

تأمل معاني المادة في هذه الآيات ـ وغيرها ـ تجدها معاني حبيبة إلى النفوس ، تشيع فيها البهجة والقرار والأريحية ، فهي مادة فضل وخير وسعادة دائمًا .

أما الشجاعة ، فعلى ما فيها من معنى شريف ، فإن شوائب مكدرة تفوح منها أحيانًا .

فهي مطية التهور والطيش إلا من رحمة الله .

وهي تطلق على نوع من الحيات قبيح المنظر ، عدواني السلوك ، ومنها ما ينسب إلى الجنون أو ما يشبه الجنون ، كل هذه «المثالب» تجدها لصيقة بمادة «شجع» في معاجم اللغة المشهورة (١) .

ولأن لغة القرآن لغة إعجاز وبراءة من كل أخْذٍ ورد ، لم يستعمل شيئًا من صيغ هذه المادة المحظوظة عند الناس ، والتي لا حظ لها في الكتاب العزيز ؛ لأنه :

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ لسان العرب : مادة : (ش . ج . ع) .

﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١).

السكينة : قوة قلب ، وثبات أقدام ، ورجاحة عقل ، واتزان تصرف ، ووضوح رؤية ، وسلامة سلوك .

أما الشجاعة فقد تؤدي إلى شدة اندفاع ، وعفوية تصرُّف ، واختلاط رؤية ، ومغبة مصير ، وبطش غير مدروس ، فاستعمال القرآن « السكينة » دون « الشجاعة » إعجاز لغوي بلاغي حافل بالدقائق والأسرار .

• منهج القرآن في «السَّكِينة» :

أولاً : استعمال كل « صيغ » المادة في المعاني الفاضلة ، والغايات النبيلة والنعم الوارفة .

ثانيًا : ورودها في القرآن عنوانًا على الثبات في الشدائد ومواجهة الأخطار ، كسبًا للمحامد في الدنيا والآخرة .

ثالثًا : تشريفها بإضافتها إلى « الله » في محكم آياته .

رابعًا : تشريفها بِجَعْل « محلها » قلب رسوله الكريم ، وقلوب صالحي المؤمنين .

خامسًا : تشبيهها بالغيث النازل من السماء على سبيل الاستعارة المكنية ، المرموز للمشبه به فيها بالفعل « أنزل » وهو حقيقة يكون للغيث المشبه به المحذوف ، وهو مصدر الحياة والرحمة والألطاف الإلهية ، والنجدة .

* * *

الفوز ـ النجاح

كلمة «نجح» تشيع بين الناس شيوع الشمس في الآفاق، ولها ارتباط وثيق بكل عمل يؤديه الإنسان، ولا يخلو يوم لم يُردَّد فيه هذه الكلمة، على أفواه النَّاس، وتغزو كل مجال من مجالات الحياة؛ إنها أكثر شيوعًا، وأكثر حظًّا، وأمس رحمًا بالواقع المعيش من كلمة «الشجاعة»؛ لأن «الشجاعة» مرتبطة بدائرة واحدة من دوائِر النشاط البشري، أما «النجاح»، فهو بمثابة خطوط العرض والطول في نسيج الحياة كلها، يرددها الساسة والعلماء، والأطباء، ورجال الأعمال، وكل قطاع بشري، فهي «الكرة» الطائِرة لا تكاد تستقر في مكان، سواء في ذلك دوائر النشاط الجاد والهازل.

ومع هذا البريق الهائل، فهي في لغة القرآن آفل نجمها، عاثر حظها، خامل ذكرها، مع كثرة المناسبات التي تقتضي ذكرها في القرآن لو كان القرآن حاطب ليل، يحشد الألفاظ حشدًا عشوائِيًّا ـ كما هو الشأن عند كثير من الناس ـ ولكنه كتاب نزل بعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، ولهذا لم يكن لـ «كلمة النجاح»، وهي فصيحة ومستعملة لغويًّا، أدنى ذكر، وقد آثر القرآن كلمات أخرى للدلالة على المعنى الذي تُفيده كلمة «النجاح» من حيث الجملة.

وهذا يسوقنا إلى سؤال هو مدخلنا للدراسة التي نمارسها في هذا المجال.

والسؤال هو: ما البديل الذي آثره القرآن الحكيم على كلمة «النجاح» ذات البريق والسحر في حياة الناس؟ [١].

---

(١) في القرآن عدة بدائِل لكلمة «النجاح» ولكننا سنركز على بديل واحد تيسيرًا للموازنة بين البديل والمبدل عنه.

الإجابة تفصح عنها الآيات الآتية :

- **التمثيل :**

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾

(آل عمران: ١٨٥) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

(الأحزاب: ٧٠، ٧١).

﴿ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (النساء: ٧٣).

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (النساء: ١٣).

﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَـٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّـٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

(المائدة: ١١٩) .

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الأنعام: ١٥، ١٦) .

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ٧٢) .

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ٨٩) .

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١٠٠) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التوبة: ١١١) .

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (يونس: ٦٤) .

﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَـٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَـٰمِلُونَ ﴾

(الصافات: ٦٠، ٦١) .

﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (غافر: ٩) .

﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الدخان: ٥٦، ٥٧) .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾ (الجاثية: ٣٠) .

﴿ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢) .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَمَسَـٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (الصف: ١٠-١٢) .

﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ (التغابن:٩) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ (البروج:١١) .

﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (الفتح:٥) .

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (التوبة: ٢٠) .

﴿ إِنِّى جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ (المؤمنون: ١١١) .

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

(النور: ٥٢) .

﴿ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾

(الحشر: ٢٠) .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴾ (النبأ: ٣١، ٣٢) .

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (آل عمران:١٨٨) .

﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(الزمر: ٦١).

تساءلنا قبل ذكر هذه الآيات ، التي سعدنا بتسجيلها هنا عن البديل القرآني لكلمة «النجاح» وقلنا إن الآيات الآتية هي التي ستحدد الإجابة عن السؤال الوارد من قبل ، والآن عسى أن يكون القارئ الكريم قد عرَف ما هو البديل بعد نظره في الآيات المذكورة .

إنها سَبْع وعشرون آية اشتركت في ذكر كلمة وردت فيها جميعها في

صياغات مختلفة ، هي البديل القرآني لكلمة «النجاح» التي لم تحظ بشرف الورود في القرآن ، فما هي تلك الكلمة التي ذُكرت في السبع والعشرين آية[1].

● الفَوز :

أجل ، هي «الفوز» فما من آية من السبع والعشرين آية إلا وقد ذُكرت فيها كلمة «الفوز» فِعْلاً أو اسمًا أو مصدراً حسبما هو واضح من نصوص الآيات .

* وبعض الآيات وردت فيها المادة مرتين ، وهما :

آية سورة «النساء» رقم (٧٣) .

وآية سورة «الأحزاب» رقم (٧١) .

وبهذا يكون عدد المرات التي وردت فيها المادة في السبع والعشرين آية تسعًا وعشرين مرة .

وليس في القرآن ـ كله ـ آيات أخرى ذُكرت فيها المادة لم نذكرها ، أي أن التسع والعشرين مرة لورود كلمة «الفوز» في صيغها المختلفة هي كل ما ورد في القرآن الكريم منها .

* وجاءت مثبتة في ثمان وعشرين مرة ، ومنفية مرة واحدة في الآية رقم (١٨٨) من سورة آل عمران ؛ لأن من ذُكرَت في سياق الحديث عنهم ليسوا أهلاً لشرف الوصف بها وقد وزِّعَتْ صيغ المادة في الآيات السبع والعشرين على النسق الآتي :

* فعلان ماضيان لا ثالث لهما ، وهما :

«فقد فاز» ، و«فقد فاز فوزًا عظيمًا» .

---

(١) الآيات المذكورة أكثر من سبع وعشرين آية ؛ لأننا ذكرنا ـ أحيانًا ، قبل وبعد الآية التي وردت فيها كلمة «الفوز» آيات أخرى ، لأن لها ارتباطًا بالمعنى المراد من كلمة «الفوز» أو تجلية المعنى المراد .

* فعل مضارع واحد لا ثاني له ، وهو : « فأفوز » .

* لم يأت منها فعل أمر ؛ لأن المادة مسوقة في الآيات في أساليب خبرية ، إلا آية آل عمران (١٨٨) ، فقد وردت في أسلوب إنشائي ، لكنها اسم لا فعل « بمفازة » .

* أما غير الأفعال فمنها أربعة عشر مصدرًا مستعملاً استعمال الأسماء ، ومعرفًا بالألف واللام (الفوز) .

* ومصدران منكران (فوزًا عظيمًا) .

* ومصدر واحد منكر مستعمل استعمال الأسماء « وكان ذلك عند الله فوزًا عظيمًا » .

* وأربعة أسماء فاعلين « الفائزون » .

* وواحد اسم مكان : ﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا** ﴾ .

* ثم اسمان مؤنثان : « مفازة » .

* لم يستعمل القرآن صيغ هذه المادة إلا في مقام الإيمان والعمل الصالح الذي يُرْجى به وجه الله ، والذي تكون عاقبته التمتع بنعيم الجنَّة ورضوان الله :

* ففي آية آل عمران (١٨٥) ، جاءت تعقيبًا على حال من زحزح عن النار وأدخل الجنة ، ونلاحظ ـ هنا ـ أنه تعالى قال : ﴿ **فَقَدۡ فَازَ** ﴾ ، ولم يصف الفوز بأي وصف مفخِّم كما جاء في الآيات الأخرى ، وترك التفخيم ـ هنا ـ فيه مطابقة دقيقة لمقتضى الحال ؛ لأن من يُزَحْزَحْ عن النار ـ يكون من مستحقي دخولها لولا رحمة الله به ، مثله كمثل الطالب الذي لا يحصل على درجات النجاح ، ولكنه قاربها فيُرأف بحاله ويمنح درجات النجاح .

وفي آية الأحزاب (٧١) ، جاءت تعقيبًا على أوصاف حميدة منها طاعة الله ورسوله .

وفي آية النساء (٧٣)، جاءت تعقيبًا على مصاحبة النبي ﷺ والمؤمنين معه.

وفي آية النساء (١٣) جاءت تعقيبًا على طاعة الله ورسوله ودخول الجنَّات .

وفي آيـة المائـدة (١١٩) جـاءت تعقيبًـا علـى الصـدق ، ودخـول الجنـات والخلود فيها ، ورضا الله عن الصادقين ورضا الصادقين عن الله .

وفي آية الأنعام (١٦) جاءت تعقيبًا على حصول رحمة الله وصرف العـذاب عن المتحدث عنهم.

وفي آية التوبة (٧٢) جاءت تعقيبًا على الاتصاف بالإيمان والوعد بالجنـات تجري من تحتها الأنهار وحلول رضوان الله بالمؤمنين .

وفي آية التوبة (٨٩) جاءت تعقيبًا على دخول الجنات والخلود فيها .

وفي آية التوبـة (١٠٠) جـاءت تعقيبًـا علـى السـبق إلى الإسـلام ، والاتبـاع بإحسان، وحلول رضوان على المؤمنين ورضاهم عن الله، والخلود في الجنات .

وفي آية التوبـة (١١١) جـاءت تعقيبًـا علـى الجهـاد في سـبيل الله بـالأنفس والأموال .

وفي آية يـونس (٦٤) جـاءت تعقيبًـا علـى بشـرى الله عبـاده الصـالحين في الدنيا والآخرة .

وفي آية الصافات (٦٠) جاءت إشارة إلى نعيم الجنة .

وفي الدخان (٥٧) جاءت تعقيبًا على الوقاية من العـذاب وحلـول فضـل الله بالمتقين .

وفي آية الجاثية (٣٧) جاءت تعقيبًا على الإيمـان والعمـل الصـالح ودخـول الجنَّات المعبَّر عنها بالرحمة .

وفي آية الحديد (١٢) جاءت تعقيبًا على الإيمان وسعي نور المـؤمنين بـين أيديهم وبأيمانهم والبشرى بالجنات .

وفي آية الصف (١٢) جاءت تعقيبًا علـى الإيمـان والجهـاد بالمـال والـنفس وغفران الذنوب والتمتع بنعيم الجنات .

وفي آية التغابن (٩) جاءت تعقيبًا على الإيمان والعمل الصالح ، والخلود في الجنات .

وفي آية البروج (١١) جاءت تعقيبًا على الإيمان والعمل الصالح .

وفي آية الفتح (٥) ، جاءت تعقيبًا على الإيمان وعمل الصالحات ، وتكفير السيئات والخلود في الجنات .

وفي آية التوبة (٢٠) جاءت تعقيبًا على الإيمان والهجرة ، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله ورفعة الدرجات .

وفي آية المؤمنون (١١١) جاءت تعقيبًا على الصبر .

وفي آية النور (٥٢) جاءت تعقيبًا على طاعة الله ورسوله وخشية الله وتقواه.

وفي آية الحشر (٢٠) جاءت تمييزًا لأصحاب الجنة على أصحاب النار .

وفي آية النبأ (٣١) جاءت تمهيدًا لتفصيل نعيم أهل الجنة .

وفي آية آل عمران (١٨٨) جاءت منفية عمن لا يستحقها من العباد .

أما في آية الزمر (٦١) ، فقد جاءت واسطة بين التقوى والوقاية من سوء العذاب والحزن .

* فأنت ترى من هذه «الإشارات» أن الفوز عند الله له ثمن عظيم ، وأنه لم يأت إلا جزاء على القيام بأصول الإيمان في العقيدة والعمل ، وفي الآيات خصائص أسلوبية آسرة ، كنا نود ـ لولا خشية الإطالة ـ أن نستجليها ، ولكنا نجتزئ بهذه الإشارات السريعة للكشف عن عظمة هذا «الفوز» في كتاب الله .

* لم يخلُ موضع من مواضعه من ذكر كبريات الفضائل كالإيمان بالله ، وطاعة الله ورسوله ، والجهاد في سبيل الله بالمال والنفس ، والصبر على الأذى في الدين ، والهجرة لنصرة دين الله .

* تفخيم الأساليب التي وردت فيها المادة ، فإذا كان الفوز هو المتحدث

عنه جاء معرَّف الطرفين لإفادة القصر ، وأنه لا فوز غيره ، وأحيانًا يجاء بضمير الفصل (هو) بين الطرفين المعرفين تأكيدًا للنسبة بينهما .

مجيء الطرف الأول (المسند إليه) اسم إشارة « ذلك » الموضوع لبُعْد المكان مستعاراً لبعد مكانه « الفوز » وتعظيمًا لشأنه .

ومن سمات تفخيم أساليب « الفوز » حرص القرآن على اتباعه بوصف فخم ، سواء كان معرَّفًا أو منكرًا .

فالمعرف وصف بثلاثة أوصاف :

وهي : العظيم ، وهو الغالب على ما عداه من أوصاف .

ثم : المبين في موضع واحد (سورة الجاثية) .

ثم : الكبير في موضع واحد كذلك (سورة البروج) .

والمنكر وصف بـ « عظيمًا » (سورة الأحزاب ، النساء ، الفتح) .

وقد حاولنا السر في تغاير الوصف بين : العظيم ـ المبين ـ الكبير ، والذي قذفه الله في قلوبنا أن تغاير الوصف هذا له دلالات وليست هذه الأوصاف بمعنى واحد .

فالوصف بـ « العظيم » تنويه بالكيفية التي عليها الفوز وتعظيم لشأنها ، والوصف بـ « الكبير » تنويه بالكمية التي عليها الفوز ، وبيان لكثرتها ، والوصف بـ « المبين » تجلية لظهور الفوز وكونه في أعلى عليين .

هذه هي بعض سمات الخصائص الأسلوبية فيما كان فيه الفوز متحدثًا عنه .

أما إذا كان الفوز حديثًا عن غيره ، أي خبرًا عن مبتدأ ، فإنه يأتي في جملة قصرية تفيد قصر الفوز على المتحدث عنهم ، وذلك ظاهر كل الظهور في المواضع الأربعة التي جاء « الفوز » فيها اسم فاعل جمع :

﴿ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ـ ﴿ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ـ ﴿ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ ـ ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

• لماذا الفوز ؟

ونخطو مع هذه الكلمة «الفوز» خطوة أخرى كاشفة عن سر إيثار القرآن لها دون كلمة «النجاح» البراقة في دنيا الناس .

وصفوة القول في الإجابة على هذا السؤال هي :

في كتب المعاجم اللغوية أن معنى فاز قطع المفازة ، وهي الصحراء المهلكة ونجا من أخطارها ، وأن العرب سمَّوْا المهلكة المفازة تفاؤلاً ، كما كانوا يطلقون على اللديغ السليم تفاؤلاً .

كما فسَّرت المعاجم فاز بنجا .

وكذلك فسَّرها مفسرو القرآن الكريم ، فهي تدل على نيل المحبوب ، والسلامة من المكروه .

ومؤدى هذا أن فاز بكل صياغاتها اللغوية لا يراد منها إلا الظفر بالمحبوب ، والسلامة من كل مكروه ، وليس في المعاني المرادة منها ما فيه شائبة من شر أو ما يضاد المنفعة الطيبة .

لذلك آثرها القرآن وجعلها عنوانًا للجزاء الحسن .

• ولماذا هجر القرآن «نجح» ؟

أما «نجح» وتصرفاتها اللغوية فتستعمل ـ كما هو الواقع ـ في الخير والشر ، والمحبوب والمكروه ، والجد واللهو ، ومن كثرة استعمالها في كل الأمور :

كبيرها وصغيرها ، عظيمها وحقيرها ، شريفها ووضيعها ، أصابها الامتهان والابتذال ، وقد رأينا القرآن الكريم يستخدم فوز ويفوز ، والفوز وفوزًا والفائزون ومفازًا ومفازة ، في أصول الإيمان وفروعه ، وفي الفضائل الأمهات ، وفي السعادة الحقة في الآخرة ، وما يقرب إليها في الدنيا من عقيدة ، وقول وعمل .

وليست «نجح» ومشتقاتها أهلاً لأن تقوم بهذه المهمة الجلية الشأن، وليس فيها من صفاء ألفاظ القرآن ما يرقى بها إلى هذه المنزلة، لأننا نقول: نجح اللص في نهب الأموال، ونجح القاتل في الهروب بعد أن ارتكب جريمته، ولا نقول: فاز اللص ولا فاز القاتل، هذه الشوائب نحَّت «نجح» وما يتفرع منها عن أن تكون «نجمًا» في سماء البيان المعجز.

• منهج القرآن في «فاز» ومشتقاتها:

أولاً: قصْرُ استعمالها على الخير الدائم، والسعادة الأبدية.

ثانيًا: إضفاء هالة ضخمة من التفخيم البياني على الأساليب التي وردت فيها صيغ المادة.

ثالثًا: توزيع استعمالاتها على الأفعال ـ ما عدا الأمر ـ والمصادر والأسماء.

رابعًا: كثرة ورودها في جُمَل «قصرية» في المصادر وأسماء الفاعلين، وتصديرها بأداة التحقيق «قد» في الفعل الماضي.

خامسًا: وصف المصادر المعرَّفة بالعظمة والكُبْر والإبانة ووصف المصادر المنكرة بالعظمة فحسب.

سادسًا: إيرادها كالشمس المضيئة مع كوكبة من الفضائل القلبية (الإيمان) والأعمال الصالحة.

سابعًا: إيرادها في الأسلوب الخبري دون الإنشائي، لأنها أحكام على سلوك عباد الله الأتقياء البررة.

ثامنًا: إيرادها مثبتة إلا في موضع واحد جاءت منفية؛ لأن من جاءت في سياق الحديث عنهم ليسوا أهلاً للوصف بها.

* * *

اللِّسان ـ اللُّغة

اللغة هي : الكلمة التي تلي كلمة « النجاح » في الذيوع والانتشار وكثرة الاستعمال ، وهي اصطلاح حادث بعد القرون الأولى التي تلت نزول القرآن ، ولم تكن موجودة في العصر الجاهلي ، ولا عصر صدر الإسلام ، وأخذ المصطلح ينمو بدءًا من القرن الثامن الهجري ، وهي ـ الآن ـ أعني اللغة ـ جنس عام يُحدَّد المراد منها إما بالوصف مثل : اللغة العربية ، أو الإضافة ، مثل : لغة العرب ، ومع ما لهذه الكلمة ـ الآن ـ من ذيوع واستفاضة استعمال ، فإن الكتاب العزيز خلا منها تمامًا باعتبارها مصطلحًا على نظام ما يطلق على أي لغة ، مفردات وتراكيب وقواعد نحوية وصرفية ، أما أصل المادة فقد ورد فيه مرات مقصودًا منه غير ما نقصده نحن الآن من كلمة « اللغة » .

وقد عوَّدنا القرآن أنه إذا هجر لفظًا أو مادة فإنه ـ في الوقت نفسه ـ يؤثر بديلاً عنها لمزايا في ذلك البديل ليس لها وجود في المُبْدل عنه ، ولشوائب في المبدل عنه ليس لها وجود في البديل ، والآيات الآتية توضح لنا الأمرين معًا :

- **التمثيل (١) :**

﴿ **وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ** ﴾ (إبراهيم:٤) .

﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ** ﴾ (النحل:١٠٣) .

﴿ **لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء:١٩٤،١٩٥) .

﴿ **وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأحقاف:١٢) .

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴾ (الروم:٢٢) .

في هذه الآيات الخمس وردت كلمة «لسان ـ لسانًا» خمس مرات ، ثم جاءت جمعًا في سورة الروم : ﴿ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ والمراد منها مفردًا هو : اللغة كما نفهمها الآن .

أما آية الروم فإن المراد من ﴿ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ ﴾ أمران :

الأول : اختلاف لغات البشر كما هو معروف الآن من تعدد اللغات بين الأمم والشعوب .

الثاني : اختلاف كيفيات الأصول من فرد إلى فرد ، حتى بين أفراد الأسرة الواحدة ، واختلاف أصوات الذكور عن أصوات النساء ، لدرجة أن دلالة الصوت على صاحبه تكاد تكون كدلالة وجهه عليه ، ذلك من آيات الله في خلقه ، وقل أن تجد اثنين يتفق صوتاهما من كل جهة .

وفي القرآن آيات أخرى بعضها يراد منه العضو أو الجارحة قطعًا ، وبعضها تصلح دلالته على كلٍّ من الصوت والجارحة ، وبعضٌ آخر منها يراد منه ما هو أخص من اللغة ، أي الذكر الحسن كما في قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ الذي حكاه عنه القرآن الأمين :

﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴾ (الشعراء:٨٤).

وقد آثرنا الاكتفاء بذكر الآيات التي تدل دلالة قاطعة على «اللغة» بمعناها العام .

فاللسان هو البديل القرآني عن كلمة «اللغة» التي لم ترد فيه قط .

وطريق استعمال اللسان بمعنى اللغة ـ بلاغة ـ هو المجاز المرسل ، والعلاقة بينهما هي : الآلية ؛ لأن اللسان هو آلة اللغة وبه تكون .

والقرينة المانعة من إرادة المعنى الحقيقي الوضعي لكلمة «اللسان» في مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ ﴾ ، هو استحالة إرادة العضو أو الجارحة ، وهي قرينة حالية عقلية ، لأن القوم لهم ألسنة لا لسان واحد .

ولأن كل فرد من قوم أي رسول لسانه لم يفارق محله من فمه ، والمصطلح القرآني للغة ، وهو اللسان ، ما يزال شائعًا في علم اللغة العام حتى الآن ، وفي مصر كلية مسماة بـ « كلية الألسن» أي اللغات .

وشبيه بهذا إطلاق اسم النهر على الماء الجاري في مكان ، والنهر في الوضع اللغوي هو المكان الذي يجري فيه الماء ، وليس الماء .

والعلاقة هي المحلية ، وهذه العلاقة « المحلية» غير منكر أن تلاحظ بين اللغة واللسان الواقع مجازًا عنها .

إذًا ، فدلالة اللسان على اللغة ذات علاقة حميمة بها وخالية من كل الشوائب ، لذلك آثرها القرآن الحكيم ، كما آثر غيرها من الكلمات ، وهو إيثار قائم على اعتبارات دقيقة وعميقة ، بل ومعدودة من سمات الإعجاز اللغوي البياني ، هذا هو جانب الكمال المطلق في إطلاق اللسان على اللغة ، والآن ندلف إلى الشق الثاني من الدراسة .

- **التمثيل (٢) :**

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦) .

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ﴾ (المائدة: ٨٩) .

﴿ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ﴾ (المؤمنون: ٣) .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشۡهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغۡوِ مَرُّواْ كِرَامٗا ﴾ (الفرقان: ٧٢) .

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص: ٥٥) .

﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ (الطور:٢٣) .

﴿ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴾

(الواقعة:٢٥،٢٦) .

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ﴾(مريم:٦٢).

﴿ لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ﴾ (النبأ:٣٥).

أقرب الألفاظ في القرآن الكريم إلى « اللغة » هو لفظ « لَغْو » ، وقد جاء هذا اللفظ في القرآن عنوانًا على نوع من الكلام ، وهذا يجعل الصلة بين « اللغـة » ، و« اللغو » صلة قريبة من جهة اللفظ ، ومن جهة المعنى .

فمن حيث « اللفظ » ، فقد اشتركا في أصلين هما : اللام والغين ، ومن حيث المعنى فإن كُلا منهما عنوان على نوع من الكلام .

ومع هذا التقارب فإن القرآن استخدم « اللغـو » في مقام الـذَّم حينًا ، وهـو الغالب ، وفي مقام ما لا يُعْتد به من الكلام حينًا آخر ، وهذا في سياق الحديث عن « الأيمان » من حيث انعقادُها أو عـدم انعقادهـا ، ويجمـع الأمـرين وصـف واحد هو :

السقوط وعـدم الاعتـداد ، وحـول هـذا المعنـى يـدور تعريـف « اللغـو » في معاجم اللغة ، فهو الكلام الساقط المُطَرَّح الذي لا اعتبار له المذموم قائِله .

« اللغو من الكلام ما لا يعتد بـه ، الـذي يُـوْرد لا عـن رويـة وفكـر فيجـري مجرى « اللَّغا » وهو صوت العصافير ونحوهـا مـن الطيـور .. وقـد يسـمى كـل كلام قبيح لغواً »[(١)] .

« ولغا الشيء يلغو لغواً ، ولغا الرجل تكلم باللغو ، وألغيته أبطلته ، وألغيته من العدد أسقطته.. » [(٢)].

---

(١) المفردات : (٤٥١) .

(٢) المصباح المنير : (٥٥٥) .

هذه الشروح اللغوية لكلمة «لَغَا يَلْغُو لَغْوًا» جارية على وفق الاستعمال القرآنى لكلمة «لَغْو» لأنها في القرآن إما كلام لا يعتد به ولا يؤاخذ عليه صاحبه، وإما كلام قبيح مرذول يجب الترفع عنه واجتنابه، وكما مرَّ بنا في الآيات فإن «اللغو» يناظر الكذب والبذاءة والإثم.

ولهذا فإن أهل الجنَّة لا يسمعون فيها شَيْئًا منه؛ لأنها دار كرامة وطُهر.

ولهذا - كذلك - مدح الله المؤمنين العازفين عن اللغو:

﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾.

﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾.

مما سبق يتبين لنا في وضوح لماذا آثر القرآن كلمة «لسان» للدلالة على ما يسمى - الآن - لغة؟

ثم ولماذا هجر القرآن كلمة «اللغة»؟ وأن ذلك كله قائِم على اعتبارات دقيقة، فكلمة «لغة» كما تقدم قريبة الشبه بكلمة «لغو» حتى قال بعض اللغويين: إن اللغة مشتقة من اللغو، وقد حذف منها «الواو» ثم عُوِّض عنه «الهاء».

لقد ضنَّ القرآن الحكيم أن يسمي البيان لغة لما تقدم، لأن البيان نعمة من نعم الله العظمى، وقد قرنه الله في كتابه، وهو يتمدح بنعمه على العباد، قرنه بنعمة الخلق وتعليم القرآن، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴾ (الرحمن: ١-٤).

وصونًا لهذا البيان من كل شائبة، أطلق عليه القرآن مصطلح «اللسان» تنزيهًا له، ورفعة لشأنه.

وغير خاف على القارئ - بعد ما تقدم - أن استعمال أصل هذه المادة (ل غ ى)، أو (ل غ و) فيما لا يُحْمَد من الأصوات أو الكلام - أسبق من

استعماله في الدلالة على «اللغة» وإن كانت هي الآن صاحبة الجلالة في الاستبداد بهذا المصطلح «المتألق في سماء البيان»، وصار «اللغو» فرعًا في شجرتها الوارفة الظلال، اليانعة الثمار.

• منهج القرآن في «اللسان»:

أولاً: اللسان في لغة القرآن هو العنوان الأثير في الدلالة على «البيان» الإنساني بكافة شعبه ومستوياته.

ثانيًا: يأتي «اللسان» في لغة القرآن للدلالة القاطعة على ما تواضع الناس على تسميته «لغة» ويأتي أحيانًا محتملاً لهذه الدلالة مع احتمال آخر للدلالة على «الجارحة» أو العضو آلة النطق مثل: ﴿ **وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى** ﴾، وأحيانًا أخرى يدل قاطعة على «الجارحة» مثل:

﴿ **لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ** ﴾ (القيامة: ١٦).

ثالثًا: العلاقة بين «اللسان»، و«اللغة» كما هي الآن هي علاقة الآلية المعروفة في المجاز المرسل، أحد قسمي المجاز اللغوي.

رابعًا: يأتي «اللسان» في لغة القرآن ـ في بعض المواضع ـ كناية عن ضعف التواطؤ بين ما يعتقده «القلب» وما ينطق به اللسان.

﴿ **يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ** ﴾ (الفتح: ١١).

خامسًا: كما يأتي للدلالة على كيفية النطق «الفردي» ووضوح الأداء:

﴿ **وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا** ﴾ (القصص: ٣٤).

إذ ليس لهارون لغة غير لغة موسى ـ عليهما السلام، بل المراد استقامة لسان هارون في النطق وطواعيته في الأداء.

سادسًا: أو كناية عن الحُبْسة، وامتناع الكلام:

﴿ **وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى** ﴾ (الشعراء: ١٣).

• منهج القرآن في «لَغَا يَلْغُو» :

أولاً : استعماله ـ في الأغلب ـ في الكلام الساقط والألفاظ البذيئة ، والثرثرة العشواء ، واللغط الفارغ .

ثانيًا : استعماله ـ نادرًا ـ في الإعذار وترك المؤاخذة في كل كلام عَفْوي غير مقصود ، وهذا في لغو اليمين والطلاق .

ثالثًا : تصويره تصويرًا منفِّرًا ومدح العازفين عنه مع الإشارة ـ مرات ـ إلى خلو دار النعيم منه لما فيه من إثم وقبح .

رابعًا : بيان أنه بضاعة الحمقى من أعداء الرسالات ، واتخاذهم منه وسيلة شيطانية للتشويش على الحق ، والغض من شأنه .

خامسًا : الضن بالبيان أن يكون «اللغو» عنوانًا له لشرف البيان وحقارة اللغو .

سادسًا : مناظرته بالإثم والكذب ، وكفى بذلك ذمًّا وضاعة .

* * *

صَعَدَ ـ يَصْعَد

صعد وبعض صورها من الكلمات التي حظيت بورودها في القرآن الحكيم ، ومرادنا من درس هذه الكلمة من حيث وردت في كتاب الله العزيز ؛ أمران : معرفة النظام الذي أوردها القرآن فيه ، ثم الفروق بين استعمالها في القرآن واستعمال كلمة « رفع » ومشتقاتها ، لما بين المادتين من رحم ماسة ، وذلك في إطار تجلية المنهج القرآني المعجز ، في استعمال المفردات اللغوية ، على غرار ما تقدم في هذه الدراسة من إضافات جدَّ جديدة ، إلى حقل الإعجاز اللغوي البلاغي للقرآن العظيم .

● التمثيل :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ ﴾ (آل عمران:١٥٣) .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٥) .

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر:١٠) .

﴿ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴾ (الكهف:٨) .

﴿ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴾ (الكهف:٤٠) .

﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ﴾

(النساء:٤٣) .

﴿ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ (الجن:١٧) .

﴿ كَلَّآ إِنَّهُۥ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴾ (المدثر:١٦،١٧).

هذه الآيات الثماني هي كل ما جاءت فيه مادة الصاد والعين والدَّال من آي الكتاب العزيز .

* وتردد ورودها بين الأفعال والأسماء ، فالأفعال ثلاثة كلها أفعال مضارعة.

الأول : من « أصعد » ـ « إذ تُصعدون » مزيد بالهمزة .

والثاني : من « تَصعَّد » ـ « كأنما يصَّعَّد » مزيد بالتضعيف .

والثالث : من « صَعَدَ » ـ « إليه يَصْعَد » مجرد ثلاثي .

* هذه الأفعال الثلاثة استعملتها لغة القرآن وفق منهج خاص بها ، وهو :

(أ) إذا كان الفعل المضارع مصوغًا من فعل ماض لا مجرد استُعْمِل الفعلُ المضارع في مقام المخالفات ، وهي هنا ـ أعني المخالفات ـ نوعان :

* العتاب الزاجر عن مخالفة وقعت من المؤمنين ، وقد استُعْمِل فيها المضارع المزيد ماضيه بالهمزة « إذ تُصعدون » من « أصعد » إذا بَعُد .

وذلك لأن هذه الآية نزلت ضمن آيات تُعقِّب على ما حدث من بعض أصحاب النبي ﷺ في غزوة أُحُد ، حين ترك بعض الرماة أماكنهم التي ندبهم إليها النبي ، وانضموا إلى أرض المعركة ، لجمع الغنيمة لما تحقق النصر للمؤمنين في الجولة الأولى ـ مخالفين أمر القائد ـ فكرَّ المشركون بعد فرٍّ منتهزين فرصة ترك الرماة مواقعهم ، ففرَّ من الصحابة من فرَّ ناجين بأنفسهم ، وثبت من ثبت ووقع ما لا يحمد عقباه[1] .

وأصعد : أبعد في الأرض ، أي سار سيرًا بعيدًا عن المكان الذي كان فيه ، وهو ـ في الآية ـ أرض المعركة ، أما : ﴿ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ ﴾ أي

(١) انظر في ذلك كتب التفسير في شرح هذه الآية ، أو تفسير النسفي : (١٨٧/١) ، وما بعدها .

لا تلتفتون وراءكم ، أو أن كل واحد اهتم بإنجاء نفسه تاركين القائد ﷺ ومن ثبت معه أمام العدو في الجولة الثانية ـ وهم قلة ـ وراء ظهورهم ، فالقرآن يذكرهم بما وقع منهم مما لا ينبغي وقوعه من مثلهم في مثل المقام الذي كانوا فيه مع صاحب الدعوة ﷺ .

وقد أطلقنا على هذه المخالفة وما ورد فيها من الوحي عتابًا زاجرًا ، لأن الخطاب فيها موجَّه للمؤمنين .

أما النوع الثاني : من المخالفات ، فقد استعملت فيه المادة في مقام الذَّم القادح ، والوعيد الفادح ، وهذا النوع استُعْمِل فيه الفعل المضارع « يصَّعَّد » المزيد ماضيه بالتضعيف « صَعَّد » .

وقد جاء هذا الفعل في سياق الحديث عن « الضالين » وهم غير المؤمنين بدليل قوله تعالى في وصف هذا الفريق :

﴿ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

وجاء الفعل « يصَّعَّد » أحد طرَفي صورة تشبيهية لضيق صدر الضال :

المشبه فيها هو ضيق صدر الضال ، والمشبه به الصورة الحاصلة من الإعياء وضيق التنفس عند من يحاول تطاول السماء ، فيدفع بنفسه إلى أعلى ثم يسقط ثم يدفع بها ثانية ، ثم يسقط فيجهد نفسه في غير طائل ولا يصيبه إلا الإعياء واللهث ، والحيرة والارتباك[1] ، وبناء الفعل « يصَّعَّد » يدل بصورته وجرسه على شدة المعاناة ، التي يُمْنى بها من يحاول هذه المحاولة المتعسفة ، فالكلمة في ذاتها فيها مشقة على اللسان في التلفظ حاصلة من توالي التضعيفين في الصاد والعين إذا ما قيست بـ « يَصْعَد » الذي هو الأصل ، فاللسان يرتفع ثم

---

(١) في قوله تعالى : ﴿ يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ إعجاز علمي حيث أشار إلى ما يصيب المتصعد من اختناق التنفس خارج الغلاف الهوائي الخالي من الأكسجين ، وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للناس وقت نزول القرآن ، وإنما عرفت في العلم الحديث بعد إشارة القرآن إليها بأربعة عشر قرنًا .

يسفل ثم يرتفع في سهولة ويسر في النطق بـ « يَصْعَد » أما في « يَصَّعَّدُ » ، فيرتفع ثم يسفل ، ثم يرتفع ثم يسفل ثم يرتفع قبل أن يصل إلى الحرف الأخير « الدال » في الكلمة ، مع الجهد المبذول في موطنَي التضعيف .

ففي الفعل « يصَّعَّدُ » دلالة على التكلف ومحاولة ما لم تجربه الطباع من التعالي المستحيل .

هذا هو منهج القرآن في الفعل المزيد بنوعيه ، أما الفعل المجرد « يصْعَد » وهو الوحيد من المادة في القرآن ، فقد خصه القرآن الكريم بمقام الطاعة عكس الفعلين الأولين :

﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ﴾ .

والكلم الطيب ، وإن فسره بعض العلماء بكلمة التوحيد ـ يشمل الكلام الطيب كله كقراءة القرآن ، وتعليم العلم ، والنصح الخالص لخواص الناس وعوامهم ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وقد أسند الفعل « يصعد » إلى الكلم الطيب ، فهو يصعد إلى الله بنفسه تعظيمًا لشأنه ، وترغيبًا فيه ، والصعود ـ هنا ـ مستعار لسرعة قبوله عند الله ، والإثابة عليه .

● الأسماء الواردة من « المادة » :

أما الأسماء الواردة من المادة ، وهي :

« صعيد » على وزن « فعيل » أربع مرات .

و« صعودًا » على وزن « فعول » مرة واحدة .

و« صعدا » على ون « فَعَل » مرة واحدة كذلك .

فإن للغة القرآن فيها نظامًا بديعًا آخر ، وهو :

* لاحظنا أن الأساس الذي بُني عليه منهج القرآن في الأسماء التي وردت

فيه من مادة الصاد والعين والدَّال ، هو : التفرقة بين ما جاء منها وصفًا وما جاء موصوفًا .

* فالذي جاء منها وصفًا ، وهُوْ كلمتان ، خصهما القرآن بمقام الحديث عن سوء المصير في الآخرة ، هكذا :

* ﴿ **سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا** ﴾ أي عقبة شاقة من العذاب ، فالموصوف محذوف ، وأقيم الوصف «صعودًا» مقام المحذوف ؛ لأنه محط النظر ، فالعقبة ، وهي الموصوف المحذوف ـ قد تكون يسيرة وقد تكون عسيرة .

أما «الصَّعُود» فهو المشقة الشديدة ، هكذا قال المفسرون ، وهكذا ذكرت كتب اللغة حكاية عن العرب[1] .

والآية الثانية :

* ﴿ **وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا** ﴾ أي مؤلمًا شاقًّا .

* أما ما جاء موصوفًا ، وهو «صعيد» أربع مرات فقد وزِّع على ضربين :

– ما كان الوصف فيه مقبضًا : وقد وقفه القرآن على الإنذار والتهديد ، وهما موضعان في سورة الكهف :

* ﴿ **صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ أي : قفرًا لا ماء فيه ولا نبات[2] .

و﴿ **صَعِيدًا زَلَقًا** ﴾ أي مهيلاً رخواً تغوص فيه الأقدام ويستحيل المشي فيه[3].

والوصفان ـ كما ترى ـ مقبضان منكدان متعسان .

– وما كان الوصف مبهجًا مشيعًا للسعادة في النفوس ، وهو آيتان كذلك :

﴿ **صَعِيدًا طَيِّبًا** ﴾ في سورتي النساء والمائدة ، والوصف «طيب» وصف مُبْهج كما ترى .

---

(١) راجع في تفسير هذه الكلمات كتب اللغة كلسان العرب مادة (ص ع د) .

(٣،٢) راجع في تفسير هذه الكلمات كتب اللغة ، كلسان العرب مادة (ص ع د) ، وكتب التفسير (سورة المدثر).

• السر البلاغي في اختلاف الوصف :

اختلف الوصف في آيتي النساء والمائدة عن الوصف في آيتي المدثر والجن لداع بلاغي ملحوظ .

ففي آيتي الكهف كان المقام مقام إنذار وتهديد : في الآية ﴿ **صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ أعقبت الآية آياتٍ قبلها تحدثت عن ضلال بعض الفرق ، واغتمام الرسول ﷺ منهم :

﴿ **وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝٥ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا** ﴾ (الكهف: ٤-٨) (١) .

والآية الثانية جاءت تعقيبًا من الرجل المؤمن على كفر صاحبه صاحب الجنتين :

﴿ **وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۝٣٤ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ۝٣٩ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ۝٤٠ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا** ﴾ (الكهف: ٣٤-٤١).

---

(١) وباخع نفسك : أي قاتلها بالغم والهم على كفرهم . و« هذا الحديث » : يعني : القرآن الكريم .

هذان هما المقامان اللذان وُصِفَ فيهما «صعيداً» بالجرز والزلق ، إنهما مقاما كفر وافتراء على الله ، وجحد بنعمته ، فجاء الوصفان مطابقين لمقتضى الحال ، ولكل مقام مقال .

أما آيتا النساء والمائدة ، فالخطاب فيهما للمؤمنين : ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ** ﴾ وموضوع الآيتين هو الحث على التطهر للصلاة ، والصلاة والطهارة اللازمة من الأعمال التي يزكو بها المؤمن عند الله ، والآيتان هما :

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا** ﴾ (النساء:٤٣)

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ** ﴾ (المائدة:٦).

في هذا المقام المفعم بشذا الإيمان ورياح الجنة جاء وصف «الصعيد» بـ«الطيب» في الآيتين معًا ، وبهذا الوصف تمت النعم ووجب الشكر .

• منهج القرآن في «صعد» ومشتقاتها :

أولاً : لم يأت منها فعل أمر ولا ماض ، بل ثلاثة أفعال مضارعة ، اثنان مزيدان : أحدهما بالهمزة ، والثاني بالتضعيف ، وهما مقصوران في القرآن على مقام المخالفات .

* العتاب مع المؤمنين وخُصَّ به المزيد بالهمزة « تُصْعِدُون » ، والذم القادح والتهديد الفادح مع « الضالين » وَخُصَّ بهِ المزيد بالتضعيف : « يَصَّعَّد » .

وواحد مجرد وخص بالترغيب في القول الحسن « يَصْعَدُ » .

ثانيًا : وورد منه في القرآن ستة أسماء انتظمها المنهج الآتي :

ما جاء منها وصفًا خُصَّ بالحديث عن سوء المصير في الآخرة .

وما جاء منها موصوفًا فما كان في سياق الحديث عن الكفر والافتراء على الله وجحد نعمته كان الوصف مقبضًا مؤلمًا منذرًا بما لا تحمد عقباه .

وما كان في سياق الحديث عن المؤمنين ، وفي مسائل التشريع جاء الوصف مبهجًا مُسْعِدًا .

ثالثًا : ما صيغ من المادة اسمًا على وزن « فعيل » اختُصَّ بالدلالة على المكان .

وما صيغ منها اسمًا على « فعول » أو « فَعَل » اختص بما يستحقه الكافرون في الآخرة من العذاب الأليم .

رابعًا : المضارع في « إذْ تُصعِدُون » جيء به حكاية حال ماضية وتصويرًا لها بصوره ما يقع الآن .

أما « يَصَّعَّد » فقد جيء به مضارعًا هكذا ؛ لأن العبارة مثل مضروب للكافر يصلح لكل زمان.

وأما « إليه يصعد الكلم » ، فقد أوثر فيه المضارع على الماضي لأن الكلم الطيب لا يخلو منه زمان ، فقد صعد من قبل ، وهو يصعد الآن ، وسيظل يصعد ما دام في الدنيا مؤمنون يوحدون الله ويتلون كتابه ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويدعون إلى الخير .

ولو قيل : صعد الكلم الطيب ، لأوهم أن باب الصعود قد أُغْلِق ، والله هو العليم بسر كتابه .

* * *

رَفَع ـ يَرْفَعُ

في مقدمة مادة الصاد والعين والدَّال ، قلنا إن لنا في تلك المادة مطلبين :

الأول : معرفة منهج القرآن في استعمال مادة (ص . ع . د) ثم الموازنة بينها وبين مادة (ر . ف . ع) ـ بعد معرفة منهج القرآن فيها كذلك ـ لأن بين المادتين اتفاقًا واختلافًا : الاتفاق في أن كلا منهما يدل على حركة صاعدة من أسفل إلى أعلى ، أما الاختلاف فالذي نستطيع ذكره الآن ، أن مادة (ص . ع . د) تأتي متعدية بنفسها ، وقد تُعدَّى بحرف جر مناسب ، مثل صعدت المنبر ، وصعدت على المنبر ، وصعد الجبل وصعد في الجبل .

أما مادة (ر . ف . ع) ، فمتعدية بنفسها ، وأحيانًا يأتي بعدها منصوبان ، كقوله تعالى :

﴿ **وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ** ﴾ (البقرة:٢٥٣) .

فقد تعدى « رفع » إلى مفعوله الأول « بعضهم » بنفسه ، أما « درجات » ، ففيها عند النحاة ستة أوجه ، أحدها : أنه مفعول ثان لـ « رفع » ، وعلى هذا فإن « رفع » يتعدى بنفسه إلى مفعولين[1] .

ولنأخذ ـ الآن ـ في التمثيل ثم النظر .

• التمثيل :

﴿ **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ** ﴾ (البقرة:٢٥٣) .

﴿ **وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ** ﴾ (الأنعام:١٦٥) .

---

(١) انظر الدر المصون للسمين الحلبي : (٥٣٦/٢) .

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ (يوسف: ١٠٠) .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ (الرعد: ٢) .

﴿ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴾

(النازعات: ٢٧، ٢٨).

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾ (البقرة: ٦٣) .

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ ﴾ (النساء: ١٥٤) .

﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾

(الزخرف: ٣٢) .

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ (الشرح: ٤) .

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(الأعراف: ١٧٦) .

﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ (مريم: ٥٧) .

﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (النساء: ١٥٨) .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ (الرحمن: ٧) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ ﴾ (الحجرات: ٢) .

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ﴾

(الأنعام: ٨٣) .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف: ٧٦) .

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِۦمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ ﴾ (البقرة: ١٢٧) .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ (المجادلة: ١١) .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ﴾ (فاطر: ١٠) .

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ (الغاشية: ١٨) .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ (النور:٣٦) .

﴿ خَافِضَةٞ رَّافِعَةٌ ﴾ (الواقعة:٣) .

﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران:٥٥) .

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ ﴾ (غافر:١٥) .

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ (الطور:٥) .

﴿ وَفُرُشٖ مَّرۡفُوعَةٍ ﴾ (الواقعة:٣٤) .

﴿ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴾ (عبس:١٤) .

﴿ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴾ (الغاشية:١٣) .

هذه ثمان وعشرون آية وردت فيها مادة الراء والفاء والعين في صياغات مختلفة : منها أربعة عشر فعلاً ماضيًا ، ثلاثة عشر منها مُسْنَد إلى « الله » ، واحد إلى اسم الجلالة مظهرًا ، واثنا عشر إلى الضمائر العائدة إليه .

وهذه ـ بدورها ـ نوعان : الأول : ضمائر التكلم في سبعة أفعال .

الثاني : ضمائر الغيبة في خمسة أفعال .

وموضع واحد أسند فيه الفعل الماضي إلى غير الله ، وهو :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ، أي يوسف ـ عليه السلام .

وفعل ماضي واحد بُنِي لما لم يُسَمَّ فاعله ، بيد أن المقام يفيد إسناده إلى الله يقينًا ، وهو : ﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾ والرافع هو الله .

* وسبعة أفعال مضارعة :

منها أربعة مسندة إلى الله مظهرًا ومضمرًا ، المسند إليه مظهرًا فعل واحد ، هو :

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ . . ﴾ .

وثلاثة أفعال مسندة إلى الضمير المكنى به عن اسم الجلالة ، وفعل واحد مسند إلى ما لم يُسمَّ فاعله ، وهم المؤمنون في قوله تعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ . . . ﴾ ، يعني تُبْنَى وتشاد ، وبانوها والذاكرون اسم الله فيها هم المؤمنون .

* وسبعة أسماء على النحو الآتي :

* صفة مشبهة باسم الفاعل مجراة على الله سبحانه وتعالى : ﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ .

* واسما فاعل أحدهما مُجْرَى على الله سبحانه في قوله تعالى لعيسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ . . . ﴾ .

والثاني جاء وصفًا ليوم القيامة : ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

* وأربعة أسماء مفعول :

- واحد وصف للسماء : ﴿ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴾ .

- وواحد وصف لنعيم الجنة : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ (١) .

- وواحد وصف للصحف في أيدي الملائكة : ﴿ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ .

- وواحد وصف لسرر الجنة : ﴿ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴾ (١) .

* هذه الصيغ جميعًا وردت مثبتة ، إلا فعلاً مضارعًا واحدًا جاء منهيًّا عنه وهو قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ . . ﴾ .

* وفعلاً ماضيًا واحدًا جاء مثبتًا لفظًا منفيًّا معنًى ، وهو :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ ، فهو لفظًا مثبت ، وإثباته مؤكد باللام .

---

(١) المراد بـ «الفرش المرفوعة» الحور العين ، بدليل قوله تعالى عقب هذه الآية : ﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴾ ، والعرب كانت تكنى عن النساء بالفرش .

وهو معنى منفي لعدم تعلق مشيئة الله الواقعة فعل الشرط بتحقيق هذا الرفع ؛ لأن جواب « لو » يمتنع لامتناع شرطها .

* السبب في خلو المادة - هنا - من فعل الأمر أنها وردت في أساليب خبرية لا إنشائية ، ما عدا آية الحجرات التي كان الأسلوب الإنشائي فيها نهيًا ، والنهي لا يتسلط على الفعل الأمر .

هذا ، وقد وُظِّفَتْ صور المادة في جميع مواضعها القرآنية للدلالة على المعاني الآتية :

- لفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية ، مثل :

﴿ . . رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ .

﴿ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴾ .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴾ .

﴿ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ﴾ .

- الامتنان والتفضل ؛ مثل :

﴿ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ - ﴿ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ - ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ ﴾ - ﴿ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ ﴾ .

- الإلماح إلى بعض الوقائع التاريخية ؛ مثل :

﴿ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ ﴾ - ﴿ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا ﴾ ، ﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ ﴾ ، ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ﴾ ، أي رفع يوسف أبويه .

- الترغيب والعِدة الحسنة ؛ مثل :

﴿ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ ، ﴿ . . وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾ ، ﴿ فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ﴾ ، أي الجنة .

﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴾ ، ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ ﴾ .

﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ يعني الحور العين .

– التمدح بجلال الله وكمال سلطانه :

﴿ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ ، ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

– التخويف والإنذار :

﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ .

– التوجيه والإرشاد :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ .

– تردد المادة بين الحقيقة والمجاز :

الأمثلة التي ذكرناها بالنسبة للحقيقة والمجاز جاءت على ثلاثة أقسام :

الأول : الحمل على الحقيقة يقينًا :

وضابطه أن يكون معمول الرفع جسمًا ماديًّا ، مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ . . . ﴾ .

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴾ .

الثاني : الحمل على المجاز يقينًا :

وضابطه أن يكون معمول الرفع أمرًا معنويًّا ، مثل :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

﴿ . . . وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ ﴾ .

الثالث : جواز الحمل على الحقيقة أو المجاز :

وذلك إذا أخبر عن جسم مادي أو وُصِف بالرفع ، ومن صوره قوله تعالى في شأن إدريس ـ عليه السلام : ﴿ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ .

فعلى من ذهب إلى أن الرفع ـ هنا ـ هو شرف النبوة يكون الرفع مجازًا استعاريًّا العلاقة فيه قوة الظهور .

وعلى من ذهب إلى أن الرفع كان بجسم إدريس إلى السماء الرابعة تكريمًا له لكثرة عبادته يكون الرفع حقيقيًّا[1] .

ومن صوره ـ كذلك ـ قوله تعالى في وصف الحور العين : ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ .

فإذا أريد بالرفع الصون والشرف كان الرفع مجازًا ، وإذا أريد به الارتفاع عن الأرض كان الرفع حقيقيًّا .

استعملت المادة في القرآن في المعاني المحبوبة سواء كانت مثبتة أو منهيًّا عنها أو مشوبة بشيء من النفي[2] .

وهذا على عكس « صعد » فإن استعمالها في المعاني غير المحبوبة كان بنسبة ٦ : ٣ .

والسبب أن مادة « رفع » لم تستعمل في اللغة إلا في معاني النبل والشرف كرفعة النسب والجاه ، فهي مثل مادة « ربط » في اختصاصها بالمعاني الحميدة ، والصفات الشريفة .

لهذا وصف الله نفسه باسم الفاعل منها « رافعك » ، والصفة المشبهة باسم الفاعل « رفيع الدرجات » كما أسند أفعالها ماضية ومضارعة إلى ذاته العلية مرات .

أما « صعد » فلم يأت منها فعل واحد مسندًا إلى الله ولا وصف بها نفسه قط .

---

(١) انظر تفسير النسفي : (٣/٣٩) .

(٢) لأن النهي في قوله تعالى : ﴿ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾ توجيه وإرشاد إلى حسن التأدب مع صاحب الرسالة ﷺ .

هذا هو منهج القرآن في انتقاء الألفاظ ووضع كل لفظ موضعه من البلاغة المعجزة ، والإعجاز البليغ فسما فوق كل نقد ، وعلا فوق كل بيان .

• منهج القرآن في «رفع» ومشتقاتها :

أولاً : كثرة استعمالاتها وتعدُّد أبنيتها الصرفية .

ثانيًا : انتظام ورودها في أساليب خبرية إيجابية ، إلا في موضع واحد مختص بالإرشاد والتشريع .

ثالثًا : إسنادها إلى «الله» ظاهرًا ومضمرًا إلا في ثلاثة مواضع من ثلاثين موضعًا ، وغلبة إسنادها إلى الضمائر الإلهية .

رابعًا : اطِّراد استعمالها في المعاني المحبوبة ، ولفت الأنظار إلى بعض آيات الله الكونية .

خامسًا : تعدُّد الأغراض البيانية التي استُعْمِلَتْ فِي تأديتها كالتشريع والإلماح التاريخي ، والترغيب والتمدح بجلال الله .

سادسًا : تردُّد دلالاتها بين الحقيقة والمجاز ، أو احتمال الأمرين في بعض المواضع .

سابعًا : المعنى العام للمادة في القرآن الكريم هو : السمو واكتساب المحامد .

* * *

الدُّعاء ـ النِّدَاء

الدعاء والنداء من الكلمات القرآنية ، وهما تشتركان في طلب الإقبال من المدعوِّ والمنادَى ، وكان هذا الاشتراك حريًّا بأن يكونا في لغة القرآن متساويين لا تفرقة بينهما ، لكن استقراء مواضع ورودهما في القرآن الحكيم يكشف عن فروق دقيقة بينهما ، فهذه فيه غير تلك ، وتلك غير هذه ، وأن لكل منهما مقامًا خاصًّا بها ، هذا ما ستكشف عنه الآيات الآتية ، مع البدء بالدعاء ثم نتبعه النداء تيسيرًا للبحث[1] .

● **التمثيل : (م أ) :**

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ (آل عمران:٣٨) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ﴾ (الزمر:٨) .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ (القمر:١٠) .

﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ (لقمان:٣٢) .

﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ﴾ (الدخان:٢٢) .

﴿ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ﴾ (فصلت:٣٣) .

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِي ﴾(إبراهيم:٢٢).

﴿ وَقِيلَ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ فَدَعَوۡهُمۡ فَلَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُمۡ ﴾ (القصص:٦٤) .

﴿ وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (مريم:٤٨) .

---

(١) في التمثيل للدعاء نقسم الآيات مجموعين : أ ، ب لهدف سنعرفه فيما بعد .

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ (غافر: ٤١).

● **التمثيل ، (م ب) :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ ﴾ (الأنفال: ٢٤) .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴾ (الروم: ٢٥) .

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (يونس: ٢٥) .

﴿ أَفِي ٱللَّهِ شَكّٞ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَدۡعُوكُمۡ لِيَغۡفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُؤَخِّرَكُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ﴾ (إبراهيم: ١٠) .

﴿ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الإسراء: ٥٢) .

﴿ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٢١).

في المجموعة (أ) ، كان طرفا الدعاء : المدعو والداعي مختلفين ، فحينا الداعي هم الناس والمدعو هو الله ، وهذا هو الأصل في الدعاء .

وحينًا كان الداعي والمدعو هم الناس بعضهم بعضًا .

وحينًا كان الداعي هم الناس والمدعو هم الأصنام .

وحينًا كان الدَّاعِي هو الشيطان والمدعو هم الناس .

ومن ينظر في الآيات نظرة فاحصة يتبين له صدق ما ذكرناه .

والدعاء لابد فيه من افتقار الداعي إلى المدعو ، وهذا في القسم الأول ـ دعاء الناس الله ـ ظاهر لا يحتاج إلى بيان وإذا دعا الشيطان الناس فلأنه مفتقر إلى تضليلهم وتزيين الباطل لهم وإغوائهم ليكونوا رفقاءه في النار ، كما قال عَزَّ وجَلَّ :

﴿ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ (فاطر: ٦).

وإذا دعا الناس الأصنام فلاعتقادهم الباطل أنها تنفع وتضر كما قال سبحانه:

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ (يس:٧٤،٧٥) .

وإذا دعا الناس بعضهم بعضًا فلحاجة في نفس الداعي إلى المدعو ، فدعاء آل فرعون لمؤمنهم الذي سجله القرآن الأمين في قوله تعالى :

﴿ وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ (غافر:٤١).

فلحاجة في أنفسهم ، هي صد الرجل المؤمن عن إيمانه واتباعه ملتهم الفاسدة .

وهكذا فإن الدعاء لا ينفك عن افتقار الداعي إلى المدعو ، في أي صورة كان ذلك الافتقار .

وقد يُنحَرَف بالدعاء حين يكون معناه عبادة المدعو غير الله ، أو يكون معناه زعم وجود آلهة غيره ـ عَزَّ وجَلَّ ، وهذان المعنيان واردان على جهة الإبطال في القرآن الحكيم ، ومن شواهده قول أصحاب الكهف يشنعون على قومهم : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾ (الكهف:١٥) .

وقبل هذه الآية قالوا نافين عن أنفسهم ضلال قومهم :

﴿ لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ (الكهف:١٤).

وقال الحق لرسوله ﷺ ولكل عاقل يحترم عقله : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (يونس:١٠٦).

هذا هو شأن الدعاء :

* منه ما هو حق كدعاء المؤمن ربه أن يجلب له خيراً ، أو يدفع عنه شرًّا ، وأن الداعي هو المستفيد من الدعاء لا المدعو .

* ومنه ما هو شرك وضلال ، كدعاء غير الله لجلب النفع ودفع الضر .

* والأصل في الدعاء أن يكون من الأدنى إلى الأعلى ، ولهذا كان لا ينبغي أن يكون الدعاء فِعْلاً لله هو فاعله ، لأن الله غني عن العالمين ، وهو رب السموات والأرض رب العالمين ، لا يعلو على شأنه شأن ، فالدعاء ينبغي أن يكون فِعْلاً لغير الله ، وأن يكون هو المدعو والطرف الأعلى فيه .

فكيف ساغ في المجموعة (ب) من الآيات أن يصدر الدعاء من الله ؟ وأن يكون هو فاعل الدعاء .

تعال معي ننظر في مجموعة (ب) من الآيات :

* في الآية الأولى (الأنفال : ٢٤) كان المترتب على استجابة الدعاء من الله ورسوله هو إحياء المدعوين بطاعة الله ورسوله .

* وفي الآية الثانية (الروم : ٢٥) كان المترتب على دعوة الله هو خروج الناس من القبور .

* وفي الآية الثالثة (يونس : ٢٥) كان متعلق الدعاء هو العمل لدخول الجنة (دار السلام) .

* وفي الآية الرابعة (إبراهيم : ١٠) كان متعلق الدعاء هو غفران ذنوب المدعُوِّين وإطالة حياتهم .

* وفي الآية الخامسة (الإسراء : ٥٢) كان المترتب على الدعاء هو البعث من القبور وإحياء الموتى للحساب .

* وفي الآية السادسة : (البقرة : ٢٢١) كان متعلق الدعاء هو التمتع بنعيم الجنة ومغفرة الذنوب .

فالدعاء في هذه الآيات صادر من الله العلي العظيم والله هو فاعله .

وليس في هذا ما يمس قدسية الله ، أو ينافي الكمال الإلهي المطلق ، كيف ؟

أولاً : لأن الدعاء المسند إلى الله في هذه الآيات إنما هو «دعوة» غني قدير . وقد صرَّح بذلك القرآن نفسه في آية الروم .

﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ ، والفرق بين الدعوة والدعاء ، أن الدعاء ملازم للافتقار ، أما الدعوة فقد ـ وقد للتكثير ـ تكون من غَنِيّ .

ثانيًا : الدعاء المسند إلى « الله » النفع فيه عائد على المدعو وليس على الداعي ؛ لأنه غني عن كل شيء .

فالله هو رب الجنة ورب المغفرة ، ورب الفضل كله ، يدعو الناس ليتفضل عليهم من فضله الواسع ، ويغفر لهم ويرحمهم .

ثالثًا : أن الدعاء في آيتي الإسراء والروم دعاء هيمنة وقدرة وسعة سلطان ، يدعو الناس ليعودوا كما خلقهم أول مرة ، فيثيب المحسن ، ويجازي المسيئ يوم يقوم الحساب ، فانظر إلى هذا « الاحتراس » البليغ في كل المواضع التي أسند فيها الدعاء إلى الله ، ليتضح الفرق جليًّا بين دعاء المفتقر الضعيف ، ودعاء الغني القوي .

ثم تأمل الإحكام في لغة القرآن كيف كان ؟

إن القرآن ـ كله ـ ناهج منهج السلامة في ألفاظه وتراكيبه ومعانية ، وهذا هو الإعجاز بمعناه العام ، والذي نحاول ـ نحن ـ تجليته هنا لبنات في صرحه الشامخ ، وقطرات من فيضه العميم .

إن الاحتراس الذي لفتنا الأنظار إليه في الآيات الست أحد طريقين للقرآن في تنزيه الله عما لا يليق بجلاله من إسناد الدعاء إليه .

ولدينا طريق ثان سنعرض له في مبحث النداء والدعاء بعد قليل .

• منهج القرآن في الدعاء :

أولاً : الأصل فيه أن يكون فِعْلاً لغير الله لما يدل عليه الدعاء من افتقار الداعي إلى المدعو ، وكونه من أدنى إلى أعلى .

ثانيًا : ما أسند في القرآن من الدعاء إلى الله إنما هو دعوة لا دعاء ويدل على أمرين :

(أ) أن المستفيد هو المدعو لا الداعي .

(ب) أن يكون من سمات الهيمنة ومقدورات الألوهية كدعوة الموتى للبعث والحساب .

ثالثًا : جاء استعمال القرآن للدعاء كثيرًا ، والدعاء المشروع فيه هو دعاء الناس ربهم الذي بيده ملكوت كل شيء .

رابعًا : يأتي الدعاء ـ أحيانًا ـ في القرآن مرادًا به الاستعانة بغير الله أو عبادته ، ومنهج القرآن فيه إما الحكاية عن بعض المشركين ، أو النهي عنه ـ ابتداء ـ من غير حكاية .

خامسًا : اشتمل الدعاء الوارد في القرآن على الأقسام الأربعة الآتية :

(أ) دعاء المؤمن ربه ، وهذا الدعاء عبادة حقة يثاب عليها فاعلها .

(ب) دعاء المشركين أصنامهم ومعبوديهم ، وهذا كفر وإلحاد .

(جـ) دعاء الناس بعضهم بعضًا وهو مذموم ، فإذا صاحبه اعتقاد أن المدعو يملك النفع والضر فهو شرك .

(د) دعاء الشيطان الناس ليكونوا من أصحاب السعير .

سادسًا : ثم الدعاء بمعنى الدعوة إلى الله ، وهذا عمل قامت به الرسل ، ويقوم به الدعاة في كل عصر ، وهو عمل طيب يثاب عليه فاعله .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت:٣٣) .

* * *

النِّدَاءُ ـ الدُّعَاءُ

الأصل في النداء أن يكون برفع الصوت ، فهو أخص من الدعاء ، والنـداء في المعاجم هو الدعاء ؛ لأن المطلوب بكل منهما الإقبال نحو المنادِى ، أو الـداعِي سواء كان الإقبال بالانتقال الجسدي أو بالانتباه الذهني .

وقد مرَّ بنا منهج القرآن في الدعاء ، ونريـد ـ الآن ـ أن نعـرف مـنهج القـرآن في النداء ، والتفرقة القرآنية بينهما كيف تكون .

وكما قسمنا آيات التمثيل في الدعاء إلى مجمـوعتين نسـلك المسـلك نفسـه في آيات النداء تيسيرًا للدراسة .

- **التمثيل : (م أ) :**

﴿ **وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ** ﴾ (الشعراء: ١٠) .

﴿ **هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥ إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى** ﴾ (النازعات: ١٥، ١٦) .

﴿ **وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ** ﴾ (الأعراف: ٢٢) .

﴿ **وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةً مِّن رَّبِّكَ** ﴾ (القصص: ٤٦).

﴿ **وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيًّا** ﴾ (مريم: ٥٢) .

﴿ **وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآ** ﴾ (الصافات: ١٠٤، ١٠٥) .

﴿ **وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ** ﴾ (القصص: ٦٢) .

﴿ **وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبۡتُمُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ** ﴾ (القصص: ٦٥) .

﴿ **وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ فَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تَزۡعُمُونَ** ﴾ (القصص: ٧٤) .

﴿ **وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ** ﴾(فصلت: ٤٧).

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ ﴾ (طه: ١١، ١٢) .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ (النمل: ٨) .

﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ (القصص: ٣٠).

● **التمثيل : (م ب) :**

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا ﴾ (هود: ٤٢) .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ (هود: ٤٥) .

﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴾ (مريم: ٢، ٣) .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٣) .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ (الأنبياء: ٨٩) .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ ﴾ (آل عمران: ٣٩) .

﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (المائدة: ٥٨) .

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ (آل عمران: ١٩٣) .

﴿ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ (الجمعة: ٩).

في المجموعة الأولى (أ) كان النداء الذي ذُكر فيها كله مسندًا إلى الله عَزَّ وجَلَّ ، وجاء الإسناد وفق النظام الآتي :

* عشرة أفعال مبنية لفاعل ، وثلاثة أفعال مبنية للمفعول ، والفاعل في الجميع هو « الله » لأن الأفعال الثلاثة التي بُنِيَت لما لم يسم فاعله ، كانت تكرارًا لما أُسْنِد لله من ندائِه موسى ـ عليه السلام .

* ثلاثة أفعال من العشرة المسندة إلى الله أُسْنِدت إلى اسمه الكريم « رب » مرة مضافًا إلى ضمير الخطاب « ربك » ومرة مضافًا إلى ضمير الغائب المفرد المذكر « ربه » وثالثة إلى ضمير الغائب المثنى « ربهما ».

* وسبعة أفعال أُسْنِدت إلى الضمائِر المكنى بها عن « الله » تعالى : ثلاثة منها أسندت إلى المتكلم المعظم نفسه « نادينا » .

* وأربعة أفعال أُسْنِدَتْ إلى ضمير الغيبة « يناديهم » .

* لم يُسْنَدْ أي فعل منها إلى اسم الجلالة « الله » بل أوثر الإسناد إلى « رب » كما تقدم .

وقد يكون الداعي في هذا الإسناد أن النداء منه ـ سبحانه ـ فيه إنعام على المنادى وعلى من وُجِّه إليه الخطاب ، وهو نبينا محمد ﷺ في ﴿ **وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ** ﴾ ، و﴿ **رَّبِّ** ﴾ هو عنوان الإنعام والتكريم فأوثر الإسناد إليه في المواضع الثلاثة :

« ربك ـ ربُّه ـ ربُّهما » على الإسناد إلى اسم الجلالة « الله » لهذا الاعتبار اللطيف ، هذه واحدة .

والثانية أن « رب » تجوز إضافته إلى « الغير » أما اسم الجلالة « الله » فلا تجوز إضافته إلى شيء ، ولذلك ـ والله أعلم ، جاء الإسناد في الأفعال الثلاثة ما دامت الإضافة مرادة تحقيقًا للمعنى الذي أشرنا إليه .

أما الأفعال الأخرى ، سواء منها ما أُسْنِدَ إلى ضمير التكلم « نادينا » أو إلى ما لم يُسم فاعله ، فإن مجيئَها على ما هي عليه دليل على أن الإضافة والإظهار غير مرادين .

* ومن الملاحظ خلو هذه المواضع من الاحتراس الذي تقدم ذكره في « الدعاء » مُسْنَدًا إلى « الله » ؛ لأن « النداء » ليس فيه ما في الدعاء من الافتقار وكون « الداعي » أدنى منزلة من المدعو ، فلم يكن في إسناد النداء إلى « الله » ما يقتضي نفي « الشوائب » التي تُلحظ في الدعاء ، ويخلو منها النداء .

وإذا كان « الاحتراس » المتقدم شرطًا في إسناد الدعاء إلى الله ، فإن النداء ـ هنا ـ بديل من الدعاء هناك ، فالله ينادي ولا يدعو ، فإذا دعا كان دعاؤه نداء في كونه صادرًا من غنى لنفع المدعو ، لا لنفع يعود على الداعي ، والله هو الغني الحميد .

والأصل في الخلق أن يدعوا دعاء افتقار إلى المدعو ، لا أن ينادوا ، فإن نادوا كان نداؤهم دعاءً ، ويكون للنداء المسند في القرآن إلى غير الله دواع بلاغية نتبينها من مجموعة الآيات الثانية (ب) .

ولكن كيف كان الأصل في جانب الله النداء دون الدعاء ، والنداء يكون بين المتباعدين لا المتقاربين ، والله لا يَبْعد عنه شيء ، وإزالة هذه الشبهة يسيرة :

فصحيح أن الله لا يبعد عنه شيء ، والتباعد الملحوظ في النداء تباعد رتبة لا تباعد مكان ، فالله هو العلي العظيم يعلو بسلطانه فوق مخلوقاته علوًّا كبيرًا .

فإذا نادى ، فليس لأن المنادَى بعيد عنه في المكان ، بل بُعْده هو انحطاط رتبته أمام قيوم السموات والأرض .

● آيات المجموعة الثانية :

لم نذكر كل الآيات التي أُسْنِد فيها النداء لغير الله ـ لكثرتها ـ ، وإنما ذكرنا ما يعيننا على تصور منهج القرآن فيها ، والنظر في تلك الآيات ينبئ عن الآتي :

* نداء بين العباد بعضهم بعضًا ، مثل نداء نوح ابنه ، ومثل النداء للصلاة فإن المنادِي والمنادَى فيه هم الناس .

* نداء من الملائكة لبعض الرسل ، كندائهم لزكريا ﴿ **فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ** ﴾ .

* نداء من الناس لله ، وهو كثير في نداء الرسل ربهم ، كنداء نوح وزكريا وأيوب .

والقسمان الأولان جاريان على الأصل وهما نداء الناس الناس ، ونداء الملائكة الناس .

القسم الثالث ، وهو نداء الناس ربهم ، فهو غير جارٍ على الأصل ، بل كان ينبغي أن يكون دعاء لا نداء ؛ لأن النداء يكون للبعيد والله أقرب إلى المرء من حبل الوريد ، وهو القائِل :

﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ (البقرة:١٨٦).

ولأن الله أمر عباده أن يدعوه لا أن ينادوه ، أليس هو القائل :

﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ (غافر: ٦٠).

وإذا رجعنا إلى آيات المجموعة الثانية (م ب) نجد نداء الله صادرًا من الرسل ، لا من عوام الناس :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ ﴾ .

﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ .

﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ .

﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ ﴾ (الأنبياء:٨٧) .

فكيف نادى هؤلاء الرسل ربهم ولم يدعوه وهم أعرف الناس بربهم ؟

لقد تتبعنا هذه المواضع فوجدناها تخضع لظرف واحد ، كان هو السبب في أن يلجأ هؤلاء الرسل الكرام إلى النداء بدلاً من الدعاء الذي هو الأصل :

ذلك الظرف هو الشدة البالغة ، والكرب العظيم الذي كان يعتري كلا منهم ، فنداء نوح ربه كان سببه تعرض ابنه ـ وهو أقرب الناس إليه ـ إلى الهلاك ، فنادى رافعًا صوته رغبة في إنقاذ ابنه ، فحالته «الشعورية» القلقة هي السبب في النداء لا بُعْدُ المنادَى ، وهو الله تعالى .

ونوح هذا الذي نادى هنا ولم يدعُ هو الذي حكى عنه القرآن في موضع آخر أنه دعا ولم يناد : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَغۡلُوبٞ فَٱنتَصِرۡ ﴾ (القمر: ١٠) .

وهذا ينبئ عن جزعه على غرق ابنه أكثر من شكواه من تكذيب قومه له . لما أودع الله في قلوب الآباء من شفقة على الأبناء .

وهذا ينطبق على أيوب ويونس ـ ذي النون ـ وزكريا ، كلهم كانوا حين نادَوْا ربهم تحت ضغط شديد من جراء ما حل بهم من ابتلاء من الله .

فالنداء المحكى عن هؤلاء الرسل كان الباعث عليه حال المنادِي لا بُعْدُ المنادَى .

ومن الملاحظات البيانية اللطيفة أننا نلاحظ ـ هنا ـ ما لاحظناه من قبل في إيقاع النداء على «رب» دون اسم الجلالة «الله» .

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ ﴾ ، ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ ، ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ ﴾ .

فالنداء ـ في القرآن ـ فاعله هو «رب» مضافًا إلى ضمير ذي المقام .

ومعموله هو «رب» مضافًا إلى ضمير المنادى ، ولم يأت «الله»، فاعلاً له ولا معمولاً .

إنَّه نَسَقٌ عجيب حكيم ، جارٍ على اعتبارات «إعجازية» لطيفة وليس كلامًا يُرصَفُ كيفما اتُفِق .

فالمنادِي راجٍ . و«رب» هو عنوان الإنعام والتفضل ، ولذلك تعلق به الدعاء ـ كما سيأتي ـ كما تعلق به النداء هنا . إنَّه الإعجاز اللغوى البياني القائم على وضع كل لفظ موضعه في الكتاب العزيز ، كما قال العلامة ابن عطية ـ رحمه الله .

• خاصية النداء :

للنداء خاصية في لغة القرآن مستمدة من وَضْع النداء في اللغة العربية التي نزل بها القرآن ، فشرُفت وخلدت بذلك النزول .

• خاصية النداء في اللغة :

يقول الراغب : «وأصل النداء من الندى ، أي الرطوبة ، يقال : صوت ندي رفيع ، واستعارة النداء للصوت من حيث أن من تكثر رطوبة فمه حسُن كلامه ، ولهذا يوصف الفصيح بكثرة الريق .. ويُعبَّر عن السخاء بالندى ، يقال : فلان أندى كفًّا من فلان ..» (١) .

هذا هو أصل اشتقاق النداء في اللغة ، وهو يدل على خيرية النداء مثل خيرية ما اشتق منه ، فالندى ماء ، والماء أصل الحياة ، وهذا يبعث على التفاؤل الحسن في النداء ، وينفي عنه كل شائبة .

---

(١) المفردات : (٤٨٧) .

● **خاصية النداء في القرآن :**

ويكسو النداء بهجة وسرورًا استعمال القرآن له في الدلالة على طلب الإقبال من الله ـ أصالة ـ بلا احتراس لدفع ما يتوهم تصوره منه ، مثلما حدث في الدعاء مُسْندًا إلى الله ، هذه واحدة .

والثانية : أن القرآن الحكيم سمى طلب الإقبال للصلاة نداءً مرتين :

إحداهما في سورة المائدة في قوله تعالى ـ وقد تقدم ـ ﴿ **وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ** ﴾ .

ومرة في سورة الجمعة :

﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ .

والثالثة : أن القرآن الحكيم سمى طلب الإقبال للإيمان نداء ، وسمى الداعي إليه مناديًا ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ **رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ** ﴾ .

والرابعة : أنه جعل هذا النداء المستجاب وسيلة للدعاء بغفران الذنوب ، وتكفير السيئات ، والتوفية مع الأبرار .

والخامسة : الإعلان باستجابة هذا الدعاء الموطأ له بذلك النداء :

﴿ **فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ** ﴾ (آل عمران:١٩٥) .

هذه هي التفرقة القرآنية الدقيقة بين الدعاء والنداء ، وفي كل خير ، بيد أن الخير في النداء أخلص وأصفى منه في الدعاء(١) .

---

(١) لا يقدح في هذا نداء فرعون لقومه بالكفر في سورة الزخرف ، ولا نداء أهل النار لأهل الجنة في سورة الأعراف ، وأمثالهما ؛ لأن حديثنا مقصور على النداء المأذون فيه شرعًا ، أما دعاء ونداء الأشرار فلم يرد في القرآن إلا على سبيل الحكاية .

- **منهج القرآن في «النداء» ومشتقاته :**

أولاً : إسناده إلى الله مطلقًا وبلا احتراس لخلوصه من الشوائب ، ولياقته بمقام الألوهية .

ثانيًا : إسناده إلى «رب» مضافًا إلى ضمير مناسب إذا كان الله هو فاعله ، وإيقاعه على «رب» مضافًا إلى ضمير مناسب إذا كان النداء موجهًا إلى الله .

ثالثًا : أن في طلب الإقبال من الله هو النداء ، فإذا دعا قرن الدعاء باحتراس لنفي ما قد يُتَوَّهم ثبوته ، والأصل في الطلب من الله هو الدعاء ، فإذا نُودِي فلداعٍ عند المنادِي ، وليس لبُعْدِ المنادَى.

رابعًا : النداءُ من الله ليس سببه بُعْد المنادَى مكانًا عنه ، وإنما بُعْد رتبة المنادِي (الله) واتضاع رتبة المنادَى .

خامسًا : للنداء في لغة القرآن خاصية رشحته لأن يكون الله فاعلاً له - بلا حرج - كما رشحته ليكون «عنوانًا» على طلب الإقبال إلى الصلاة (الأذان) ، وأن يكون «عنوانًا» على طلب الإقبال على الإيمان .

سادسًا : نداء الأشرار بعضهم بعضًا الوارد في القرآن لا يحظى بخاصية النداء المأذون فيه شرعًا ، بل وروده في القرآن كان على سبيل الحكاية والذم والتشنيع .

سابعًا : في كل من الدعاء والنداء خير ، بيد أن الخير في النداء أخلص وأصفى ، وأظهر تفاؤلاً ، وأنقى معنًى .

* * *

رَبّ ـ ربُّ كل شيء

لكلمة «رب» في القرآن واحة وارفة الظلال ، عبقة الشذا ، طيبة الثمار ، ونقصد «رب» التي جاءت حديثًا عن «الله» أما ما كانت عن غيره ، فلا علاقة لنا بها في هذه الدراسة ، والتي جاءت مقصودًا بها «الله» كثيرة كثرة هائلة ، حيث لم تخْلُ من ذكرها مرات كل السور غير قصار المفصَّل ، ولن نستطيع ـ هنا ـ استقصاءها ، ولذلك فإننا سنلتقط منها ومضات تنير لنا الطريق ، وترسم قسمات المنهج القرآني في استعمال هذه الكلمة المنتشرة في آي القرآن انتثار النجوم الزهر في سماء صافية غاب قمرها ، فتلألأت في أرجائها تهدي السائرين ، وتبهج الناظرين .

وتيسيراً للدراسة نقسم ما سنذكره من آياتها مجموعات ، ثم ننظر في كل مجموعة قبل السير مع مجموعة أخرى ، وبالله ومنه التوفيق .

- **الإضافة إلى الظاهر :**

- **التمثيل : (م أ) :**

﴿ **ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (الفاتحة:٢) .

﴿ **إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ** ﴾ (البقرة:١٣١) .

﴿ **قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ** ﴾ (الأنعام:١٦٤) .

﴿ **رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ** ﴾ (الأعراف:١٢٢) .

﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ** ﴾ (التوبة:١٢٩) .

﴿ **مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ** ﴾ (الإسراء:١٠٢) .

﴿ **قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ** ﴾ (الشعراء:٢٤) .

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الشعراء:٢٦) .

﴿ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الشعراء:٢٨) .

﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا ﴾ (النمل:٩١) .

﴿ وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ (الصافات:٥) .

﴿ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴾ (الذاريات:٢٣).

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾ (المعارج:٤٠) .

﴿ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴾ (قريش:٣) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ (الفلق:١) .

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (الناس:١) .

﴿ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (المزمل:٩) .

﴿ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (سبأ:١٥) .

﴿ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس:٥٨) .

هذه تسع عشرة آية وردت فيها كلمة «رب» عشرين مرة ، حيث وردت في آية (الأنعام : ١٦٤) مرتين ، وإذا نظرت في الآيات نظرة فاحصة وجدت كلمة «رب» جاءت سبع عشرة مرة ملازمة للإضافة إلى الأسماء الظاهرة ، وهذه الإضافة جاءت على نوعين :

الأول : وهو ست عشرة مرة ، كانت الإضافة إلى قطاعات خاصة من قطاعات الكون :

السموات والأرض وما بينهما - السموات والأرض - السماء والأرض - المشرق - المشرق والمغرب - المشارق - العرش العظيم - الآباء الأولين[1] - البيت - البلدة - الفلق - الناس - موسى وهارون .

---

(١) في آية الأنعام (١٦٤) أضيفت كلمة «رب» إلى ضمير المخاطبين ، ولم نعددها هنا ؛ لأن الإضافة إلى الضمائر سنذكرها في المجموعات الآتية بإذن الله .

الثاني : وهو موضع واحد جاءت الإضافة فيه عامة شاملة ﴿ **وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ** ﴾ .

هذه الإضافة العامة أجملت كل ما سبق تفصيله في الآيات الست عشرة ، وبهذا الإجمال ، وذلك التفصيل صار الملك كله لله لا شريك له .

ومما نلحظه من هذه المجموعة حرص البيان القرآني على إضافة كلمة « رب » مقصودًا بها الله ، إلى بعض مخلوقاته أو كلها في كل موضع وردت .

فإذا لم تكن إضافة ، فإن القرآن يصف كلمة « رب » بوصف يقوم مقام الإضافة .

وقد جاء هذا ـ في القرآن كله ـ في آيتين لا ثالثة لهما ، وهما :

﴿ **وَرَبٌّ غَفُورٞ** ﴾ (سبأ:١٥) : أي رب المغفرة .

﴿ **مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ** ﴾ (يس:٥٨) : أي رب الرحمة .

أما « ربا » في آية (الأنعام : ١٦٤) ، وهي نكرة غير مضافة ولا موصوفة بوصف يقوم مقام الإضافة ، فلا تقدح في الملاحظة التي أبديناها من لزوم « رب » للإضافة أو وصف يقوم مقامها . نقول : إنها لا تقدح ؛ لأن المراد بها « غير الله » أي ربا مغايراً لله ، وهي واقعة في سياق الاستفهام الإنكاري ، فلا وجود لها في الواقع .

• الإضافة إلى المتكلم المفرد :

• التمثيل : (م ب) :

﴿ **وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا** ﴾ (البقرة:١٢٦) .

﴿ **إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ** ﴾ (آل عمران:٣٥) .

﴿ **قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ** ﴾ (آل عمران:٣٨) .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ﴾ (الأعراف: ١٥١) .

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ (إبراهيم: ٤٠) .

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

(يوسف: ١٠١) .

﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا ﴾ (الأنبياء: ٨٩) .

﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴾ (المؤمنون: ٣٩) .

﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ (طه: ٨٤) .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ (آل عمران: ٣٦) .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ ﴾

(آل عمران: ٤٠).

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الحجر: ٣٩) .

﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ (النمل: ٤٤) .

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾(الفرقان: ٣٠).

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الزخرف:٨٨).

هذه المجموعة من الآيات ، تخطو بنا خطوات أخرى في الكشف عن منهج القرآن في استعمال كلمة « رب » بعد الذي كشفت عنه المجموعة الأولى .

والناظر في هذه المجموعة بعناية يرى أن كلمة « رب » فيها :

* جاءت منادَى .

* مضافة إلى ياء المتكلم المفرد ذكرًا أو أنثى ، والذكورة هي الغالبة .

* محذوف منها حرف النداء « يا » .

* محذوف منها « المضاف إليه » ياء المتكلم ، مدلولاً عليه بالكسرة .

* وأن موضعين من الآيات الخمس عشرة جاءا مصاحبين لحرف النداء « الياء » .

* وأن المعنى الذي استُعْمِلتْ فيه يغلب عليه « الدعاء » ويقل فيه غير الدعاء.

وبعض هذه السمات الأسلوبية في حاجة إلى أن نفهم دواعيها البيانية :

* فحذف ياء النداء والمضاف إليه « ياء المتكلم » نرجع أنه للتيسير في الأداء ؛ لأن توجيه الدعاء إلى « رب » كثير على ألسنة العباد ، فناسب ذلك التيسير عليهم وهم يتضرعون إلى ربهم القريب منهم ، والياء لمناداة البعيد .

والذي سَوَّغ هذا الحذف ـ فوق ما تقدم ـ أن المقام يدل على المحذوف بكل وضوح ويسر .

وعلى هذا نقول ـ ونحن مطمئنون ـ إن من سمات منهج القرآن في كلمة « رب » إذا وقعت منادى مضافًا إلى ضمير المتكلم المفرد ـ مذكرًا أو مؤنثًا ـ أن يحذف منها حرف النداء ، والمضاف إليه مع الاجتزاء عنه بالكسرة .

● ولماذا « يا رب » ؟ :

ولكن هذه السمة الأسلوبية خولفت في الآيتين الأخيرتين في المجموعة :

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَـٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ﴾ .

﴿ وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴾ .

وكما كان حذف حرف النداء في غيرهما بلاغة ، فإن ذكره فيهما بلاغة كذلك .

فهاتان الآيتان حكايتان عن نبينا محمد ﷺ ، فإنه هو القائل ، ومحمد ﷺ معروف من بين جميع الرسل بحرصه الشديد على إيمان قومه ، والله تعالى عاتبه على هذا الحرص مرات في القرآن الكريم[١] .

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ ﴾ (القصص:٥٦) .

وضيقه من قومه لهجرهم القرآن ، وهو لهم نور ، وإعراضهم عن الإيمان ، وهو لهم نجاة ، هذا الضيق البالغ المدى جعل الرسول الكريم الرءوف الرحيم بقومه يجأر بالشكوى ، ويطيل الصوت ولا يحذف منه شيئًا تنفيسًا لما في صدره ، وطمعًا في استجابة ربه ، فالذكر هنا ، كالحذف هناك ، كلاهما واقع موقعه من البلاغة وحسن البيان ، هذا ، وقد لاحت لنا خاطرة حول ذكر أداة النداء في هذين الموضعين ، خلاصتها :

أن الداعي إلى ذكر الأداة مع «رب» المنادَى هنا - وليس لها ورود في القرآن كله غير هاتين الآيتين - هاجس نفسي كان يحس به صاحب الدعوة ﷺ بأن هجر قومه للقرآن ، وإعراضهم عن الإيمان ، كان لقصور منه في مجال التبليغ ، فرأى نفسه بعيدًا عن الله لهذا القصور ، فلما دعاه ، دعاه دعاءَ الداعي البعيد عن مدْعُوِّه ، لا دعاءَ المدْعُوِّ البعيد عن داعيه .

وليس هذا الشعور ببعيد عن الذين يخشون ربهم ، ورسولنا إمامهم في مقام الخشية ورهافة الوجدان .

وقد امتدح القرآن هذا الفريق الممتاز من العباد ، فقال : ﴿ **وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ** ﴾ (المؤمنون: ٦٠).

وبعض العلماء قال ما يُشبه هذا المعنى في شأن زكريا - عليه السلام - ولنا فيما قالوه قدوة[1] .

• المعاني المستعملة فيها :

المعاني التي استعملت فيها كلمة «رب» حتى الآن في المجموعتين معًا ، يمكن تلخيصها في الآتي :

* التمدح بآلاء الله وعظمة قدرته وبدائع خَلْقه ، وسعة سلطانه .

* استدرار فَضْله ، واستمطار سحائب كرمه ، وإنعامه .

---

(١) انظر مفردات الراغب : (٤٨٧) .

* الثناء عليه بما منَّ وأنعم على عباده ، وفي مقدمتهم الرسل الكرام .

* اللياذ به واللجوء إليه لدفع الكرب ، وكشف الغمة .

* التقرب إليه : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا . . ﴾ .

* الاعتذار : ﴿ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ .

* الاستعظام والاستفسار : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ ﴾ .

* التوعد : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

* الاستعطاف : ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ .

* الشكوى : ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴾ .

وغير خاف أننا لم نَسُق كل الشواهد على هذه المعاني وإنما مثلنا لها تمثيلاً يسيراً ، لكثرة ما ورد منها ، فكلمة : « رب » هي ترنيمة كل لسان ، وأنشودة كل مؤمن ، ومفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، حتى عدو الله ـ إبليس ـ يقولها صاغراً ، وإن كان بقدسيتها كافراً .

• الإضافة إلى المخاطب المفرد :

• التمثيل : (م ج) :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ (البقرة:٣٠) .

﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (البقرة:١٤٧) .

﴿ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ (آل عمران:٤٣) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ (المائدة:٦٧) .

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام:٨٣) .

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ (الأنعام:١١٥) .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام:١١٧) .

﴿ قَالُواْ يَـٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ﴾ (الأعراف:١٣٤) .
﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٍ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ﴾
(هود:١١٧) .
﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسۡـَٔلَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴾ (الحجر:٩٢) .
﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴾ (الإسراء:١٧) .
﴿ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (الإسراء:٥٥).

سقنا هذه الآيات تمثيلاً لغرض واحد خاص بها ، وتأكيدًا لما لاحظناه من قبل من أن كلمة « رب » في القرآن ـ مرادًا بها الله ـ لا تأتي إلا ملازمة للإضافة ، ما عدا موضعين تقدما ، جاءا مقطوعين عن الإضافة ، مع وصفٍ لـ « رب » قائِم مقام الإضافة كما تقدم .

هذا هو الغرض العام الذي أردنا تأكيده بهذه المجموعة (جـ) من الآيات الحكيمات .

أما الغرض الخاص بهذه المجموعة ، فهو لزوم الإضافة إلى « الكاف » ضمير المخاطب المفرد المذكر في (١١ آية) والمؤنث في آية واحدة[1] ، وإذا دققت النظر وجدت كلمة « رب » في هذه المجموعة قد تواردت عليها جميع حركات الإعراب الجارية على المفرد :

الرفع بالضمة ، والنصب بالفتحة ، والجر بالكسرة ، وأن أسباب هذه الحركات الإعرابية مختلفة كذلك :

فالرفع : جاء على الفاعلية والابتدائية وأسماء النواسخ .

والنصب : جاء على أسماء النواسخ ـ كذلك ، ثم على المفعولية .

والجر : جاء بعد حرف الجر ، وبأداة القسم « الواو » وبالإضافة ، عُدْ إلى قراءة الآيات يتبين لك بوضوح واقعية ما لاحظناه .

---

(١) هي الآية التي خوطبت فيها مريم ـ رضي الله عنها ، وهي الآية رقم (٤٣) من آل عمران .

ومن الملاحظات اللافتة للنظر في آيات هذه المجموعة أن «كاف الخطاب» في «ربك» مهما كان موضعه من الإعراب، إنما هو كناية عن صاحب الدعوة ﷺ.

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ ﴾. ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ﴾، ﴿ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾. وهكذا.. وهكذا، إلا في موضعين أحدهما خطاب لموسى ـ عليه السلام ـ على سبيل الحكاية: ﴿ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ ﴾، والثاني خطاب لمريم على الحكاية كذلك: ﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ ﴾، وهذا النسق جاء في الآيات التي لم نذكرها مما أضيفت فيه «رب» إلى خطاب المفرد، إن هذا الخطاب الخاص بنبينا ﷺ؛ يكاد يشمل كل ما جاء في القرآن، ولا عجب؛ لأن القرآن الحكيم عليه نزل، فهو خطاب له قبل أن يكون خطابًا للخلق أجمعين، وهذا ما سنسجله في منهج القرآن في كلمة «رب» بإذن الله[1].

● الإضافة إلى المخاطب المثنى:

● التمثيل: (م د):

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴾ (الأعراف: ٢٠).

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴾ (طه: ٤٩).

﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

(الرحمن: ١٢، ١٣).

﴿ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ (الرحمن: ٧٦، ٧٧).

---

(١) أما في إضافة «رب» إلى ياء المتكلم فقد كثر مجيئها مع غير نبينا ﷺ، لغلبة الحكاية فيها.

* هـذه أربـع آيـات جـاءت فيهـا كلمـة «رب» مضـافة إلى ضـمير المثنـى المخاطب «ربكما» ، وفي سورة الرحمن تسعة وعشرون آية غير الآيتين اللتين ذكرناهما من السورة ، تسعة وعشرون آية أخرى ذكرت فيها «ربكمـا» مضـافة إلى ضمير المثنى المخاطب ، لم نذكرها خشية الإطالة ، واكتفينا بذكر أول آيـة وآخر آية فيها وردت فيها «ربكما» .

* والمثنى الذي أضيفت إليـه «رب» في هذه الآيـات جميعًـا ، مـا ذكرنـاه وما لم نذكره . هذا المثنى نوعان :

الأول : مثنى في اللفظ والمعنى ، وهو مـا عـدا آيـات سـورة الـرحمن ؛ لأن المراد فيها :

آدم وحواء ـ موسى وهارون .

الثاني : مثنى لفظًا ، وهو من حيث المعنى جمع ضخم يشمل أفـراد الإنـس والجن كيفما ومتى وجدوا .

وقد جاءت الآية ﴿ **فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ** ﴾ في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة ، تعقيبًا على معان وآيات كونية وخَلْقِيَّة حلقت بها السورة في أرجاء الكون كله سماء وأرضًا ، وما بين السماء والأرض .

واستأثرت كلمة «رب» بالمواضع كلها دون غيرها مـن أسمـاء الله وصـفاته الحسنى ؛ لأن في «رب» من الدقائِق التي تناسب المقام ما ليس في غيرها مـن الأسماء والصفات الحسـنى ، فمـن كلمـة «رب» تشـع معـاني التربيـة والإنعـام والتدبير والرعايـة ، والمقـام في «الـرحمن» مقـام تـذكير وامتنـان ، وفي كلمـة «رب» من روح التودد والتلطف وإلانة الخطاب ما جعلها «ربـة» الموقـف في هذا المقام العطوف الودود .

وقد جاء «رب» في غير «الـرحمن» مرفوعًـا علـى الفاعليـة مـرة ، وعلـى الخبرة مرة واحدة .

أما في «الرحمن» فقد لزم الجر بالإضافة في الإحدى والثلاثين مرة .

وما زلنا نذكر بما سبق ملاحظته من لزوم كلمة «رب» في القرآن للإضافة ، هذه ملاحظة عامة .

أما الخاصة فهي مجيء «رب» مضافًا إلى المخاطب المثنى على النحو الذي تقدم .

- **الإضافة إلى المخاطب الجمع :**
- **التمثيل : (م هـ) :**

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ (البقرة:٢١) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ (النساء:١) .

﴿ فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ (الأنعام:٥٤) .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر:٦٠) .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ﴾ (الأنعام:١٠٢) .

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ (يونس:٣٢) .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (يونس:٥٧) .

﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ (الأعراف:٣).

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ (الأعراف:١٥٠) .

﴿ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد:٢) .

تشترك هذه المجموعة من الآيات في سمة واحدة مما نحن بصدده ، وهي إضافة «رب» إلى ضمير المخاطبين الجمع «كُمْ» وهي صورة من عدة صور جاءت عليها إضافة «رب» في القرآن .

ويغلب على ضمير المخاطبين ـ فيها العموم ، أي جميع الناس ، مؤمنهم وكافرهم ، لأن الحقائق التي تثبتها الآيات حقائق عامة مثل :

الخلق ـ الربوبية ، وفي بعض المواضع أريد الخصوص دون العموم كقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ لأن الله لا يستجيب دعاء الكافرين .

وكقول موسى ـ عليه السلام ـ لبني إسرائيل .

﴿ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾ ؟ .

ومما يلاحظ أن آية « الأنعام : ١٠٢ » وآية « يونس : ٣٢ » جُمع فيها بين « الله » و« رب » فقد جاءت « رب » صفة لـ « الله » أو خبرًا ثانيًا لـ « ذلكم » .

وسر الجمع بينهما ـ فيما نرى ـ أن كُلا من الآيتين اللتين جُمِعَ فيهما بين « الله » و« رب » وردتا تأكيدًا لعقيدة التوحيد بعد منازعة فيها أشير إليها فيما تقدم الآيتين :

ففي الأنعام أشير إلى ضلال اليهود والنصارى بادعائهم ولدًا لله سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ (الأنعام: ١٠٠-١٠٢).

وفي يونس :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ﴾ (يونس: ٣١، ٣٢).

فجاء الخطاب مفخَّمًا بالتأكيدات واسم الإشارة « ذلك » الدال على علو الرتبة في مواجهة ما ادعوه من نقائض التوحيد ، وأفاد الجمع بينهما أمرين :

الأول : الهيمنة الإلهية على جميع المخلوقات « الله » .

الثاني : الرعاية والتدبير « ربكم » .

أما من حيث حركات الإعراب ، فقد حرصنا على التمثيل لها جميعًا : الرفع ، والنصب ، الجر ، مع اختلاف أسبابها كما يبدو من النظر في الآيات .

● الإضافة إلى ضمير الغائب المفرد :

● التمثيل : (م و) :

﴿ **فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا** ﴾ (آل عمران:٣٧) .

﴿ **وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾ (البقرة:١٢٤) .

﴿ **إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ** ﴾ (البقرة:١٣١) .

﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا** ﴾ (الأعراف:١٤٣) .

﴿ **وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى** ﴾ (هود:٤٥) .

﴿ **فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ** ﴾ (البقرة:٢٨٢) .

﴿ **إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ** ﴾ (طه:٧٤) .

﴿ **وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ** ﴾

(الأنبياء:٨٣).

﴿ **وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ** ﴾ (الأعراف:٥٨) .

﴿ **وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ** ﴾ (طه:١٢٧) .

﴿ **وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا** ﴾ (الفرقان:٥٥) .

﴿ **ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا** ﴾ (النبأ:٣٩).

وتمثل هذه الآيات صورة أخرى لإضافة كلمة « رب » في القرآن :

فقد أضيفت من قبل إلى الأسماء الظاهرة ، ثم إلى الضمائر على اختلافها .

وهنا تضاف كلمة « رب » إلى ضمير الغائب المفرد ـ مذكرًا ومؤنثًا ـ مع غلبة الإضافة ـ بالطبع ـ إلى ضمير المذكر ، وإضافة « رب » إلى كلٍّ من الظاهر

والمضمر لها دلالات بلاغية إعجازية عميقة ، ندَّخِر الحديث عنهـا الآن إلـى ما بعد الفراغ من التمثيل لصور الإضافة كلها .

وغير خافٍ أن الإضافة في المجموعة (و) شملت كلمة «رب» في حالات :

الرفع ، والنصب ، والجر ، على أن ما ذكرناه إنما هو مجرد تمثيل لهذه السمات الأسلوبية لا استقصاء لها .

وغير خاف ـ كذلك ـ أن هذه انتظمها الأسلوب الخبري (الحكاية) إلا آية واحدة جاءت على الأسلوب الإنشائي التشريعي :

﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ﴾ .

وقد جمعت هذه الآية بين «الله» و«رب» ، ولهذا الجمع ـ فيما نرى ـ داعٍ بلاغي غير الداعي الذي جمع بينهما في الآيتين السابقتين في المجموعة (هـ) وخلاصته :

أن المقام مقام تشريع وارد لحفظ الحقوق المالية في معاملات الناس ، والتشريع ـ عمومًا ـ تجب رعايته والامتثال له .

وعنصر الترهيب والترغيب هما الوسيلتان اللتان تكفلان حماية التشريع من الإهمال ، وتحملان المكلف على إنفاذه ؛ لذلك ـ والله أعلم ـ جُمِع في الآية بين الاسمين الكريمين .

الله ، ورب ، فـ «الله» هو عنوان الرهبة ، و«رب» هو عنوان الرغبة ، هذا هو الداعي البلاغي للجمع هنا ، فيما هُدِينا إليه ، وإنَّا له لمطمئنون .

- **الإضافة إلى ضمير الغائب المثنى :**

- **التمثيل : (م ز) :**

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (الأعراف: ٢٢).

﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ (الأعراف: ١٨٩).

﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (الكهف: ٨١).

ليس في القرآن كلمة «رب» مضافة إلى ضمير الغائب المثنى إلا هذه الآيات الثلاث:

الأولى والثالثة جاءت فيهما «ربهما» مرفوعًا على الفاعلية، وفي الثانية جاءت منصوبة على «الوصفية».

واللافت للنظر أن الآية الثانية جمعت بين «الله»، و«رب» بينما أفردت الأولى والثالثة كلمة «رب» فهل لهذا من تفسير مقبول؟.

إننا نعود إلى ما سبق قوله عن آيتي الأنعام ويونس اللتين جُمع فيهما بين «الله»، و«رب» من أن ذلك الجمع كان سببه ـ فيما رأينا ـ المنازعة في عقيدة التوحيد، هذا الذي قلناه من قبل هناك نقوله ـ هنا ـ ؛ لأن المقام ـ هنا ـ جاء فيه صراحة ما يناقض عقيدة التوحيد، وهذا في الآية التالية للآية المذكورة:

﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (الأعراف: ١٩٠).

كل ما في الأمر أن المنازعة هنا مؤخرة عن آية الجمع، وهناك مقدمة، لكن المقام واحد في الآيات الثلاث.

• الإضافة إلى ضمير الغائب الجمع:

• التمثيل: (م ح):

﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ (التوبة: ٢١).

﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (إبراهيم: ١٣).

﴿ فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴾ (الشمس: ١٤).

﴿ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (آل عمران: ١٩٨).

﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ (الأنعام:٥٢) .

﴿ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (هود:٦٠) .

﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (النحل:٥٠) .

﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (الكهف:١٣) .

﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾ (الشورى:٢٢) .

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (السجدة:١٢) .

﴿ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنبياء:٤٢).

وهذه الآيات تمثل ضربًا من ضروب إضافة «رب» إلى الضمائر ، وهي ـ جميعًا ـ جاءت فيها كلمة «رب» مضافة إلى ضمير الغائبين الجمع «هُمْ ـ هِمْ» سواء كانت مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة ، وعوامل الإعراب فيها مختلفة كما ترى ، والضمير المضافة هي إليه عائِد على نوعي العباد : الصالحين والطالحين ، المؤمنين والكافرين ، فهو ـ سبحانه ـ رب كل شيء ، واللافت للنظر ـ هنا ـ خلو القرآن من إضافة «رب» إلى ضمير الإناث «نون النسوة» كما خلا من قبل ، وسنعود لهذا فيما بعد بإذن الله .

• الإضافة إلى ضمير المتكلم المفرد في غير النداء :

• التمثيل : (م ط) :

﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ (البقرة:٢٥٨) .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ﴾ (المائدة:٧٢) .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (الأنعام:١٥) .

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ (الأنعام:٨٠) .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ (الأعراف:٣٣) .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ﴾ (يوسف:١٠٠) .

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾ (الكهف:٣٦) .

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ (الإسراء:٨٥) .

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ (الشورى:١٠) .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ (الزخرف:٦٤).

أضيفت كلمة «رب» في هـذه الآيـات إلى ضـمير المـتكلم المفـرد «اليـاء» مرفوعة ومنصوبة ومجرورة .

وفي أكثر هذه الآيات ـ وكـذلك مـا لم نـذكره ـ استقلت «رب» بالدلالـة ، مثل :

﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًا ﴾ .

وفي بعضها جُمـع بينهـا وبـين الله تعـالى مـع تقـديم اسـم الجلالـة وتـأخير «رب» وذلك في آيتي الشورى والزخرف .

وسبب هذا الجمع كما قلنا من قبـل هـو تفخـيم الخـبر لإزالـة المنازعـة في عقيدة التوحيد .

ففي الشورى سُبِقَتْ الآية المذكورة بقوله تعالى ناعيًا الإشراك به :

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ ﴾ (الشورى:٩) .

وفي الزخرف ، سبق الآية المذكورة هذه (رقم ٦٤) حديث طويل عن ادعـاء فرعون الألوهية ، ثم مناظرة مشركي العرب بين آلهتهم وعيسى ـ عليه السـلام ـ ثم التحذير من كيد الشيطان ، وتزيينه الكفر بالله ثم جـاءت آيتنـا هـذه محكيـة على لسان عيسى ـ عليه السلام ـ مبطلاً عقائد الشرك والوثنية ، ولاهجًـا بكلمـة التوحيد .

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ﴾ .

وقد حفلت هذه العبارة بعناصر التوكيد :

إن ـ اسمية الجملة ـ ضمير الفصـل ـ وإفـراد الله بالعبـادة ، ومـن قبـل ظهـر تفخيم الخبر في آية الشورى .

اسم الإشارة : « ذلك » للدلالة على علو رتبة الخالق ، واسمية الجملة ، وقصر التوكل عليه ، وقصر الإنابة إليه .

وفي الجمع بين « الله » و« رب » معنى آخر أراه جديرًا بأن نشير إليه هنا .

فقد علمنا من قبل أن « الله » هو عنوان القوة والقهر وسعة السلطان ، وأن « رب » توحي بمعاني التفضل على العباد ، والتدبير ، والرعاية .

وقد وُجد من الناس بعد نزول القرآن من يؤمن بالله خالقًا ولا يؤمن به مصرِّفًا أحوال الخلق « مُدَبِّرًا » فقد رفع الله يده عن الكون بعد أن خلقه عند هؤلاء الحمقى .

هكذا شاع عند بعض الفلاسفة ، وبخاصة في أوروبا خلال ما يسمى بـ« عصر النهضة » .

ونرى أن في الجمع بين « الله » ، و« رب » تنبيهًا سبق أوانه على ضلال هذا المعتقد الذي أشرنا إليه ، فالله الذي خلق الكون وما فيه ، هو المالك زمام الأمر في كل صغيرة وكبيرة تقع في الكون .

﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ (الرعد: ٢).

وهكذا نجد في لغة القرآن دلالات متنوعة بتنوع الأساليب .

• الإضافة إلى ضمير المتكلم الجمع :

• التمثيل : (م ي) :

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ (البقرة: ٢٨٦) .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) .

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (آل عمران: ٩) .

﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴾ (المائدة: ٨٣) .

﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ (المائدة:٨٤) .

﴿ إِذْ قَامُواْ فَقَالُواْ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الكهف:١٤) .

﴿ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء:١١٢) .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ﴾ (الأعراف:٤٤) .

﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ (البقرة:١٣٩) .

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:٢٣) .

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:٤٣) .

﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ (الإسراء:١٠٨) .

﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴾ (الشعراء:٥٠) .

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ﴾ (الأعراف:٨٩) .

﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ (آل عمران:٧).

بذكر هذه الآيات تكتمل صور إضافة «رب» في القرآن الكريم وهي ـ جميعًا ـ تمثل سمة أسلوبية واحدة ، وهي إضافة كلمة «رب» إلى ضمير جماعة المتكلمين «نا» وجريًا على المنهج الذي اختططناه في هذه الدراسة ، فقد مثلنا في هذه المجموعة (ي) لكل حالات الإعراب مع اختلاف الأسباب المختلفة للإعراب :

الرفع ، والنصب ، والجر .

وقبل أن نلخص منهج القرآن في كلمة «رب» في جميع صورها نقف وقفة قصيرة مع هذه المجموعة ، نستكشف ما عساه أن يكون واردًا فيها :

إن كلمة «ربَّنا» مضافة في حالة النصب إلى ضمير المتكلمين «الجمع» تلى في الكثرة «ربَّنا» المجرورة، كما أنها تختص بمواضع النداء.

وفي هذه الحالة أُطُّرِدَ معها حذف أداة النداء «يا» ولم تذكر قط.

وهذا ما لحظناه من قبل مع كلمة «ربِّ» في جميع المواضع التي وردت فيها منادًى مضافًا إلى «ياء» المتكلم، ما عدا موضعين ذكرت فيهما، وقدْ مرَّ الحديث عنهما فيما قبل.

فـ «ربَّنا» منادى تشترك مع «ربِّ» المنادى المضاف إلى ضمير المتكلم، تشترك معها في حذف أداة النداء تيسيرًا وتخفيفًا على الداعين، لكثرة حاجة «الخلق» إلى دعاء الخالق، أما من حيث الضمير المضاف إليه، وهما:

ياء المتكلم المفرد مذكرًا ومؤنثًا.

و«ناء» الجماعة المتكلمين ذكورًا وإناثًا، أو ذكورًا فقط، وإناثًا فقط، فلا يمكن حذفها، ولا جرت لغة العرب هذا المجرى في غير القرآن، أي أن في «ربِّ» حذفين، وفي «ربَّنَا» حذفًا واحدًا، وهي مع عدم الحذف فيها من الخفة والسهولة في النطق ما في «ربِّ» بحذف الياء.

ولم ترد كلمة «رب» مضافة إلى «نون النسوة» لا مخاطبًا ولا غائبًا.

فليس في القرآن «ربكُّن» ولا «ربهن» لا رَفْعًا ولا نصبًا ولا جرًّا.

وليس معنى هذا أن خطاب النسوة أو الحديث عنهن بـ «رب» مهملاً في القرآن، كلا. وإنما هن داخلات في خطاب الذكور أو الحديث عنهم في الأمور العامة بين الرجال والإناث.

فقوله تعالى: ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ** ﴾ (الحج:١).

ليس خطابًا خاصًّا بالرجال، بل الكاف في قوله: «ربكم» خطاب للرجال والنساء معًا؛ لأن اتِّقَاء الله مطلوب من الجميع.

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ (العاديات: ١١).

ليس حديثًا عن الرجال فحسب ـ بل هو حديث يشمل الرجال والنساء ، وكون الضمير المذكر في الموضعين : «بكم ـ ربهم» شاملاً للرجال والنساء ، أو الذكور والإناث معًا ، فإن البلاغة تسمى هذا «الدَّمج» تغليبًا ؛ أي تغليب جانب الذكورة على جانب الأنوثة ، وهو أسلوب بليغ وشائع في كلام العرب ، وفي آيات الكتاب العزيز .

ولماذا الذكورة ؟

وقد يقول قائل : ولِمَ لَمْ يُغلَّب جانب الأنوثة على الذكورة ؟ أليس في هذا هضم للإناث ؟ .

وجوابنا على هذا التساؤل :

أن تغليب جانب الإناث على جانب الذكورة لم تجربه اللغة العربية قبل نزول القرآن ، بل الذي ورد فيها تغليب جانب الذكورة على الأنوثة خطابًا وغيبة ، وذلك في المواضع التي يستوي فيها الجانبان في الغرض المسوق له الكلام .

فإذا كان المقام خاصًّا بالنساء جيء بنون النسوة حينئذ خطابًا وغيبة .

• ففي الذكر الحكيم :

﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾ (الأحزاب:٣٣) .

فـ «نون النسوة» لحقت بالكلمات الثلاث في الآية الحكيمة ، لأن الأمر يخص النساء .

فنون النسوة له دلالة خاصة لا يدخل فيها الرجال بحال من الأحوال والأصل في خطاب الناس عامة ، أو الحديث عنهم ، أن يساق الحديث ، أو يجري الخطاب مجرى التذكير دون التأنيث ، والقرائن هي التي تعين المراد .

ومرة أخرى : فإن قوله تعالى :

﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (الدخان:٨) وَقَدْ تقدم الاستشهاد به .

هذا القول وإن سيق مساق التذكير فإن المعنى شامل للذكور والإناث ؛ لأن الله رب الجميع ، والنساء ـ كما يقول الأصوليون ـ شقائق الرجال إلا ما خص»[(١)].

فليست المسألة مسألة محاباة لفريق وهضم لفريق آخر ، بل مسألة بيان لغوي له طرائقه في الإفصاح والتعبير .

● لماذا الإضافة :

* وردت كلمة «رب» في القرآن تسعمائة مرة وخمسا وثمانين مرة .

وفي كل هذه المرات وردت مضافة إلى الظاهر وإلى الضمائر المختلفة على الأنساق التي مرَّ عرضها مفصَّلاً ، إلا في موضعين جاءت فيهما مقطوعة عن الإضافة ، مع اتباعها بوصف يقوم مقام الإضافة كما تقدم .

وأكثر ما أضيفت إليه هو «الضمائِر» باختلاف أنواعها : التكلم والخطاب والغيبة .

* وبكل ثقة واطمئنان نستطيع أن نقول إن إضافتها شملت جميع الضمائر إلا «نون النسوة» لم تأت مضافة إليه قط ، وقد عالجنا هذه المسألة بما فيه الكفاية من قبل .

* أما إضافتها إلى الأسماء الظاهرة ، فقد جاءت على ضربين :

الأول : إضافتها إلى أسماء ظاهرة خاصة الدلالة ، مثل السموات والأرض ، والعرش ، والشعري ، والناس ، والفلق ، والمشرق ، والمغرب .. إلخ .

الثاني : إضافتها إلى اسم يشمل كل المخلوقات «رب كل شيء» ، وهذه العبارة من جوامع الكلم القرآنية ، حيث حَوَت على قصرها كل ما تفرق من الأسماء الظاهرة والضمائر معًا في المرات التي ذكرناها آنفًا ، وهذا أشبه ما يكون بما يسميه البلاغيون بـ «الجمع بعد التفريق» ؛ لأن «كل شيء» جمع كل ما تفرق في المرات الأربع والثمانين والتسعمائة .

---

(١) أي ما خص نوعًا منهما فيبقى على خصوصه ، وما يقوله الأصوليون ـ هنا ـ أصله حديث شريف .

وعلـى هـذا تكـون الإضـافة في كلمـة « رب » قـد أسـندت إلى الله كـل المخلوقات ، لا يند منها مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ولا في مـا بـين الأرض والسماء .

هذا الذي قدمناه ـ هنا ـ جزء من الإجابة على السؤال الـذي صـدرنا بـه هـذه السطور ، والذي كان : ولماذا الإضافة ؟

ومُضِيا مع استكمال الإجابة نقول :

إن إضافة « رب » في البيان القرآني المعجز تـؤدي ـ فـوق مـا تقـدم ـ مهمـة جليلة الشأن في مجال الدعوة ، وإذا كان البلاغيون يقولون : إن الكناية أبلغ مـن التصريح لاقـتران الـدعوى فيهـا بالـدليل ، فإننـا إذا اسـتعرنا قـول البلاغـيين في الكناية إلى الكلمة « رب » أصبنا عين الصواب .

تأمل قوله تعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ﴾ (الانفطار:٦).

انظر إلى لطافـة المعنـى في إضـافة « رب » إلى ضـمير المخاطـب ، فـإن في هذه الإضافة تذكيراً للمخاطب بجلائل النعم التي تفـيض مـن « الربوبيـة » علـى « المربوب » والرعاية التي تحيط به من كل جانب وحسـن التـدبير ، ومـن كـان هذا شأنه فمن سوء السلوك أن تُجْحدَ نعمه ، ويُكفر إحسانه .

ويظهر الفرق جليًّا إذا نَظَّرْنا العبارة القرآنية بقولنا :

« مَا غَرَّك بِالله » مثلاً ، فجو التذكير بالإنعام والإحسان في « بربك » يشع مـن جهة العقل ، ومن جهة اللفظ معًا ، أمـا في عبارتنـا نحـن « بـالله » فـإن التـذكير يشع من جهة العقل وحده ، لأن اسم الجلالة لا يمكن إضـافته إلى المخاطـب ، فبقيت الدلالة فيه عقلية صرفة .

أما « بربك » فإن الإضافة تفيد ذلـك المعنـى مـن جهـة العقـل واللفـظ معًـا للنصِّ الظاهر على صلة « رب » بالمخاطب ، وصلة المخاطب بـ « رب » .

لهذا قلنا إن الإضافة إلى الظاهر أو إلى الضمير في كلمة « رب » تقترن فيها الدعوة بدليلها كالكناية .

ويتجلى هذا المعنى بكل قوة حين تضاف كلمة « رب » إلى ضمائر المكلفين لترقيق الكلام مع « المؤمنين » فيسارعون إلى الامتثال والطاعة .

فإذا كان الحديث مع غير المؤمنين كان فيه من إقامة الحجة عليهم ما لا يخفى على ذي بصيرة .

وهذه المعاني اللطيفة لا يخلو منها موضع من مواضع إضافة « رب » إلى ما تضاف إليه وفي كل مقام سيق من أجله الكلام .

وخذ إليك ـ مثلاً آخر ـ نداء نوح ربه في لحظة من لحظات الشدة البالغة ، والألم الموجع ، لحظة أدرك نوح أن ابنه يتعرض للغرق والهلاك من الطوفان الجارف والخطب المدلهم :

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ﴾ .

فقد ناداه بـ « ربِّ » ؛ لأنه يطمع في الإحسان إليه بإنجاء ابنه من الهلاك المحقق . ولكأنه يقول له : أنت ولي الإحسان والإنعام فأحسن عليَّ وأنعم ونجِّ ابني مما ينتظره من الضياع .

ولهذه المعاني كثر الدعاء بـ « رب » دون غيره من الأسماء والصفات الحسنى لما في هذه الكلمة « رب » من خاصية إلهية لا توجد في سواه بالقدر الذي يوجد فيها .

من أجل هذا ـ وغيره ـ لزمت كلمة « رب » الإضافة في هذا البيان المعجز الحكيم .

* وبعد ما تقدم ، نستطيع أن نقول في كل ثقة واطمئنان ، أن كلمة « رب » مراداً بها الله ، لم تأت في القرآن إلا معرفة ـ ما عدا الموضعين اللذين قام فيهما الوصف المخصص مقام الإضافة ـ وأن أداة التعريف فيها الإضافة

وحدها ، فلم تأت معرفة بـ « أل » قط ؛ لأنه لو جاءت معرفة بـ « أل » لامتنعت الإضافة فيها ، ولو امتنعت الإضافة فيها ترتب على ذلك أمران خطيران :

الأول : ذهاب تلك المعاني اللطيفة التي تشع من إضافة « رب » إلى كل ما أضيفت إليه من أسماء ظاهرة أو ضمائِر ، ولأطفئتْ تسعمائةِ وخمس وثمانون « شعلة » مضيئة في التنزيل الحكيم .

الثاني : تعطيل الاسم الكريم « رب » عما يعْلُق به من آلاء الله ومربوباته التي يتكون منها « كونه العظيم الصنع » لأن كلمة « الرب » هكذا تبدو مجرد اسم لا يعلق به شيء ، ولا يعلق هو بشيء .

وأين تكون كلمة « الرب » إذا قارنَّاها بقوله تعالى :

﴿ **رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ** ﴾ (ص:٦٦) .

وهجر القرآن لتعريف « رب » بالألف واللام « الرب » دليل قاطع على « جفاف » هذا التعريف ، وبعده عن روح التنزيل الحكيم ، ومراميه البيانية المعجزة .

﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (الشورى:٥٢).

• منهج القرآن في « رب » :

أولاً : كثرة استعماله لها بما يقارب الألف مرة .

ثانيًا : اطراد إضافتها في كل المواضع ما عدا موضعين وُصِفَا وَصْفًا يقوم مقام تلك الإضافة المطردة .

ثالثًا : شملت الإضافة فيها جميع الضمائر إلا « نون النسوة » خطابًا وغيبة .

رابعًا : في مواضع منها جُمِعَ بينها وبين اسم الجلالة « الله » لدواعٍ بلاغية أشرنا إليها في مواضعها من هذه الدراسة .

خامسًا : أدت إضافتها سواء إلى الأسماء الظاهرة أو الضمائر معاني وأغراضًا بيانية لها شأن عظيم في حقل الدعوة .

سادسًا : ما أضيف منها إلى ضمير المتكلم المفرد ، أو « نا » الجماعة أكثره ورد في مقام الدعاء والتضرع لجلب منفعة ، أو دفع مضرة ، أو شكر وعرفان .

سابعًا : ما أضيف منها إلى ضمير المتكلم المفرد « ي » إن كان في غير مقام « النداء » بقي المضاف إليه دائمًا « ربي » ، وإذا كان في مقام « النداء » التُزِم فيه حذفان :

(أ) حذف المضاف إليه دائمًا .

(ب) حذف أداة النداء « يا » إلا في موضعين ذُكرت فيهما أداة النداء لداعٍ بلاغي اقتضى ذلك الذكر .

ثامنًا : أكثر مواضع المضاف إلى « كاف » الخطاب المفرد كان الخطاب فيه موجهًا إلى خاتم الرسل ﷺ ؛ لأن القرآن عليه نزل .

تاسعًا : وردت « رب » في لغة القرآن معرفة بالإضافة إلا في موضعين خصصا بالوصف القائم مقام الإضافة ، ولم تأت معرفة بالألف واللام « الرب » قط ؛ لأن في تعريفها بالألف واللام تعطيلاً لوظائفها البيانية المعجزة ، وإضاعة لمعانيها اللطيفة التي لها شأن ، وأي شأن ، في البلاغ الإلهي للناس أجمعين .

عاشرًا : إن استعمال كلمة « رب » في القرآن على الأنساق التي أبنَّاها ما ظهر لنا منها هو ركيزة عظيمة في صرح الإعجاز البياني اللغوي ، ودليل « عملي تطبيقي » على أن القرآن إنما أُنزِل بعلم الله .

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ (هود:١٣،١٤).

* * *

النُّورُ وَالكتب السماوية

أرسل الله رسلاً لهداية العباد ، لا يعلم عددهم إلا هو ، ذلك لأن القرآن أعلمنا في خطاب رسوله أنه قص عليه بعضًا من الرسل ، ولم يقصص عليه بعضًا آخر منهم ، والرسل المعروفون بأسمائهم خمسة وعشرون رسولاً ، منهم ثمانية عشر ورد ذكرهم في سورة «الأنعام» في آية : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ** ﴾ والآيات التي جاءت بعدها .. والمعروف من الكتب السماوية ـ الآن ـ التوراة والزبور وصحف إبراهيم ، والإنجيل ، ثم القرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ .

فصحف إبراهيم ، وزبور داود ـ عليهما السلام ـ لم يفصل القرآن القول فيهما ، وإنما حكى قصة إبراهيم عدة مرات ، وكذلك نُبذًا موجزة عن داود .

أما التوراة والإنجيل ، فقد نوَّه القرآن بفضلهما كثيرًا ، ولكن على الصفة التي أنزلهما الله عليها ، لا كما هما الآن في أيدي اليهود والنصارى .

ولما كانت هذه الكتب الثلاثة :

التوراة والإنجيل والقرآن ، نازلة لهداية الناس إلى صراط الله المستقيم ، وإلى العمل الصالح الحميد العقبى في الدنيا والآخرة ، لما كانت هذه الكتب بهذه الصفة ، وصفها الله في كتابه العزيز بالنور الذي يبدِّد الظلام ، ويهدي إلى سبيل الرشاد .

ووصف الكتب الثلاثة بـ «النور» لم يأت على وتيرة واحدة ، بل نجد تفاوتًا بينها في هذا الوصف ، تفاوتًا نلحظه من جهتين لا من جهة واحدة :

* من جهة «الكم» أو عدد المرات .

* ومن جهة «الكيف» أو الصياغة الأسلوبية، وهذا يتضح لنا بيقين من التمثيل الآتي:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَ ﴾ (المائدة: ٤٤).

﴿ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَـٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾ (الأنعام: ٩١).

﴿ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَـٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾ (المائدة: ٤٦).

﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ (المائدة: ١٥).

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَـٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (الأعراف: ١٥٧).

﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ (التغابن: ٨).

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَـٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ (النساء: ١٧٤).

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَـٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلۡنَـٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ (الشورى: ٥٢).

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (آل عمران:١٨٤) .

﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ (فاطر:٢٥).

الكتب السماوية التي وُصِفَتْ[1] بـ «النور» وبعض مشتقاته في الآيات المذكورة، أربعة أنواع تفصيلاً، ونوعان إجمالاً، فهي إما كتب مسماة باسمها، وهي على ترتيب النزول :

١- التوراة . ٢- الإنجيل . ٣- القرآن .

وإما غير مسماة، وهي المذكورة ـ إجمالاً ـ في آيتي آل عمران وفاطر :

(الْكِتَاب الْمُنِير)، فهو ـ وإن كان مفردًا ـ المراد به ما أنزله الله على رسله قبل القرآن، وتدخل فيها التوراة، والإنجيل وصحف إبراهيم .

● التفاوت من حيث «الكم» :

لم يجر وصف الكتب السماوية المذكورة بـ «النور» على وتيرة واحدة من حيث الكم :

فالتوراة وصفت بالنور مرتين :

في الآية (٩١) من سورة «الأنعام» وفي الآية (٤٤) من سورة «المائدة» .

والإنجيل وُصِفَ بالنور مرة واحدة في الآية (٤٦) من سورة «المائدة» .

أما الكتب المذكورة إجمالاً في الآية (١٨٤) من سورة «آل عمران»، والآية (٢٥) من سورة «فاطر» فقد وصفت بالنور مرتين في الآيتين المشار إليهما .

أما القرآن الكريم فقد وصف بالنور خمس مرات :

---

(١) ليس المراد بالوصف ـ هنا ـ «النعت» النحوي، بل نسبة النور إلى الكتاب على أي نحو كان .

في الآية (١٥) من سورة : «المائدة» .

والآية (١٥٧) من سورة : «الأعراف» .

والآية (٢٥) من سورة : «فاطر» .

وفي الآية (٥٢) من سورة : «الشورى» .

وفي الآية (٨) من سورة : «التغابن» .

هذا هو التفاوت من حيث «الكم» حيث احتل القرآن المرتبة الأولى .

والتوراة المرتبة الثانية ، ومثلها الكتب المشار إليها إجمالاً ، أما الإنجيل فقد كان في المرتبة الثالثة (الأخيرة) .

- **التفاوت من حيث «الكيف» :**

أما التفاوت من حيث «الكيف» ونعني به : كيفية الصياغة الأسلوبية في نسبة «النور» إلى الكتاب ، فنلاحظ في غير القرآن أن الصياغة كانت هكذا :

﴿ **فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾ - ﴿ **نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ** ﴾ بالنسبة للتوراة .

و﴿ **فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾ بالنسبة للإنجيل .

و﴿ **وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ بالنسبة للكتب التي أشير إليها إجمالاً .

أما بالنسبة للقرآن الحكيم فقد كانت الصياغة هكذا :

﴿ **قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ** ﴾ .

﴿ **النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ** ﴾ أي مع محمد ﷺ .

﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا** ﴾ .

﴿ **وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ .

﴿ **جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا** ﴾ .

- **الفروق بين الصياغات البيانية :**

في غير القرآن جرى الوصف بـ «النور» على موصوف، فكان الموصوف شيئًا ، والوصف شيئًا آخر[1] .

---

(١) ﴿ **فِيهَا هُدًى وَنُورٌ** ﴾ - ﴿ **فِيهِ هُدًى وَنُورٌ** ﴾ - ﴿ **وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ** ﴾ في هذه الصياغات جُمِعَ بين الوصف والموصوف كما ترى .

وفي القرآن لم يجر الوصف على موصوف ، بل جُعِل القرآن نفسه هو « النور » على سبيل الاستعارة التي يحل فيها المشبه به ، وهو هنا النور ، محل المشبه ، وهو القرآن ، وهذا يفيد قوة النسبة بين المشبه والمشبه به ، وصيرورة المشبه هو المشبه به نفسه ، فلا فرق بينهما .

اللهم إلا في آية « الشورى » ، فقد جرى الوصف بـ « النور » على موصوف ، وهو الهاء في « جعلناه » أي صيَّرنا القرآن نوراً ، وهذا آكد في الدلالة من « فيها هدى ونور » ، و « فيه هدًى ونور » ، و « الكتاب المنير » أي الهادي ، والوصف بالمصدر « نور » آكد من الوصف باسم الفاعل « المنير » كقولك : رجل عادل ، ورجل عَدْل ، حيث صار الرجل في العبارة الثانية هو : العدل نفسه لتمكن هذا الوصف فيه تمكنًا غلب على كل صفات الرجل .

فالقرآن كما احتل المرتبة الأولى في نسبة « النور » إليه من حيث الكم ـ عدد المرات ـ ومن حيث « الكيف » طريقة التعبير ، وتأتي التوراة في المرتبة الثانية من حيث « الكم » أما من حيث التكيف فهي والإنجيل في مرتبة واحدة .

ويتميز « الإنجيل » عن الكتب المجمل ذكرها من حيث الكيف : الوصف بالمصدر « نور » .

وتتقدم هي عليه من حيث « الكم » بنسبة ٢ : ١

• لماذا هذا التفاوت :

أما بالنسبة لتفاوت التوراة على الإنجيل ، فلأن التوراة أول كتاب ينزل على أكبر رسول من رسلهم ـ موسى عليه السلام ـ ولأن « الإنجيل » جرى في « فلك التوراة » وذكَّر بها لأنها الأصل الذي جاء « الإنجيل » مخففًا لبعض ما قسا فيها من التشريعات ، ولم ينسخ كل ما جاء فيها من أحكام ، فهو فصول مضافة إلى ما جاء به موسى ـ عليه السلام .

وما قيل في تفاوت التوراة على الإنجيل يقال في الكتب المجمل ذكرها ، لأن فترتها الزمنية واقعة بين التوراة والإنجيل قطعًا .

• تفاوت القرآن على ما عداه :

وأما تفاوت القرآن على ما عداه من كتب سماوية سابقة فللأسباب الآتية :

أولاً : لأنه كلمة «الله» الأخيرة للإنس والجن لم تتقيد بزمان ولا مكان ولا جنس . فلا هدى بعد هداه ، ولا نور يعقب نوره ، ولا الحياة في حاجة إلى كتاب سواه ، ولا هي في غنى عن شيء فيه ﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ** ﴾ (النحل:٤٤) .

ثانيًا : لأنه أقرَ ما جاء به الرسل من قبل ، وشهد لهم بالصدق ، وجعل الإيمان بهم وبما أنزل إليهم مثل الإيمان بخاتم الرسل والأنبياء .

﴿ **قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ** ﴾ (البقرة:١٣٦).

ثالثًا : لأنه جمع ما تفرق على ألسنة الرسل من الدعوة إلى التوحيد ، وأمهات الفضائل ، والإيمان بالحياة الآخرة .

﴿ **وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ** ﴾ (المائدة:٤٨).

رابعًا : اشتماله على المبادئ والأسس التي تنظم كل شئون الحياة ، وتحقق سعادتي الدنيا والآخرة .

خامسًا : لأنه «الوثيقة الإلهية الوحيدة» التي حُفِظَت كما أنزلها الله بلا تَحْريف ولا تَبْدِيل ، وستظل محفوظة حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩) .

أما غيره فقد حُرِّف وبُدِّل ، وذهبت ثقة المؤمنين فيه .

سادسًا : إنه المعجزة الإيمانية الخالدة ، الشاهدة بصحة الرسالات وصدق الرسل جميعًا ، وقع التحدي بها في الماضي ، ويقع الآن ، ويقع في كل جيل

وعصر حتى قيام الساعة .

لهذا ـ وغيره ـ عَظُمَتْ نسبة « النور » في القرآن للقرآن :

﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (الجمعة:٤) .

• منهج القرآن في وصف الكتب «السماوية» بـ «النور» :

من المعلوم أن « النور » في القرآن أوسع دائرة من وروده وصفًا للكتب « السماوية » فله ـ فيه ـ شئون أخرى ـ وحديثنا عنه كان مقصوراً على مجيئه في سياق الحديث عن الكتب الموحاة ، وحديثنا عن منهجه مقصور ـ كذلك ـ على هذا الجانب .

أولاً : استعمل القرآن « النور » في الحديث عن الكتب السماوية حسب قيمة كل كتاب ، والأدوار التي أدَّتها أو تؤديها في مجال الدعوة والإرشاد .

ثانيًا : التفاوت بين الكتب السماوية في نسبة « النور » إليها من جهتين :

* جهة « الكم » أو عدد المرات .

* جهة « الكيف » أو أفخمية الصياغة .

ثالثًا : تمييز القرآن في نسبة « النور » إليه على ما عداه من جهتى « الكم » و« الكيف » معًا لخصائص موضوعية لا وجود لها فيما عداه .

رابعًا : العلاقة الملحوظة بين « النور » وتلك « الكتب » هي علاقة « المشابهة » ـ أي الهداية في كلا الطرفين ـ سواء كان « النور » مستعاراً ، أو غير مستعار .

* * *

العمى ـ العمه

تتفق هاتان الكلمتان في أصل المعنى المراد منهما، وتتفق لفظًا في الأصلين الأول والثاني :

العين ـ الميم . وتختلفان ـ لفظًا ـ في الأصل الثالث، أو ما يسمى ـ صرفيًا ـ بـ « اللام » :

فهو في الأولى « العمى » ألف مقصورة . وفي الثانية « العمه » : هاء .

أما اختلافهما في دقائق المعنى، فهذا يتضح من النظر في الآيات الآتية :

● **التمثيل : (العمى) :**

﴿ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ (الأنعام:١٠٤) .

﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة:٧١) .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٦) .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ (الحج:٤٦) .

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (محمد:٢٣) .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴾ (هود:٢٨) .

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ (فصلت:١٧) .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ (فصلت:٤٤) .

﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾ (النمل:٦٦) .

﴿ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود:٢٤) .

﴿ أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (الرعد:١٩) .

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ﴾ (الإسراء:٧٢) .

﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِيٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرٗا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ ﴾ (طه:١٢٤-١٢٦) .

﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ ﴾ (الفتح:١٧) .

﴿ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٨) .

﴿ وَنَحۡشُرُهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمۡ عُمۡيٗا وَبُكۡمٗا وَصُمّٗا ﴾ (الإسراء:٩٧) .

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴾ (عبس:١،٢).

* في هذه الآيات : تواردت معاني المادة (ع . م . ي) على محورين :

(أ) محور المعاني اللغوية الوضعية .

(ب) محور المعاني المجازية .

وقد وردت المعاني الحقيقية فيما يحدث في الدنيا على مجال التشريع والإخبار القصصي، ونفي المساواة بين المؤمن والكافر ، ففي مجال التشريع استعملت المادة في نفي الحرج عمن فقد بصره في بعض التكاليف ، كالجهاد . ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ ﴾ .

وفي مجال الإخبار القصصي استعملت المادة في ما حدث من صاحب الدعوة ﷺ مع عبد الله ابن أم مكتوم : ﴿ **عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ** ﴾ .

وفي مجال نفي المساواة بين المؤمن والكافر استعملت المادة في تشبيه الكافر بالأعمى ... والمؤمن بالبصير .

* أما ورودها في المعاني المجازية فقد ترددت المادة بين الإشارة إلى ضلال المعتقد ، والجهل وعدم الإدراك ، وبين الإخفاء والتغطية ، ثم الوعيد .

* إن لغة القرآن تستعمل « عمى » وما تصرف منها في طمس الأبصار حقيقة .

ثم تستعيرها لمعان مجازية تربط بينها وبين معناها الحقيقي علاقة وثيقة :

فعمى القلوب عدم إدراكها لدلائل الحق ، وتمكن الجهل فيها ـ أي عمى البصيرة ـ فهي لا تحس ولا تفقه شيئًا .

وينعي القرآن ـ في مواضع ـ على الضالين ضلالهم ، ويقبح حالهم ، فلا يكتفي بوصم قلوبهم بالعمى ، حتى يجمع إلى « عماها » زوال سمعهم وشلل ألسنتهم ، فهم لا يرون ، ولا يسمعون ، ولا يتكلمون ، أنهم كالدمى جمودًا وتحجرًا ، وإن كان لهم سمت الآدميين : ﴿ **أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ** ﴾ (الأعراف:١٧٩) أنهم ـ بسبب عماهم ـ معزولون عن العالم الخارجي ، لا توقظهم موعظة ، ولا تثمر فيهم حجة ، ولا يخيفهم إنذار ، فكيفما كانوا فالعمى ملاحقهم :

عُمْى ، وَعَمون ، وعَمِين ، وهو عليهم عَمًى ، بل وأموات غير أحياء ، وأكثر ما يرمز به القرآن إلى الضلال والجهل والكفر هو العمى ، لأن الأعمى لا يدرك شيئًا مما حوله .

لذلك كثرت تصرفات المادة في القرآن ، فجاء منها الفعل الماضي مرات ، والمضارع ، والوصف والاسم في صور مختلفة .

- **التمثيل : (الْعَمَه) :**

﴿ **ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ (البقرة:١٥) .

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأنعام: ١١٠) .

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الأعراف: ١٨٦) .

﴿ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (يونس: ١١) .

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (الحجر: ٧٢) .

﴿ وَلَوْ رَحِمْنَـٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٥) .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (النمل: ٤).

هذه الآيات السبع جاءت فيها مادة : العين والميم والهاء ، فعلاً مضارعًا سبع مرات ، والمراد منها الحيرة ، والتردد والارتباك ، واشتقاق عمه من الأرض العمهاء ، وهي التي لا تكون بها علامات للنجاة من الهلاك أو سلامة السير .

ومعنى هذا أن معنى عمه : ضل وتحيَّر ضلالاً مُهْلِكًا ، أو دخل في حيرة لا خروج منها .

فالعمى حقيقة في فقد البصر ، ويستعار لضلال المذهب ، والرأي ، والعمه حقيقة في السير في الأرض الواسعة التي لا يرى السائر فيها طريقًا يطمئن إليه للخروج منها ، ويستعار للحيرة والتردد النفسي بين أمور لا يُعرفُ الضارُّ منها من النافع .

وهذا يكشف لنا عن السر البياني في اقتصار القرآن على الفعل المضارع « يعمهون » في سياق الحديث عن الكفر وأهله ؛ لأن في هذا الفعل تصويراً لأنغماسهم في القلق ، وتماديهم في الباطل ، بلا هادٍ يهديهم ، ولا مغيث يغيثهم ، ولا منقذ يخرجهم مما هم فيه .

وقد ضاعف من تكثيف ظلال الحيرة والتردد الفعل « نذرهم » ، وحرف الجر « في » الذي صيَّر حيرتهم التي هم فيها باحتواء « الظرف » على « المظروف » ، فهم لا يرون بصيصًا من أمل ، ولا منفذًا للخروج ، وقد استعار القرآن « يعمهون » لطمس القلوب وعدم الإحساس ، وهذا أشد خطرًا ، وأوخم

عقبى ، وأسوأ مصيرًا من « عمى البصر » ، وأعمى البصر - إذا كان بصير البصيرة - زاكٍ عند الله وعند الناس ، وابن أم مكتوم كان أعمى البصر ، ولكرامته عند الله - لأنه بصير البصيرة - عاتب فيه أكرم خلقه ﷺ ، وزكَّاه وشهد له بالخير ، وفي القرآن الحكيم آية لا ترى في فَقْد البصر مسبة كما تراها في فقد البصيرة وعمى القلب :

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾

(الحج:٤٦).

والمراد بـ « عمى القلوب » هنا : العَمه ؛ لأنه منهج القرآن في التفرقة بين فقد البصر المحسوس ، وفقد البصيرة العقلية .

ودراستنا لهاتين المادتين : (عمى - عمه) كانت من أجل أن نبين تفرقة القرآن بينهما في دقائق المعنى ، بعد اشتراكهما في أصل المعنى العام ، وهو عدم الإدراك .

إن العمى في القرآن خاص بفقد البصر ، وفقد البصر ليس دائمًا مسبة ولا نقصًا .

والعمه في القرآن مستعار لضلال القلوب وفسادها ، وهو مسبة ونقص دائمًا.

فاستعمل القرآن « العمى » في فَقْد البصر لخفة المصيبة فيه .

واستعمل « العمه » في فقد البصيرة لعظم المصيبة فيه .

وإذا فحصنا البنية « الصرفية » لكل من « العمى » و« العمه » وجدنا بنية « العمه » أكثر تحجرًا وجمودًا ، وأصلب عودًا من « العمى » .

لأن « العمى » لامه حرف علة لا يثبت في بعض الأحوال ، وفي القرآن جاء محذوفًا في :

« عمون - عمين » ، وأحيانًا يحذف نطقًا وإن بقي خطا كما في قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ ، وفي غير القرآن يقال : « عمٍ » في أعمى ، أما « عمه » فأصوله الثلاثة : الفاء والعين واللام ، باقية في كل حال .

لـذلك ـ والله أعلـم ـ اسـتعمل القـرآن : الثقيـل « عمـه » في « الثقيـل » فقـد البصيرة .

واستعمل الخفيف « عمى » في الخفيف « فقـد البصـر » وهـذا مـن التناسب العجيب بين الألفاظ ومعانيها ، وفي القرآن نفسه نظائِر أخرى لهذه « اللطـائف » مثل :

القارعة ـ الطامة ـ يَدعُّ ـ يُدعُّون ـ صرصر ـ تهوى به الريح .. وهكذا .

- **منهج القرآن في «العمى ـ العمه» :**

أولاً : كلتا الكلمتين مستعملتان في فقد الإدراك ، وهو أصل الدلالة فيهما .

ثانيًـا : اسـتعمال « العمـى » حقيقـة في فقـد البصـر ، ومجـازًا في الضـلال والإخفاء والتغطية والوعيد ، على سبيل الاستعارة التصريحية .

ثالثًا : قَصْر « العمه » على المعـاني المجازيـة ، واسـتعارته لضـلال المـذهب والرأي وسوء المصير ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

رابعًا : كثرة التصرف « الصرفي » في « العمى » وقصره على الفعل المضـارع في « العمه » مع وقوعه في فواصل الآي دائمًا .

خامسًا : شدة التناسـب بـين كـل مـن « العمـى » ، و« العمـه » وبـين المعنـى المدلول عليه بكل منهما .

الثقيل في الثقيل ، والخفيف في الخفيف على النحو الذي سبق بيانه .

سادسًا : اختصاص « العمى » في نفي المساواة بين المؤمن والكافر .

سابعًا : اختصاص « العمى » الحقيقي بمقام التشريع والإخبار القصصي .

ثامنًا : اقتران « العمى » أحيانًا بآفات أخرى مذمومـة كـالبكم والصـمم ، ثـم المناظرة بينه وبين الإبصار في مواضع أخرى .

* * *

الصوم ـ الصيام

لا تفرق كتب اللغة بين الصوم والصيام ، كلاهما بمعنى واحد عند أئمة اللغة ، حتى الذين وضعوا مصنفات في مفردات القرآن يوردون الصوم والصيام بمعنى واحد ، هو مطلق الإمساك عن الفعل طعامًا كان أو غير طعام ، وتوسع بعض الشعراء فأطلق على الخيل التي أمسكت عن السير بأنها « صيام » . قال النابغة الذبياني :

خيل صيام وخيل غير صائمة   تحت العجاج ، وأخرى تعلك اللُّجُمَا

يقصد بالخيل الصيام الممسكات عن السير ، وبغير الصائمات السائرات .

أما القرآن ، فالوضع فيه مختلف بالنسبة لدلالة كل من هاتين الكلمتين ، وليس معنى هذا أن الاستعمال الذي شاع في اللغة خارج القرآن ، غير صواب ، وإنما الذي نقوله ـ وقد قلناه من قبل :

أن القرآن الحكيم الذي نزل بعلم الله يستعمل مفردات اللغة استعمالاً أمثل ، ويوظف كل « كلمة » توظيفًا حكيمًا ودقيقًا لا يُعْلى عليه ، وذلك هو الإعجاز اللغوي الذي نترسم خطاه ، ونزيح اللثام ـ بقدر طاقتنا المتواضعة ـ عن ملامحه وقسماته الوضيئة .

وكما عودنا القارئ الكريم منذ البداية في هذا العمل ، فإننا نذكر أولاً الآيات التي وردت فيها هاتان الكلمتان : الصوم والصيام ، ثم ننظر فيها لنستجلي التفرقة القرآنية بين الصوم والصيام ، فهيا إلى التمثيل والنظر .

● التمثيل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة:١٨٣) .

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (البقرة:١٨٧) .

﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ (البقرة:١٩٦) .

﴿ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ (النساء:٩٢) .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ﴾ (المائدة:٨٩) .

﴿ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ (المجادلة:٤) .

﴿ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ (المائدة:٩٥) .

﴿ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ (مريم:٢٦) .

في هذه الآيات وردت كلمة « الصيام ـ صيام ـ صيامًا » ثماني مرات ، أما « صومًا » فقد ورد مرة واحدة .

وظاهر ظهور الشمس في منتصف النهار أن القرآن استعمل « الصيام » وصوره الأخرى مرادًا منه معنى خاص غَير المعنى الذي أُرِيد من « صومًا » .

الصيام أُريد منه تلك العبادة المخصوصة التي لا تتحقق إلا بالإمساك عن الطعام والشراب والاتصال الجنسي بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

وقد تكررت كلمة « الصيام » مرادًا بها ما يأتي :

صيام شهر رمضان .

صيام كفارة الظهار .

صيام كفارة اليمين .

صيام جزاء الصيد .

صيام كفارة القتل الخطأ .

صيام التمتع بالعمرة إلى الحج .

صيام الفدية للمحرم بالحج إذا ارتكب مخالفة لا تفسد الحج .

هذه « الصيامات » كلها لابد فيها من الكف عن المفطرات طيلة النهار . وهذا لا خلاف فيه .

أما « صومًا » الواردة في سورة مريم آية (٢٦) فالمراد منها الكف عن الكلام فحسب ، بدليل ما جاء بعدها مباشرة : ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴾ .

إذًا فليس معنى الصيام هو معنى الصوم ، ولا معنى الصوم هو معنى الصيام ، كما يفهم كثير من الناس ، وحتى أهل العلم منهم ، ولو كان « الصوم » يؤدي معنى « الصيام » لجاء ذكره في القرآن ، ولو مرة ، بدلاً من « الصيام » الوارد في القرآن ثماني مرات .

والتزام القرآن ذكر الصيام في المرات الثماني دليل على أن هذه الكلمة لا تؤدي معناها كلمة « الصوم » وإلا لما كان لهذا الالتزام القرآني معنى .

- **ولماذا هذا الالتزام ؟**

لا نزاع أن الإمساك عن شهوتي البطن والفرج أمر شاق على النفس ، شتاء وصيفًا ، أما شتاء فللإحساس بالجوع ، وأما صيفًا فللإحساس الشديد بالعطش مع أطولية النهار على الليل .

أما الإمساك عن الكلام فأمره يسير ، ولا مشقة فيه ، بل ربما كان فيه راحة للنفس ومتعة .

لذلك التزم القرآن «الصيام» في التكاليف الشاقة ، وخص الصوم بالأمر السهل ، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، والصيام أكثر حروفًا من الصوم ، فناسب كل منهما معناه المراد منه ، الصيام للتكليف الشاق ، والصوم للصمت السهل .

• منهج القرآن في «الصوم ـ الصيام» :

أولاً : يفرق القرآن بين الصوم والصيام من حيث المراد من كلٍّ منهما :

فالصوم ـ ولم يرد في القرآن إلا مرة واحدة ـ معناه الإمساك عن الكلام ـ أي الصمت ـ :

﴿ **فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا** ﴾ .

أما الصيام فمعناه : الإمساك عن شَهْوَتِي البطن والفرج بنية من طلوع الفجر إلى غروب الشمس .

ثانيًا : ورد الصيام في لغة القرآن مقصودًا به العبادة المعروفة ثماني مرات معرفًا بـ «أل» مرتين ، ومعرفًا أو مخصصًا بالإضافة أربع مرات ، ومقطوعًا عن الإضافة والتعريف مرتين .

ثالثًا : اختصاص «الصيام» بالتكاليف الشاقة ، والصوم بالكف عن الكلام ، وهو أمر يسير ، وفي هذا مناسبة حميمة بين اللفظ والمعنى في كلٍّ منهما ، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا .

رابعًا : عدم إحلال «الصوم» محل «الصيام» ولو مرة واحدة في المواضع الثمانية ، دليل قاطع على عدم صلاحية «الصوم» لغة وبيانًا للدلالة المراد من «الصيام» فلا ترادف إذًا بين الكلمتين قطعًا .

* * *

ذَاقَ ـ ذُقْ

للقرآن في استعمال المواد اللغوية منهج عام مطرد في كل المواد التي شرفت بورودها في القرآن ، وهذا المنهج العام يدور حول ثلاثة أقطاب :

* فَبَعضُ الْمَوَاد يَسْتَعملُهَا القرآن في كل صيغها في المعاني الوضعية اللغوية ، أو المعاني الحقيقية ، التي أرادها واضع اللغة .

* وبعض المواد يستعملها في المعاني المجازية في جميع صورها .

* وبعض المواد يستعملها أحيانًا في معانيها الوضعية الحقيقية ، ويستعملها أحيانًا أخرى في معان مجازية ، أي أن المادة فيه مادة حقيقة ومجاز ، وفي هذا « النوع » كثيراً ما تجدً للقرآن منهجًا داخليًّا خاصًّا بالمادة نفسها ، أي أنه يستعمل بعضها من صورها حقيقة ، وبعضها مجازًا مع التزام هذا المنهج الداخلي فيما تستعمل فيه بعض صور المادة حقيقة ، وبعضها مجازًا .

وهذا ينبئُ عن نظام دقيق للغاية في استخدام اللغة ، لا يتجلى إلا من خلال الدرس الواعي ، والنظر الفاحص ، والتأمل العميق .

والآن نضع بين يدي القارئ دراسة شاملة لمادة « ذاق » في القرآن ، تطبيقًا لهذا المنهج الذي ألمحنا إليه ، ثم ننظر إلى أي الأقطاب الثلاثة تنتمي هذه المادة .

ولنسر سيرتنا التي سرناها في هذه الدراسة بادئين بـ « التمثيل » :

● **التمثيل :**

﴿ **فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَـٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا** ﴾ (الطلاق:٩) .

﴿ **كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الحشر:١٥) .

﴿ **أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ** ﴾ (التغابن:٥) .

﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ﴾ (المائدة:٩٥) .

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾(الروم:٤٦).

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ﴾ (الأنعام:١٤٨) .

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام:٦٥) .

﴿ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴾ (النبأ:٢٤) .

﴿ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ (الذاريات:١٤) .

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴾ (القمر:٤٨) .

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾ (النحل:١١٢) .

﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ (الزمر:٢٦) .

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾

(آل عمران:١٨٥) .

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴾

(هود:٩) .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا ﴾ (الأعراف:٢٢) .

﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الحج:٢٥) .

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(السجدة:٢١) .

﴿ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ (فصلت:٢٧) .

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (الدخان:٤٩).

حرصنا في هذا التمثيل أن نذكر أمثلة أو مثالاً لكل ما وقعت عليه الإذاقة أو الذوق ؛ لأن تحديد الجهة التي تنتمي إليها هذه المادة من الحقيقة والمجاز إنما تُعْرف بذكر مفعولها ، وأكثر ما وقع مفعولاً لها هو العذاب موصوفًا وغير

موصوف ، وبعض الآيات جاءت بعض صيغ المادة الفعلية محذوفة المفعول ، ولكن المقام يدل عليه ، بل ويحدده ، وإذا استعرنا من علماء أصول الفقه القاعدة المشهورة عندهم : أن المطلق يُحْمل على المقيد ، فإن ما لم يذكر مفعوله من صور مادتنا هذه تحمل على ما ذكر مفعوله ، وهو العذاب ، والمفاعيل التي وقع عليها الذوق أو الإذاقة في الآيات المتقدم ذكرها ، والتي لم نذكرها هي :

الوبال ـ الرحمة ـ النعماء ـ البأس ـ السوء ـ البرد ـ الشراب ـ الفتنة ـ المس المضاف إلى سقر ـ يعني جهنم ـ اللباس المضاف إلى الجوع والخوف ـ الخزى ـ الموت ـ الشجرة ـ العذاب ـ الحميم والغسَّاق ـ العمل ـ الكسب ـ بعض العمل ـ الكنز .

وقد عبَّر عن الأربعة الأخيرة بالاسم الموصول ، وصلته ما ذكرناه مثل :

﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ ﴾ (الروم: ٤١) .

وهذه ـ كلها ـ لا يسوغ أن تكون « مفعولاً » للذوق من غير صرف عن الظاهر ، إلا موضعان سنقف معهما وقفة كاشفة ، لأن الذوق لغة هو :

« وجود الطعم في الفم » .

وهذا لا يكون إلا لما يُشرب ، وهو الأغلب ـ أو لما يُؤكل ، ولا شيء مما تقدم ـ إلا الموضعان المشار إليهما ـ طعام ولا شراب . لذلك وجب الصرف عن الظاهر ليتبين المراد .

وللصرف عن الظاهر ـ هنا ـ طريقتان :

أما أولاهما : فتكون بصرف « الذَّوق » عن حقيقته اللغوية ، فيكون استعارة للإحساس بالنعمة أو العذاب .

والجامع بين الذوق ـ المشبه به ـ وبين الإحساس ـ المشبه ـ هو « قوة الوجدان » أو « شدة الإحساس » ، وبعض العلماء فسَّر العلاقة هنا بـ « التجربة »

أو « حصول المعرفة » ومع وجاهة هذا التفسير فإنه لا يطرد في كل موضع من مواضع استعمال « الذوق » في الآيات المذكورة .

فهو سائغ ـ مثلاً ـ في قوله تعالى : ﴿ **ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ** ﴾ ، أي : جربوا ألم النار .

وليس سائغًا ـ مثلاً آخر ـ في قوله تعالى : ﴿ **وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً** ﴾ .

إذ لا يستساغ حمله على : إذا جربنا الإنسان منا رحمة . . والصواب أن يقال : إذا خوَّلنا الإنسان ، وهذا من تفسير القرآن بالقرآن .

فقد ورد هذا في قوله تعالى :

﴿ **ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ** ﴾ (الزمر:٨).

والتخويل : الإعطاء ، أى إذا أعطاه نعمة ، ويكون التعبير عن هذه المعانى بـ « الإذاقة » إشارة إلى تمكن الإنسان من النعمة والرحمة تمكنا جعله شديد الإحساس بها في شئون حياته .

والإذاقة في المطعومات كالمس في المحسوسات ، كلتاهما مستعارتان لشدة الإحساس وقوة الوجدان ، والاستعارة فيهما تصريحية تبعية .

والمس مستعار في لغة القرآن للإصابة ، فقوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ** ﴾ (الزمر:٨) ، أي : أصابه إصابة موجعة يجد أثرها في نفسه ويحس بها إحساسًا شديدًا .

وطريقة الاستعارة التصريحية أقرب إلى بيان المراد من الذوق والإذاقة من أي توجيه آخر .

أما الطريقة الثانية فهي جواز الحمل على الاستعارة المكنية ، فيشبه العذاب ـ مثلاً ـ بمطعوم أو مشروب ، ثم يقدر المشبه به محذوفًا ، ويكون « الذوق » أو « الإذاقة » مُوقعةً على العذاب هي قرينته المكنية .

هــذا في «المكروهــات» كالعــذاب والوبــال والفتنــة والســوء ، أمــا في المحبوبات كالرحمة والنعماء فيجري فيها ما جرى في المكروهات .

ويكون المغزى البلاغي في المكروهات أن العذاب وأشباهه صار بمنزلة المطعوم والمشروب لهم : في الملازمة والغدو والرواح فيه ، وفي المعاناة من شدة وطأته .

أما في المحبوبات فهو الإشارة إلى جلال النعمة وسهولة الانتفاع بها ، ولذة التمتع بتناولها .

• الموضعان المستثنيان :

سبقت الإشارة إلى استثناء موضعين من المواضع التي أُوقعت الإذاقة أو الذوق فيها على «المفاعيل» التي وردت في الآيات .

فقد قلنا من قبل إن هذه «المفاعيل» كالعذاب والبأس ليس مما يذاق لغة ، وأنه لا بد من صرفها عن ظواهرها ليتبين المراد من الكلام ، وحاولنا ذلك الصرف عن الظاهر في بعض الأمثلة ليقاس عليها غيرها .

والموضعان اللذان أرجأنا الحديث عنهما هما قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا** ﴾ أي آدم وحواء ، وقوله تعالى في سورة النبأ : ﴿ **لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرۡدٗا وَلَا شَرَابًا** ﴾ .

فذوق الشجرة مجاز من حيث أوقع «الذوق» عليها ، والمراد ثمرها لا ذاتها ، والمجاز ـ هنا ـ مرسل علاقته إما المحلية لأن الشجرة محل الثمر .

وإما الكلية ، حيث أطلق الكل «الشجرة» وأريد الجزء : «الثمر» هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فإن فيه استعارة الذوق للأكل ، حيث ورد الأكل مصرحًا به في قوله تعالى : ﴿ **فَأَكَلَا مِنۡهَا فَبَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا** ﴾ (طه:١٢١) .

والمغزى من استعارة «الذوق» لـ «الأكل» أن الذي حذَّرهما الله منه وقع

بمجرد أن ذاقا الشجرة ، فضلاً عن الأكل منها ، فكان الخير في امتثال أمر الله ، وإلا فإنه يسير المخالفة موقع في الضرر .

وفي هذا الإشارة إلى عظمة حكمة الله فيما ينهى عنه أو يأمر به ، وعلى أية حال فإن «الذوق» هنا يكتنفه المجاز من كل جهة ، وإن بدا أمام النظر العابر أنه حقيقة لغوية .

أما موضع «النبأ» : ﴿ **لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا** ﴾ ، فإن «شرابًا» يصح أن يكون «مفعولاً» لـ «يذوقون» على سبيل الحقيقة لا المجاز ، لكن عطف «شرابًا» على «بردًا» وَجَعْل «بردًا» مفعولاً بالأصالة لـ «يذوق» قد يميل بالفهم ميلاً آخر .

فباتفاق أن إيقاع «الذوق» على «بردًا» مجاز لا حقيقة ، والبرد هنا معناه الروح التي تنفِّس عنهم اختناق النار .. إذًا فمعنى الذوق ـ هنا : الرؤية ، كما قال تعالى في نظير هذا : ﴿ **لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا** ﴾ (الإنسان:١٣) .

وعلى هذا فقد يكون المعنى فيه : لا يرون فيها بردًا ، ويكون عطف «شرابًا» عليه للمشاركة في المعنى ؛ إذ من المعروف أن المعطوف يأخذ حكم المعطوف عليه ، أي : لا يرون بردًا ولا يرون شرابًا .

ويكون نفي الرؤية الواقعة على البرد والشراب كناية عن حرمان أهل النار من هاتين النعمتين ، كما كان نفي الشمس والزمهرير كناية عن عدم التأذِّي بهما ، والتنعيم بأضدادهما وهما الظل الظليل والنسيم المنعش .

وعلى هذا فإن حمل «الذوق» الواقع على الشراب على المجاز مسلم سائغ ، بل وأرجح ـ فيما نرى ـ من الحمل على الحقيقة ، لأن نفي الرؤية يستلزم نفي وجود الشيء ونفي وجود الشيء يستلزم نفي الانتفاع به .

وبهذا يمكن أن نقول :

إن مادة «ذاق» في القرآن الكريم مادة مجاز ، لا مادة حقيقة ، ولا مادة حقيقة ومجاز .

• الذوق والإذاقة :

جاءت المادة في لغة القرآن متعدية لمفعول واحد : ذاق ، ومتعدية لمفعولين بالهمزة : « أذاق » .

بيد أننا لاحظنا أنها إذا استعملت في « المحبوبات » جاءت متعدية لمفعولين ، والفاعل هو الله .

وإذا استعملت في « المكروهات » ترددت بين الأمرين : التعدي لمفعول واحد ، والتعدي بالهمزة إلى مفعولين ، والفاعل هو الله كذلك ، وكون فاعل المتعدي لمفعول واحد هو غير « الله » لأن الذوق من صفات الحوادث ، والله ليس كمثله شيء .

أما الإذاقة فإن فاعلها هو الله لا غيره ؛ لأنها إيقاع للذوق على غير الفاعل .

والسر ـ والله أعلم ـ في اختصاص « المحبوبات » بالإذاقة التي هي فِعْل الله ، أن المحبوبات نعم يمن الله بها ـ وحده ـ على من يشاء من غير استحقاق لأحدٍ عليه ، لذلك أُسْنِدَت إليه لأنه واهبها :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ (النحل:٥٣).

أما تردد إسناد الذوق في المكروهات إلى غير الله ، والإذاقة إلى الله فللإشارة إلى أمرين :

الأول : كون الذين استحقوا ذوق العذاب ، ونظائره هم السبب فيما حل بهم ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

الثاني : أن مصيرهم المؤلم إنما هو قضاء الله فيهم بالعدل والحكمة ، جزاء وفاقًا .

هذا هو البيان القرآنى المعجز ، ينتقي مفردات اللغة حسب علم الله المحيط ، ويصرفها تصريفًا بديعًا وفق نظام مذهل ، تراه وراء كل كلمة ، وكل جملة ، ومن أحسن من الله حديثًا ؟ لا أحد ، وصدق الله العظيم :

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٢).

● منهج القرآن في «الذوق» :

أولاً : استعمل القرآن مادة «ذاق» في المكروهات والمحبوبات ، بيد أن استعماله إياها في المكروهات أكثر .

ثانيًا : مجيء المادة فيه متعدية لمفعول واحد ، والفاعل غير الله ـ ضرورة ـ ومتعدية لمفعولين والفاعل هو الله وحده .

ثالثًا : في المحبوبات التزم القرآن مجيئَها متعدية لمفعولين والفاعل هو «الله وحده» ؛ لأن المحبوبات نعمة : ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ .

رابعًا : وفي المكروهات فإن فاعل «الذوق» غير الله ؛ لأن الذوق من صفات الحوادث ، والله ليس كمثله شيء ، أما فاعل «الإذاقة» فهو «الله» لأنه القائِم على كل نفس بما كسبت .

خامسًا : إسناد «الذوق» إلى غير الله إشارة إلى استحقاقهم العقاب بما قدمته إيديهم .

وإسناد «الإذاقة» في المكروهات إلى الله وحده ، لأنه هو الذي قضى عليهم بسوء المصير بما اكتسبوا وجَنَوْا جزاءً وفاقًا .

سادسًا : مادة «ذاق» في لغة القرآن مادة مجاز ، كيفما جاءت ، سواء في ذلك استعمالها في «المحبوبات» أو «المكروهات» .

وهي مستعارة في القرآن لشدة الإحساس ، وقوة الوجدان .

* * *

الخاتمة

عزيزي القارئ الكريم ، مما ها أنتذا قد فرغت من قراءة هذه الدراسة ، ووقفت على شيء من أسرار الإعجاز القرآني البلاغي اللغوي ، ورأيت الإعجاز القرآني البلاغي اللغوي ، ورأيت كيف كان للمفردات القرآنية من دور عظيم في استجلاء سمات الإعجاز فيه ، وكيف وقع اللفظ فيه موقعه من بلاغة الإعجاز وإعجاز البلاغة ، وإلى أي مدًى استعمل القرآن الأدوات اللغوية استعمالاً أمثل هو الفيصل بين الأسلوب القرآني المعجز ، وبين كلام البشر في أرقى نماذجه وصوره ، وإننا لنحسب أن أبرز ما أسفرت عنه هذه التجربة أمران :

الأول : أن ظاهرة الترادف اللغوي تكاد تكون معدومة في لغة القرآن ، أو هي كذلك فعلاً في المواد اللغوية التي تناولتها الدراسة ، لأن لكل لفظ قرآني خاصية فريدة ، ودلالة دقيقة لا توجد في سواه من الألفاظ المشتركة معه في أصل المعنى ، وقد مرت بنا عشرات الشواهد على هذا المسلك الإعجازي البديع .

الثاني : تلك المناهج التي رصدناها عقب الفراغ من كل مادة لغوية شرفت باستعمال القرآن له ، وقد أوجزت تلك المناهج التطبيقية طرائِق القرآن في توظيف اللغة ، وفي هذا إشارة إلى أن لكل مادة لغوية في القرآن منهجًا خاصًّا بها .

فقد رأينا ـ مثلاً ـ كيف وظَّف القرآن مادة ختم ، ومادة طبع ، ومادة ربط ، مع أن هذه المواد الثلاث لها أصل دلالي واحد ، إلا أن القرآن وظف كلاًّ منها في تأدية معاني متباينة من مادة إلى أخرى ، ولم تخلُ مادة من المواد الثلاث من دواع ومقتضيات بلاغية ، خصصت معانيها بالمقام الذي استعملت فيه ،

وهكذا تفتح هـذه الدراسـة أبوابًا جديـدة في مجـال الإعجـاز القرآنـي البلاغـي اللغوي ، وهـو الوجـه المختـار ، والمجمـع عليـه بـين جميـع البـاحثين قـديمًا وحديثًا ، من جملة وجوه الإعجاز الأخرى ، وإننا لنهيب بالبـاحثين في إعجـاز القرآن أن ينهجوا هذا المنهج ، أما نحن ، فبالإضافة إلى ما قدمناه هنا فإن لدينا العزم على إعداد جزء ثان مكمل لهذا الجزء ، نسـأل الله تعـالى أن يعيننـا علـى إخراجه وييسر لنا سبل السير فيه ، راجين منـه العفـو عـن الزلـل ، إنـه رحيـم ودود .

المؤلف عفا الله عنه

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة
تقديم	٥-١٠
مواد الدراسة	١١
الأب ـ الوالد (الأبوة ـ الوالدية)	١٣-٢١
أقبل ـ تعال	٢٢-٣٠
أصحاب ـ أولو	٣١-٣٦
الكَرْه ـ الكُره	٣٧-٣٩
النصر ـ الظفر	٤٠-٤٤
قليل ـ كثير	٤٥-٥٠
الريح ـ الرياح	٥١-٥٧
الرشد ـ الهوى	٥٨-٦٢
فَرَق ـ فرَّق	٦٣-٦٧
الجسد ـ الجسم	٦٨-٧٠
عرف ـ علم	٧١-٧٤
المس ـ اللمس ـ المسح	٧٥-٨٢
المطر ـ الغيث	٨٣-٨٦
النعمة ـ النعيم	٨٧-٩٠
الجمال ـ الحسن	٩١-٩٥
الميِّت ـ الميْت	٩٦-١٠٦
مدَّ ـ أمدَّ	١٠٧-١١١
العمل ـ الفعل	١١٢-١١٨

الجهاد ـ القتال.. ١١٩-١٢٣
المخطئ ـ الخاطئ.. ١٢٤-١٢٧
كفَّر ـ غفر.. ١٢٨-١٣٦
مرض ـ مرضًا.. ١٣٧-١٣٩
المرأة ـ البعل.. ١٤٠-١٥٠
ختم ـ مختوم.. ١٥١-١٥٧
طبع ـ يطبع.. ١٥٨-١٦٢
ربط ـ يربط.. ١٦٣-١٦٥
سخَّر ـ مسخَّرات... ١٦٦-١٧٦
سخِر ـ يسخر.. ١٧٧-١٨٠
السكينة ـ الشجاعة... ١٨١-١٨٥
الفوز ـ النجاح... ١٨٦-١٩٦
اللسان ـ اللغة... ١٩٧-٢٠٣
صعد ـ يصعد.. ٢٠٤-٢١١
رفع ـ يرفع... ٢١٢-٢١٩
الدعاء ـ النداء.. ٢٢٠-٢٢٥
النداء ـ الدعاء.. ٢٢٦-٢٣٣
ربّ ـ رب كل شيء.. ٢٣٤-٢٥٩
النور ـ والكتب السماوية... ٢٦٠-٢٦٦
العمى ـ العمه... ٢٦٧-٢٧٢
الصوم ـ الصيام... ٢٧٣-٢٧٦
ذاق ـ ذقْ.. ٢٧٧-٢٨٤
الخاتمة.. ٢٨٥-٢٨٦
الفهرس.. ٢٨٧